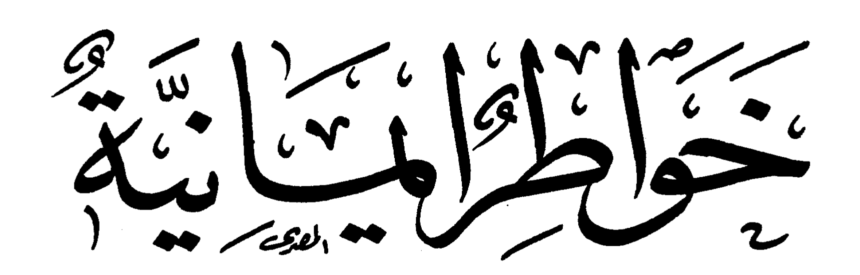


جمع وترتيب

د/ أحمد فريد

الناشر

الدار السلفية للنشر والتوزيع

إسكندرية

0123490589 ✆

طبعة خاصة بمصر

الدار السلفية للنشر والتوزيع
إسكندرية
✆ 0123490589

رقم الإيداع 2004/5849
ترقيم دولي I.S.B.N.
977-5953-80-4

الطبعة الثالثة
1427 هـ / 2006 م

خواطر إيمانية

طبعة خاصة بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

نسأل الله تعالى حسن الخاتمة

الحمد لله المتفرد بوحدانية الألوهية، المتعزز بعظمة الربوبية، القائم على نفوس العالم بآجالها، العالم بتقلبها وأحوالها، المانِّ عليهم بتواتر آلائه، والمتفضل عليهم بسوابغ نعمائه، الذي خلق الخلق حين أراد بلا معين ولا مشير، وأنشأ البشر كما أراد بلا شبيه ولا نظير، فمضت فيهم بقدرته مشيئته، ونفذت فيهم بحكمته إرادته، وألهمهم حسن الإطلاق، وركب فيهم تشعب الأخلاق، فهم على طبقات أقدارهم يمشون، وفيما قضى وقدر عليهم يهيمون، وكل حزبٍ بما لديهم فرحون.

وأشهد أن لا إله إلا الله خالق السماوات العلى، ومنشئ الأرضين والثرى، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

وأشهد أن محمداً عبده المصطفى، ونبيه المجتبى ورسوله المرتضى، بعثه بالنور المضي، والأمر المرضي على حين فترة من الرسل، ودروس من السبل، فدمغ به الطغيان، وأظهر به الإيمان، ورفع دينه على سائر الأديان، فصلى الله وسلم وبارك عليه ما دار في السماء فلك، وسبح في الملكوت ملك، وسلم تسليما.

ثم أما بعد:

فهذه ومضات مضيئة، وإن شئت قلت: أنوار كاشفة، وهدايات ربانية، وفتوحات رحمانية، وخواطر إيمانية، أردت تقييدها حتى لا يطويها النسيان، وتذهب بنضارتها الأيام، لعل من الناس من ينتفع بها يوماً من الدهر، فينتفع بذلك ساطرها، وناشرها، ومن قرأها يلتمس الهداية والتوفيق، ولعلها كذلك تكون ذكرى لبعض المحبين والدعاة المخلصين، والكُتَّاب المتقنين، فينسج على منوالها، ويبنى على قواعدها بنيانٌ راسخٌ، وطودٌ شامخٌ، فتكون من الساطر البدايات، ومن الناسج النهايات، والله الموفق للطاعات، والهادي لأعلى الدرجات.

هذا الكتاب جمعت فيه خواطري التي خطرت على قلبي، وما استحسنته عيني مما وقفت عليه، وفتح الله عز وجل في فهمه وهو الفتاح العليم، أو عرفت مغزاه، على مدى أكثر من ثلاثين عاماً في طلب العلم النافع، والدعوة إلى الله عز وجل، وقد أسرع بنا قطار العمر وأوشك على الوصول إلى نهاية الطريق وجاءنا النذير.

فهذا الكتاب عمري بثثت فيه خلاصة فكري ونظري، وسجلت فيه مشاعري، ونبضات قلبي، وفيوضات ربي، فإن وجد كفؤاً كريماً فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، وإن وجد غير ذلك فالله المستعان.

لم أكثر في هذا الكتاب كعهدي في كتب السابقة من النقول، لأنها خواطر سنحت، وعلى الله القبول، وقد تأتي الخاطرة عند سماع آية، أو حديث، أو قول من أقوال الصالحين، أو عند سماع خبر، أو رؤية مشهد، وقد استفدت كثيراً من الخواطر مما قرأته آنفاً، وفي الغالب أسوقه بلفظي تسهيلاً على القارئ، وقد أنقله بلفظه من بعض الكتب التي تُعنى بموضوع كتابي، وأخصُّ منها كتاب «صيد الخاطر» لندرة

الوعاظ وشيخ المصنفين أبو الفرج ابن الجوزي و«الفوائد» لحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ابن قيم الجوزية، وقد يفتح الله عز وجل عَلَيَّ في بعض الخواطر في موضوعات عالجتها في كتبي السابقة، فيكون ما في كتابي هذا تكملة لخطبة مدونة، أو أختصر في خاطرة ما بسطته في كتبي لمزيد الاهتمام، فأتى كتابي هذا كأنه باقة ورد مختلفة الروائح، متباينة الألوان، أو طبق فاكهة مختلفة الطعوم والأشكال، فقد تكون الخاطرة في مسألة من مسائل العقيدة، أو مما يخص المنهج السلفي المبارك، أو السلوك والرقائق وأخبار الصالحين والمصلحين والله ولي المؤمنين.

وإن مَنَّ الله الكريم علينا بطول العمر وحسن العمل، فالكتاب مفتوح لتسجيل الخواطر الإيمانية، والنفحات الرحمانية، والكتاب ليس وقفاً على الخواطر التي تخطر على قلبي، ولكن إذا وقفت على خواطر في كتب العلماء الربانيين من القدماء والمعاصرين، أو فتح الله عز وجل بخاطرة إيمانية على بعض إخواننا الطيبين، وقصد نصح المسلمين وأن يدخر بها أجراً عند أرحم الراحمين فنحن نرحب بخاطرته ونسجلها بإذن رب العالمين في طبعات لاحقة، ولاشك في أن كل مسلم وخاصة من يهتم بطلب العلم النافع والعمل الصالح، تأثر في حياته بآيات سمعها ولمست شغاف قلبه، حيث سمعها في وقت أحوج ما يكون إليها، أو تعلم حديثاً نبوياً فَسَدَّ خَلَّة في قلبه، وعالج قضية شغلته، أو مَرَّ بمواقف إيمانية، وأجواء نقية، فأثمرت خواطر طيبة، فحتى لا تذهب هذه الخواطر مع الزمان، ويحرم منها الإخوان، فلاشك في أن في تدوينها صدقة جارية، وتذكرة غالية، فكم انتفع المسلمون بكتاب «**صيد الخاطر**» لابن الجوزي، فلو أن كثيراً من علماء الأمة قفوا أثره في

تسجيل الخواطر، عملاً بقول القائل «قيدوا العلم بالكتابة» لكثر الخير، وعمَّ النفع، وأين نحن من هؤلاء الأعلام والأئمة الكرام الذين تتنزل الرحمات بذكرهم، وتحيا القلوب بحبهم، وحسبنا أننا على طريقهم وعلى منهجهم، وإن قصرت بنا هممنا، وقيدتنا خطايانا.

قيل للحسن: سبقنا القوم على خيلٍ دهمٍ، ونحن على حُمُرٍ مُعَقَّرةٍ – أي مُجَرَّحَةٍ – فقال: إن كنت على طريقهم فما أسرع اللحاق بهم.

قيل: يا من انحرف عن جادتهم، كن في أواخرِ الركب، ونم إذا نمت على الطريق، فالأمير يرعى الساقة[1].

قال ابن القيم رحمه الله: كان ذو البجادين[2] يتيماً في الصغر، فكفله عمه، فنازعته نفسه إلى اتباع الرسول ﷺ فَهَمَّ بالنهوض، فإذا بقية المرض مانعة، فقعد ينتظر العَمَّ، فلما تكاملت صحته نفد الصبر، فناداه ضمير الوجد.

إلى كَمْ حَبْسُها تَشْكُو المَضْيقَا ... أثِرْهَا رُبَّمـا وَجَـدَت طَريْقَا

فقال: يا عم طال انتظاري لإسلامك، وما أرى منك نشاطاً.

فقال: والله لئن أسلمت لأنتزعن كل ما أعطيتك.

فصاح لسان الشوق: نظرةٌ من محمد ﷺ أحب إليَّ من الدنيا وما فيها.

ولو قيل للمَجْنُون لَيْلَى وَوَصْلُها ... تُريدُ أَمْ الدّنْيـا ومَـا في طَوَايَاهَا

لقَالَ غُبَـارٌ مِن تُرابِ نِعَـالِهَـا ... أَلَذُّ إلىَ نَفْسِي وَأَشْـهَى لِبَلْوَاهَا

---

(١) **الساقة**: مؤخرة الجيش.

(٢) **البجاد**: هو الكساء، وذو البجادين هو عبد الله بن عبد نهم لما جرده عمه من ثيابه أعطته أمه بجاداً كساءً، فقطعه نصفين ارتدى أحدهما وائتز بالآخر فسماه رسول الله ﷺ ذو البجادين.

فلما تجرد للسير إلى الرسول ﷺ، جرده عمُّه من الثياب، فناولته الأم بجاداً فقطعه لسفر الوصل نصفين، إتَّزر بأحدهما وارتدى بالآخر. فلما نادى صائح الجهاد قنع أن يكون في ساقة الأحباب، والمحب لا يرى طول الطريق، لأن المقصود يعينه.

أَلا بَلَّغَ اللهُ الحِمَى مَنْ يُرِيْدُهُ   وَبَلَّغَ أَكْنَافَ الحِمَى مَنْ يُرِيْدُهَا

فلما قضى نحبه، نزل الرسول ﷺ يمهد له لحده يقول: [اللهم إني أمسيتُ عنه راضياً فارض عنه ... فصاح ابن مسعود: يا ليتني كنت صاحب القبر.

فيا مخنث العزم أقل ما في الرقعة البيدق فلما نهض تفرزن(1).

وبعد

فإني رغبت أن يكون كتابي هذا أنيساً في الوحدة، وجليساً في الخلوة، فيه من الفوائد والفرائد ما يعض عليه مالكه بالنواجذ.

أتاكَ حديثٌ لا يملُّ سَمَاعُهُ   شَهِيٌّ إِلَيْنَا نَثْرُهُ وَنِظَامُهُ

إِذَا ذَكَرتهُ النَّفْسُ زَالَ عَنَاؤُهَا   وَزَالَ عَنِ القَلْبِ المعُنَّى ظَلامُهُ

فالله أسأل أن يتقبل مني بضاعتي المزجاة، ويتصدق عَلَيَّ من فضله وجوده وكرمه، وأن يغفر لي ولوالدي ولإخواني وللمسلمين ما زل به القدم، أو أخطأ به القلم، وأن لا يكون هذا آخر العهد بالتصنيف والإفادة وطلب الحسنى وزيادة، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

وهذا أوان الشروع في الخواطر الإيمانية، أسأل الله تعالى حسن النية، والالتزام بالسنة النبوية. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(1) الفوائد لابن القيم (٥٨،٥٩) باختصار. ط. دار الدعوة.

والمقصود بالرقعة رقعة الشطرنج، والبيذق بمنزلة العساكر، والفرزن هو الوزير للملك، والمعنى ظاهر أن الانسان إذا نهض وجَدَّ في التحصيل أدرك معالي الأمور.

الخاطرة الأولى

هم الداعية هداية الخلق

ينبغي أن يكون هَمُّ الداعية هداية الخلق، وله في الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام أسوة وكذا الدعاة المخلصون.

قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]

ولحرص الأنبياء الكرام على هداية الناس، صبروا على أذاهم، وتلطفوا معهم في الخطاب، فهذا نوح عليه السلام قال له قومه: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٦٠-٦٢]

وهذا هود عليه السلام: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف:٦٦-٦٨]

وهذا شعيب عليه السلام قال الملأ الذين استكبروا من قومه: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٨-٨٩]

وهذا مؤمن آل ياسين لشدة حرصه على هداية قومه لما قتلوه وعاين كرامة الله عز وجل قال: ﴿**يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ**﴾ [يس:٢٦-٢٧] فنصح قومه في حياته وبعد مماته.

وهذا الغلام في قصة أصحاب الأخدود بذل نفسه من أجل هداية قومه وكان من ثمرة بذل نفسه قول الناس «آمنا برب الغلام» فينبغي على الداعية أن يكون أكبر همه هداية الناس ويعينه على ذلك قول النبي ﷺ: [مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا][1]. وقوله ﷺ: [فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِي اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ][2].

والهداية تنقسم إلى نوعين: هداية البيان، وهي التي يقدر عليها الرسل وأتباعهم قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ [الشورى:٥٢]

والنوع الثاني من الهداية وهي الهداية الكاملة بمعنى خلق الهدى في قلوب الناس، وشرح صدورهم للإسلام. قال تعالى: ﴿**إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾ [القصص:٥٦] وقال تعالى: ﴿**فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ**﴾ [الأنعام:١٢٥]

وهذا النوع من الهداية لا يقدر عليه أحدٌ إلا الله عز وجل.

---

(١) رواه مسلم (١٦/٢٢٧) العلم.

(٢) رواه البخاري (٧/٥٤٤) المغازي.

ونحن نسأل الله عز وجل أن يهدينا الصراط المستقيم في كل ركعة، والصراط المستقيم هو العلم النافع والعمل به، فنحن نسأل الله عز وجل في كل ركعة مزيد من الهداية، والله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد:١٧] فالله تعالى يكافئ على الهداية بالهداية كما يكافئ على الحسنة بالحسنة فمن ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها.

فالداعية الصادق همه هداية الناس، فهو لا يهدف إلى مزيد من الشهرة، أو كثرة الأتباع، أو عرض زائل من أعراض الدنيا، ولكنه يهدف إلى هداية الناس، نسأل الله تعالى أن يهدينا إلى صراطه المستقيم.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:١٠٨]

عن أبي الدرداء ﷺ قال: ما تصدق مؤمن بصدقة، أحب إلى الله تعالى من موعظة يعظ بها قومه، فيتفرقون وقد نفعهم الله عز وجل بها.

وقال سفيان الثوري: لا أعلم في العبادة شيئاً أفضل من أن يعلم الناس العلم.

الخاطرة الثانية

من أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله

الحب في الله والبغض في الله من أوضح العلامات على محبة الله عز وجل، تمنن الله عز وجل بهذه النعمة العظيمه على الصحابة الكرام، وعلى المتحابين في الله في كل زمان فقال عز وجل: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال:٦٣]

قال هرم بن حيان: إذا أقبل العبد بقلبه على الله عز وجل، أقبل الله عليه بقلوب أوليائه، حتى يرزقهم مودته.

وقال النبي ﷺ: [وجبت محبتي للمتحابين فيَّ، والمتزاورين فيَّ، والمتباذلين فيَّ][(١)].

أليس من العجيب أن يمتلئ قلبك بحب أقوام من غير أرحام، ولا مصالح دنيوية، لا لشيء إلا لإيمانهم ومحبتهم لله عز وجل، فهذا الحب من ثمرة محبة الله عز وجل، وقد وعد الله عز وجل بهذا الحب أهل الإيمان والعمل الصالح فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦] أي مودة ومحبة في قلوب الخلق.

فالحب في الله عز وجل علامة على محبة الله عز وجل، وكلما ازداد حب العبد لله عز وجل ازداد حبه في الله، وإذا تحاب اثنان في الله عز وجل، كان أحبهما لأخيه أكثرهما حب لله عز وجل وأفضلهما.

---

(١) رواه مالك (٢/٩٥٣، ٩٥٤)، والحاكم في مستدركه (٤/١٦٨، ١٦٩) وصححه، والبغوي في شرح السنة (١٣/٥٠).

قال بعضهم:

وأحب لحب الله من كان مؤمناً وأبغض لبغض الله أهل التمرد

وما الدين إلا الحب والبغض والولا كذاك البرا من كل غاوٍ ومعتد

وبالحب في الله عز وجل يذوق العبد حلاوة الإيمان. قال النبي ﷺ: [ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ حَلاَوَةَ الإيمَان: أَنْ يَكونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إليْه ممَّا سوَاهُمَا وَأَنْ يُحبَّ المَرْءَ لا يُحبُّهُ إلاَّ لله، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ في الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ في النَّار][1].

وبهذه المحبة التي تظل المتحابين في الله عز وجل، يظلهم الله عز وجل تحت ظل عرشه يوم القيامة قال النبي ﷺ: [إنَّ اللهَ يَقُولُ يَوْمَ القيَامَة: أَيْنَ المُتَحَابُّونَ بجَلالي، اليَوْمَ أُظلُّهُمْ في ظلِّي، يَوْمَ لا ظلَّ إلاَّ ظلِّي][2].

وبهذه المحبة التي تجمع بين قلوب المتحابين في الدنيا يجمعهم الله عز وجل في الجنة عن أبي موسى رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله الرجل يحب القوم، ولم يلحق بهم، فقال ﷺ: [المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ][3] ولا يدخلون الجنة إلا بهذه المحبة، قال النبي ﷺ: [لاَ تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمنُوا، وَلاَ تُؤْمنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيءٍ إذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ][4].

---

(١) رواه البخاري (١/ ٦٠) الإيمان، ومسلم (٢/ ١٣) الإيمان، والترمذي (١٠/ ٩١ عارضته) الإيمان.

(٢) رواه مسلم (١٦/ ١٢٣) البر والصلة، ومالك في الموطأ (٢/ ٩٥٢) الشعر، والبغوي في شرح السنة (١٣/ ٤٩).

(٣) رواه مسلم (١٦/ ١٨٦) البر والصلة.

(٤) رواه مسلم رقم (٥٤) الإيمان، وأبو داود (٥١٧١ العون)، وابن ماجه (٦٨) المقدمة. وقال النووي: معناه لا يكمل إيمانكم ولا يصلح حالكم في الإيمان إلا بالتحاب.

عن علي ﷺ قال: عليكم بالإخوان، فإنهم عدة في الدنيا والآخرة، ألا تسمع إلى قول أهل النار ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١]

وقد ورد في تفسيرها أن الرجل من أهل الجنة يقول أين صديقي فلان، وصديقه في النار، فيقول الله عز وجل أخرجوا له صديقه، فيقول من بقي في النار ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾

وقال بعضهم: لا تستكثر أن يكون لك ألف صديق، ولا تستقل أن يكون لك عدو واحدٌ.

الخاطرة الثالثة

في قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ الزمر: ٦٧]

نشر في بعض الجرائد الرسمية، أن علماء الفلك إكتشفوا أن عدد النجوم في السماء أكبر من عدد الرمال على شواطئ جميع البحار والمحيطات، وقد بين الله عز وجل في كتابه أن هذه النجوم مصابيح في السماء الدنيا فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ [الملك: ٥]

فإذا كانت هذه النجوم والأجرام السماوية على كثرتها وعظمتها مجرد زينة في السماء الدنيا فكيف بالسماء الدنيا، ثم الثانية، ثم الثالثة، ثم الرابعة، ثم الخامسة، ثم السادسة، ثم السابعة، ثم العرش، والله تعالى استوى على العرش، بائنٌ من خلقه، والسماوات لا تقله ولا تظله، وهو عز وجل فوق كل شيء، أكبر من كل شيء، فكيف يمكن للعقول الناقصة المحدودة، أن تحيط بعظمة الخالق عز وجل، ولذا نهانا الشرع الحنيف أن نتفكر في ذات الله عز وجل، شفقة على عقولنا، وأمرنا أن نتفكر في مخلوقات الله عز وجل فقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]

وقال تعالى: ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]

فالله عز وجل يعلم ولا يحاط به علماً لعظمته عز وجل، كما أنه عز وجل يرى في الآخرة ولا يدرك لعظمته عز وجل.

فنحن نعلم من أسماء الله عز وجل وصفاته، ولكن عقولنا القاصرة لا تحيط علماً بالخالق عز وجل كما قال تعالى: ﴿ **وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا** ﴾ [طه: ١١٠] وكما في الحديث: [أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك][١] فلله عز وجل أسماء استأثر بعلمها، ولا يعارض هذا قول النبي ﷺ: [إنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ][٢]. أي من جملة الأسماء تسعة وتسعين اسماً كما في قوله ﷺ: [إن في الجنَّة مائَةَ دَرَجَة أَعَدَّهَا اللهُ للْمُجَاهدينَ فِي سَبِيلِ الله مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ][٣] أي من جملة درجات الجنة مائة درجه للمجاهدين.

فالله عز وجل يعلم ولا يحاط به علماً لعظمته، وهو كذلك عز وجل يرى في الآخرة كما قال تعالى: ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] ولكنه عز وجل لعظمته لا يُدرك كما قال تعالى: ﴿ **لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ** ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. فالإدراك فوق الرؤية، فقد تحصل الرؤية ولا يحصل الإدراك، قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ** ﴾ [الشعراء: ٦١] فحصلت الرؤية ولم يحصل الإدراك، وقد سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله تعالى: ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ**

(١) رواه أحمد (٣٧١٢ شاكر)، والحاكم (١/ ٥٠٩)، وصححه الألباني في الصحيحة (١٩٨).
(٢) رواه البخاري (١١/ ٢١٨) الدعوات، ومسلم (٢٦٧٧) الذكر والدعاء.
(٣) رواه البخاري (٦/ ١٤) الجهاد.

(٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣] وقوله تعالى: ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾ [الأنعام:١٠٣] فقال للسائل سوف أضرب لك مثلاً من خلقه، أفترى السماء؟ قال: نعم. قال: أفتدركها؟ قال: لا. قال: الله أعظم وأجل.

وقد نهانا الشرع أن نتفكر في ذات الله عز وجل شفقة على عقولنا، وأمرنا أن نتفكر في مخلوقات الله، فقال النبي ﷺ: [لا تفكروا في الله وتفكروا في مخلوقات الله فإن الله خلق ملكا قدماه في الأرض السابعة السفلى، ورأسه قد جاوز السماء العليا، ما بين ركبتيه إلى عقبيه مسيرة ستمائة عام، وما بين عقبيه إلى أخمص قدميه مسيرة ستمائة عام والخالق أعظم من المخلوق][1].

وقال النبي ﷺ: [أذن لي أن أتحدث عن ملك من ملائكة الله عز وجل من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه تخفق الطير خمسمائة عام][2].

فكيف يمكن للإنسان أن يتصور خلقاً من خلق الله عز وجل بهذه العظمة وإذا عجزنا عن تصور المخلوق فكيف بالخالق عز وجل.

قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر:٦٧].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٦/٦٦-٦٧)، وصححه الألباني بشواهده في الصحيحة رقم (١٧٨٨).

(٢) رواه أبو داود (٤٧٠١ عون) السنة، ورواه المقدسي في المختارة والبيهقي في الأسماء والصفات وصححه الألباني في الصحيحة رقم (١٥١).

الخاطرة الرابعة

كم يساوي الخلود في جنة الله عز وجل

نظرت إلى بعض المناظر الطبيعية المشتملة على الحدائق الزاهرة، والسماء الصافية، وشلالات المياه المتدفقة، وقلت في نفسي إذا كانت هذه الدنيا الدنيئة الفانية، فكيف بالجنة العالية الغالية، ثم كم يساوي الخلود في الجنة، والعمر قصير والآخرة نعيم مقيم وجنة عالية قطوفها دانية، وصفها شيخ الإسلام وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح فقال: وكيف يقدر قدر دار خلقها الله بيده وجعلها مقراً لأحبابه، وملأها من رحمته وكرامته ورضوانه، ووصف نعيمها بالفوز العظيم، وملكها بالملك الكبير، وأودعها الخير بحذافيره، وطهرها من كل عيب وآفة ونقص، فإن سألت عن أرضها وتربتها فهي المسك والزعفران، وإن سألت عن سقفها فهو عرش الرحمن، وإن سألت عن ملاطها فهو المسك الأذفر، وإن سألت عن حصبائها فهو اللؤلؤ والجوهر، وإن سألت عن بنائها فلبنة من فضة ولبنة من ذهب، وإن سألت عن أشجارها فما فيها شجرة إلا وساقها من ذهب أو فضة، لا من الحطب والخشب، وإن سألت عن ثمارها فأمثال القلال، ألين من الزبد، وأحلى من العسل، وإن سألت عن ورقها فأحسن ما يكون من رقائق الحُلَل، وإن سألت عن أنهارها، فأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مُصَفًّى..

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله عز وجل: [أَعْدَدْتُ لعبَادي الصَّالحينَ مَا لا عَيْنٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمعَتْ، ولا خَطَرَ عَلَى قَلْب بَشَر] قال أبو هريرة فَاقْرَأُوا إنْ شئْتُمْ: ﴿فلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1] [السجدة: ١٧].

جنة هذه صفتها كم يقدر ثمنها.

قال النبي ﷺ: [لن يدخل أحدٌ منكم الجنة بعمله] فمهما كان عمل العبد وبذله في سبيل الله عز وجل فإنه لا يساوي بحال من الأحوال جنة الله عز وجل: قيل للنبي ﷺ: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: [ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته][2] فكل أعمال الأمة في ميزان نبيها ﷺ، لأن من دعا إلى هدى فله مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً بالإضافة إلى ثواب أعماله التي هي أكمل الأعمال، وأخلصها للكبير المتعال. ومع ذلك لا يساوي ذلك الخلود في جنة الله عز وجل، فلا بد من الاحتياج إلى عفو الله عز وجل ورحمته، فينجون من النار بالعفو، ويدخلون الجنة بالرحمة، ويتقاسمون الدرجات بأعمالهم، ومن تأمل هذا المعنى وتدبر هذه الخاطرة فإنه يستصغر بذله وجهده، كلما تذكر جنة الله عز وجل، ويعلم أنه مهما وفق للطاعات، والاستجابة لرب الأرض والسماوات فإنه لا يزال فقيرا إلى رحمة الله وعمله على كل حال لا يساوي جنة الله عز وجل، وإن كان سبباً من أسباب دخول الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٣١٨) بدء الخلق، ومسلم (١٧/ ١٦٦) الجنة وصفة نعيمها، وابن ماجه (٤٣،١٨) الزهد.

(٢) رواه البخاري (١١/ ٣٠٠) الرقاق.

وقال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] فالباء في الآيتين باء السبب أما في قوله ﷺ: [لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله] فهي باء العوض والمقابلة، التي يتساوى ما قبلها وما بعدها، كما تقول: بعني سيارتك بكذا فهذه باء العوض والمقابلة، ولو حاسب الله عز وجل العباد على نعمه عليهم، لم تف جميع أعمالهم الصالحة في وفاء بعض نعم الله عليهم، فتبقى بقية النعم بلا وفاء، بالإضافة إلى الذنوب والمظلم. ولذلك يقولون: إذا جاء عدله لم يبق لأحدٍ حسنة، وإذا جاء فضله لم يبق لأحدٍ سيئة.

فالله تعالى لا يظلم مثقال ذرة، ولكنه إذا عامل العباد بعدله هلك العباد، كما في قوله ﷺ: [مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ]، وفي رواية: [مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ هَلَكَ](١).

قال النووي: ومعنى «نوقش» استقصى عليه.

وقوله: «عذب» له معنيان: أحدهما نفس المناقشة وعرض الذنوب والتوقيف عليها، هو التعذيب، لما فيه من التوبيخ.

والثاني: أنه مفض إلى العذاب بالنار، ويؤيده في الرواية الأخرى (هلك) مكان (عذب) وهذا الثاني هو الصحيح، ومعناه أن التقصير غالب في العباد فمن استقصى عليه ولم يسامح هلك ودخل النار ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء(٢).

---

(١) رواه البخاري (١/ ٢٣٧) العلم، ومسلم رقم (٢٨٧٦).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/ ٣٠٢).

الخاطرة الخامسة

لماذا لا تطمح[1] نفوسنا، وتطمع في أن نكون من الصالحين: من العباد، أو الزهاد، أو العلماء العاملين؟

لمن نترك هذه الدرجات العالية، والقمم الشامخة السامية، قال بعضهم:

ولم أرَ في عيوبِ النَّاس عَيْبَاً   كنقصِ القادرينَ على التَّمامِ

وقال بعضهم:

إذا أعجبتك خصالُ امرءٍ   فكنها تكن مثلَ ما أعجبك

فليس على الجودِ والمكرماتِ   إذا جئتها حاجبٌ يحجبك

لماذا لا نكون من أصحاب الهمم العالية في الطاعة والعبادة، كما كان الصحابة ﷺ، كانوا يسابقون رسول الله ﷺ، فكان ﷺ يواصل – أي يصوم اليومين والثلاثة دون إفطار – وينهى عن الوصال نهي شفقة وتنزيه، وكان الصحابة يواصلون فإذا نهاهم النبي ﷺ قالوا: إنك تواصل. فيقول ﷺ: [إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي أَبِيتُ لِي مُطْعِمٌ يُطْعِمُنِي وَسَاقٍ يَسْقِين][2].

لها أحاديثُ من ذكراكَ تشغلها   عن الطعام وتُلهيهَا عن الزَّادِ

بل من الصحابة ﷺ من أراد أن يجتهد اجتهاداً أشد من اجتهاده ﷺ، ظناً منه أن النبي ﷺ لا يحتاج إلى كثير من العبادة لأنه ﷺ غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فذهب ثلاثة نفر إلى بيوت أزواجه،

---

(١) من الطموح.

(٢) رواه البخاري (٤/ ٢٣٨) الصوم.

وسألوا عن عبادته، فكأنهم تَقَالُّوها. فقال أحدهم: أما أنا فأصوم ولا أفطر. وقال الثاني: وأما أنا فأقوم ولا أنام. وقال الثالث: لا أتزوج النساء. فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: [أما إن أعلمكم بالله وأتقاكم لله أنا، أما إني لأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني][1].

فينبغي على العبد أن يكون عالي الهمة، في طلب العلم النافع والعمل الصالح.

وقد قال النبي ﷺ: [إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم، ومن يتحرَّ الخير يعطه، ومن يتوق الشر يوقه][2].

وقد شرع الله عز وجل التنافس في درجات الآخرة فقال عز وجل: ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين:٢٦]

وقال عز وجل: ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [الحديد:٢١]

وقال عز وجل: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [آل عمران:١٣٣]

وقال النبي ﷺ: [سددوا وقاربوا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا][3].

وقال بعضهم: إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الدين.

وقال بعضهم: إذا استطعت أن لا يسبقك أحدٌ إلى الله عز وجل فافعل.

---

(١) رواه البخاري (٩/٨٩،٩٠) النكاح، ومسلم (٩/١٧٦) النكاح.
(٢) رواه الخطيب في تاريخه (٩/١٢٧) وحسنه الألباني في الصحيحة رقم (٣٤٢).
(٣) سبق تخريجه.

وقال الله تعالى في الحديث القدسي: [وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بالنَّوَافلِ حتَّى أُحبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ به، وَبَصَرَهُ الَّذي يُبْصرُ به، وَيَدَهُ الَّتي يَبْطشُ بهَا، وَرِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بهَا، وَلَئِنْ سَأَلَني لأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَ بِي لأُعِيْذَنَّهُ][1].

فكن رجلا قدماه في الثرى وهامته في الثريا.

---

(١) رواه البخاري (١١/ ٣٤٨، ٣٤٩) الرقاق، وأبو نعيم في الحلية وانظر طرق الحديث في الصحيحة رقم (١٦٤٠).

الخاطرة السادسة

الأنبياء هم أكمل الناس خلقاً وخُلقاً

فهم الذين اصطفاهم الله لنفسه، ورباهم على عينه، وحلاهم بالفضائل، وخلاهم من القصور والرزائل، ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] وانظر إلى كريم شمائلهم، وعظيم خلقهم في قول إبراهيم عليه السلام لأبيه، بعد أن قال له: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦] ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧] يدرأ بالحسنة السيئة، أخلاق المحسنين، وانظر إلى يوسف عليه السلام وقد ألقاه إخوته في الجُبِّ، وبيع بيع الرقيق بدراهم معدودة، وجرى عليه من الفتنة في بيت العزيز، ثم لبث في السجن بضع سنين، فلما رفعه الله عز وجل وبوأه خزائن الأرض، ودخل عليه إخوته دخول الفقراء المحتاجين يسألون الصدقة ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٨٨] فقال لهم ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]

وهذا نبينا محمد ﷺ سيد الأولين والآخرين، وخاتم الأنبياء والمرسلين، وقد آذاه أهل مكة، وعذبوا أصحابه بكل ألوان العذاب، لما ظفر بقومه، ودخل مكة فاتحاً عزيزاً كريماً. مَنَّ عليهم.

إنها أخلاق الأنبياء الذين أمرنا الله عز وجل أن نقتفي آثارهم، وننسج على منوالهم ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]

وقد رفع الله عز وجل الأنبياء والرسل، وأعلى درجاتهم كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة:٢٥٣] إشارة إلى علو درجة جميع الرسل، فهم أشرف الخلق نسباً، وأكملهم خلقاً، فهم منزهون عن النقائص الخِلقية، والخُلقية، وعن الإصابة بالأمراض المنفرة كالبرص والجذام، أوجب الله على المسلمين محبة جميع الرسل، والإيمان بهم، والاهتداء بهم، والكفر بواحد منهم كفر بجميعهم كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥] وقد أرسل إليهم نوح وحده عليه السلام، ولكن دعوتهم واحدة كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

وكان النبي ﷺ يعلي دائما منار الأنبياء الكرام تأصيلا لهذا الأصل الأصيل فقال ﷺ: [نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ][١] أي أن إبراهيم عليه السلام عندما قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٠] لم يكن ذلك على سبيل الشك أو الشرك. وقال ﷺ: [وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ يُوسُفُ، لأَجَبْتُ الدَّاعِيَ][٢] إشارة إلى شرف يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وقال ﷺ: [وَلاَ أَقُولُ إِنَّ أَحَداً أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى][٣] مع أنه ﷺ سيد الأولين والآخرين، فقيل إنما قال ذلك على سبيل التواضع. وقيل في أصل النبوة، كما قال تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة:٢٨٥] ورتبة النبوة وهبية لا كسبية،

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٤٧٣) أحاديث الأنبياء.

(٢) رواه البخاري (٦/ ٤٨١، ٤٨٢) أحاديث الأنبياء.

(٣) رواه البخاري (٦/ ٥٢٠) أحاديث الأنبياء.

فلا يمكن لأحدٍ أن يصل إلى هذه الرتبة بالرياضة والمجاهدة، وكثرة العبادة، كما قال بعضهم:

ولا تنال رتبة النبوة بالكسب والتهذيب والفتوة
لكنها فضل من المولى الأجل لمن يشأ من خلقه إلى الأجل

ينبغي كذلك أن نعتقد أن أفضل الأنبياء هم الرسل، وأن رتبة النبوة أعلى من رتبة الولاية، وأن رتبة الرسالة أعلى من رتبة النبوة فكل رسولٍ نبي، وليس كل نبي رسولا، وهذا خلاف اعتقاد الصوفية الذين يقولون:

مقامُ النبوةِ في برزخ فُوَيْقَ الرَّسُولِ وَدُونَ الولي

وهذا من الجهل البليغ، لأن النبي لا بد أن يكون ولياً، وعكس الولاية العداوة، فهل يتخذ الله عز وجل نبياً من أعدائه، فالنبي ولي ونبي، والرسول ولي ونبي ورسول، والشيعة أيضاً يعتقدون أن أئمتهم الإثنى عشر في مرتبة لا يصل إليها ملكٌ مقربٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ.

ينبغي كذلك أن نعتقد أن أفضل الرسل خمسة ذكرهم الله عز وجل في آيتين من كتابه: وهم محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلى الله عليهم وسلم، وأن أفضلهم نبينا محمد ﷺ، يليه في المرتبة إبراهيم الخليل أبي الأنبياء وإمام الحنفاء، ورتب ابن كثير رحمه الله موسى الكليم بعد إبراهيم الخليل، ولم يرتب العلماء بقية أولي العزم من الرسل.

الخاطرة السابعة

كم في البلية من عطية خفية

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظُمتْ ويبتلي الله بعضَ النَّاس بالنعم

قال تعالى: ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١٦]

وقال بعضهم: عواقب الأمور تتشابه في الغيوب، فرب محبوب في مكروه، ورب مكروه في محبوب.

وقال عز وجل عن حديث الإفك على المبرأة من فوق سبع سماوات: ﴿ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [النور:١١]

فقد يبتلى العبد ببلاء هو عين عافيته، فيرفع الله عز وجل به ذكره ويظهر به محبة الخلق له، ويرزقه من حيث لا يحتسب، ويفتح عليه في العبادات، والطاعات، والأحوال الإيمانية، والمنح الربانية ما هو أعظم مما ابتلي به. فيكون هذا البلاء نعمة خفية ومنحة مطوية، حتى لا يحسده الخلق، وهذا من لطف الله عز وجل بأوليائه وتربيته لهم، أفضل مما يربي الوالد الشفيق ولده الوحيد ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:٦٨]

- فمن فوائد البلاء معرفة الأصدقاء من الأعداء كما قال بعضهم:

جزى الله الشدائد كُلَّ خير عَرَفْتُ بها عَدوي من صديقي

- ومن ذلك الثواب العظيم في الصبر على البلاء، والرضى بمر القضاء، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر:١٠]

- ومن ذلك تكفير الذنوب قال النبي ﷺ : [لا يَزَالُ البَلاءُ في العَبْدِ المُؤْمِنِ في نَفْسِهِ، وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ، حَتَّى يَلْقَى اللهَ وَلَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيْئَةٌ][1]

- ومن ذلك معرفة عز الربوبية، وذل العبودية، فالله عز وجل يبتلي من شاء من خلقه، بما شاء من ألوان البلاء، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

والعبد ليس له إلا الرضا والصبر، كما يقولون، الحيلة فيما لا حيلة فيه الصبر. ومن لم يصبر صبر الكرام، سلا سلو البهائم.

- ومن ذلك إظهار شرف المؤمن، ورفع درجته في الدنيا والآخرة، فالعبد تكون له عند الله المنزلة، فما يبلغها بعمل، فما يزال الله يبتليه بما يكره، حتى يبلغه إياها[2].

- ومن ذلك توفيق العبد للدعاء غالباً وقد قال بعض السلف: لأنا أخوف أن أحرم الدعاء، من أن أحرم الإجابة، فإذا فتح للعبد في الدعاء فإن الإجابة معه. وقد كان المشركون يخلصون الدعاء في الشدة، فإذا نجاهم الله عز وجل أشركوا معه غيره، والله عز وجل يعلم أنهم سيعودون إلى الشرك، ولكن ينجيهم ببركة هذا الإخلاص اللحظي.

---

(١) رواه أحمد (١ / ١٧٤) والترمذي (٢٥٢٢ شاكر)، الزهد، وابن ماجه (٤٠٢٣) الفتن، والدارمي (٢ / ٣٢٠)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٢٢٨٠).

(٢) والحديث الدال على هذا المعنى رواه ابن حبان (٢٩٠٨ الإحسان) الجنائز، والحاكم (١ / ٣٤٤) الجنائز، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: يحيى وأحمد ضعيفان وليس يونس بحجة، والحديث له شواهد وحسنه الألباني في الجامع.

- ومن ذلك تمحيص قلوب المؤمنين، حتى تصلح لحب الله عز وجل، وذكره وعبادته.
- ومن ذلك الخروج من حيز الغفلة، والاشتغال بالذكر والطاعة.
- ومن ذلك ظهور محبة الخلق له، وتعاطفهم معه.
- ومن ذلك أن المحن آداب الله لعباده وتأديب الله يفتح القلوب والعقول.
- ومن ذلك العلم بأن الدنيا دار الابتلاء والكرب لا يرجى منها راحة

وما استغربت عيني فراقا رأيته　　ولا أعلمتني غير ما القلب عالمه

- ومن ذلك أن الجزع لا يرد المصيبة بل يضاعفها وهو بجزعه يزيد في مصيبته حيث يشمت أعداءه، ويسوء أصدقاءه ويغضب ربه ويسر شيطانه ويحبط أجره، ويضعف نفسه[1]

(١) أنظر رسالة «تسلية المصاب بما في البلوى من النفع والثواب» للمصنف.

الخاطرة الثامنة

أعلى هداية وأرقاها هداية القرآن

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]

القرآن يهدي إلى أقوم العقائد، والأخلاق، والأقوال، والأعمال.

فالقرآن كلام الله عز وجل، وكما يقولون: كلام الملوك، ملوك الكلام.

القرآن شفاء لما يصيب القلب من أمراض الشبهات والشهوات، قال الله عز وجل: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢]

فمهما اقترب العبد من القرآن، بكثرة التلاوة، والقيام به، ومدارسته، ارتقت أحواله، وزكت أعماله، وصحت عقائده، وحسنت أخلاقه وذلك لاشتمال القرآن على العقائد الصحيحة، والأخلاق النبيلة، والقصص القرآني الذي يرتفع بمستوى الأمة الإيماني، والأخلاقي، ويغرس فيهم الفضائل وكذا اشتماله على الترغيب في الخير والترهيب من الشر، والمؤمن إذا رُغِّبَ في الخير رَغِبَ، وإذا خُوِّفَ من الشر هرب، ولا خير فيمن إذا زُجِرَ لا ينزجر، وإذا أمر لا يأتمر، وكذا يشتمل على صفات المؤمنين والمتقين وأن العاقبة لهم في الدنيا، ويوم يقوم الناس لرب العالمين، وما أعد الله عز وجل لأوليائه في الجنة من الخير العميم، والرزق الكريم، وما أعد لأعدائه من الجحيم، والعذاب الأليم.

قال عثمان رضي الله عنه: لو طهرت قلوبكم ما شبعت من كلام ربكم.



وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : من أراد أن يعرف أنه يحب الله، فليعرض نفسه على القرآن فإن أحب القرآن فإنه يحب الله فإن القرآن كلام الله. وكان يقبل المصحف ويقول، كلام ربي كلام ربي.

وقال خباب بن الأرت رضي الله عنه لرجل: تقرب إلى الله ما استطعت، واعلم أنك لم تتقرب إليه بشيء أحبَّ إليه من كلامه.

فينبغي على من نصح نفسه، وأحب نجاتها، وآثر سعادتها، أن لا يغفل عن القرآن، وأن يداوم على تلاوته آناء الليل، وأطراف النهار، لعل الله عز وجل أن يهديه للتي هي أقوم.

قال ابن القيم رحمه الله: من الناس من يعرف الله بالجود والإفضال والإحسان، ومنهم من يعرفه بالعفو والحلم والتجاوز، ومنهم من يعرفه بالبطش والانتقام، ومنهم من يعرفه بالعلم والحكمة، ومنهم من يعرفه بالعزة والكبرياء، ومنهم من يعرفه بالرحمة والبر واللطف، ومنهم من يعرفه بالقهر والملك، ومنهم من يعرفه بإجابة دعوته، وإغاثة لهفته، وقضاء حاجته.

وأتم هؤلاء معرفة من عرفه من كلامه، فإنه يعرف ربا قد اجتمعت له صفات الكمال، ونعوت الجلال، منزه عن المثال، بريء من النقائص والعيوب، له كل اسم حسن، وكل وصف كمال، فَعَّالٌ لما يريد، فوق كل شيء، ومع كل شيء، وقادر على كل شيء، ومقيم لكل شيء، آمر ناه، متكلم بكلماته الدينية والكونية، أكبر من كل شيء، وأجمل من كل شيء أرحم الراحمين، وأقدر القادرين، وأحكم الحاكمين، فالقرآن أنزل لتعريف عباده به، وبصراطه الموصل إليه، وبحال السالكين بعد الوصول إليه[1] .

---

(١) الفوائد (٢٣٣).

الخاطرة التاسعة

محبة الآباء والأبناء والإخوة والزوجات يقرها الشرع

فهي محبة طبيعية فطرية، ولكنه يهذبها، فلا يجوز للمسلم أن تكون هذه المحبه أكثر من محبته لله عز وجل، أو لرسوله ﷺ أو للجهاد في سبيل الله.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]

وإنما كان ذلك كذلك، حتى يكون البذل في سبيل الله عز وجل، والتضحية لإعزاز دين الله، فالمسلم لا ينبغي له أن يُعزَّ شيئاً على الله عز وجل، وعلى هذا الهدى درج الصحابة ﭫ، كان الواحد منهم يرحب بأن يَنْدَّقَ عنقه ولا يُثْلَمُ دينه.

فهذا خبيب بن عدي أسره المشركون، وعذبوه عذاباً شديداً، وقالوا له: أتحب أن يكون محمدٌ مكانك، وأنك معافاً في أهلك ومالك؟

فقال: والله ما أحب أن أكون معافاً في أهلي ومالي، ويشاك محمدٌ ﷺ بشوكة – أي وهو أيضاً معافاً في أهله وماله –.

وفي ذلك قيل:

أَسَرَتَ قُرَيشٌ مُسْلِماً ... فَمضَىَ بلا وَجَلٍ إلى السَيَّافِ
سَأَلُوْه هَلْ يرضيكَ أَنَّك سالمٌ ... ولك النبيُّ فِدىً من الإتلافِ
فأجاب كلا لا سلمت من الرَّدىَ ... ويصابُ أنفُ محمدٍ برعافِ

ولما أرادوا قتله أنشأ يقول:

وَلَسْتُ أُبالي حِيْنَ أُقْتَلُ مُسْلِماً ... عَلَى أيِّ جَنْبٍ كان في الله مَصْرَعي
ماَ دَامَ في ذَاَتِ الإِلهَ وَإِنْ يشَأ ... يُبَارِك على أوصال شِلْوٍ مُمَزَّعِ

قتل يوم أحد زوج امرأة وأبوها وأخوها، فقالت: كيف رسول الله ﷺ فقيل لها هو على خير ما تحبين. فقالت: دعوني أنظر إليه. فلما رأته قالت: لا أبالي يا رسول الله إذا سلمت مَنْ عَطَب.

وهذا المعنى صار غريباً مع غربة الإسلام، فالناس يحبون الإسلام ويرشحونه وينتخبونه، ولكن الاستعداد للتضحية من أجل أن ترتفع رايته وتعلو منارته ضعيفٌ جداً، وصف الله عز وجل أولياءه الذين يحبهم ويحبونه بقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِه فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]

الخاطرة العاشرة

لا يجوز للعبد أن يعلق قلبه بغير الله عز وجل

ومهما عَلَّقَ العبد قلبه بغير الله فالتعاسة والشقاء، ولا تتم سعادة العبد حتى يعلق قلبه بالله عز وجل محبةً، وتوكلاً، ورجاءً وخوفاً.

قال النبي ﷺ: [تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيْصَةِ، وَعَبْدُ القَطِيْفَةِ](1) وليس هناك أحدٌ يسجد للدينار والدرهم، ولكن هناك من يعلق قلبه بالدينار والدرهم، محبة لهما، ورضاءً بهما، فهو يوالي فيهما، ويعادي فيهما، فتعلق القلب بغير الله عبودية له، وإذا صرفت العبادة لغير الله عز وجل لم يحصل للعبد إلا الشقاء، والهم والغم، والحزن في الدنيا والآخرة.

قال بعض مسلمة الفتح في غزوة حنين وكانت بعد فتح مكة مباشرة: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، وكان المشركون يختارون شجرة عظيمة، يعلقون بها أسلحتهم، ويطوفون بها، ويلتمسون منها البركة، وتتعلق قلوبهم بها، فقال النبي ﷺ: [اللهُ أَكْبَرُ إِنَّهَا السُّنَنُ، قُلْتُمْ وَالَّذي نَفْسي بِيَدِه كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائيلُ لموسَى: [اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ. قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُون](2) فالله عز وجل هو الضار النافع، الخافض الرافع المعز المذل: ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ** ﴾ [يونس: ١٠٧]

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣٧١٢ شاكر)، والحاكم (١ / ٥٠٩) الدعاء وصحح إسناده شاكر والألباني في الصحيحة رقم (١٩٨).

(٢) رواه الترمذي (٩ / ٢٤، ٢٨ عارضة) الفتن، وأحمد (٥ / ٢١٨)، وابن أبي عاصم في السنة (رقم ٧٦)، وقال الترمذي: حسن صحيح وحسنه الألباني.

قال النبي ﷺ لحبر الأمة وترجمان القرآن: [وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ إِنْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ، لَنْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ، لَنْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتُ الصُّحُفُ][1].

وإذا كان الأمر كله بيد الله عز وجل، والخير كله بيده ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فكيف تتعلق القلوب بغيره، وينتظر الخير من سواه ومهما علق العبد قلبه بالله عز وجل توكلاً، ورجاءً، وخوفاً، وحُبَّاً، تتم سعادة العبد في الدنيا والآخرة، ويكون الله عز وجل غاية محبوبه ومطلوبه، يستغني بحبه عن حب من سواه، وبذكره عن ذكر من سواه، وبطاعته عن طاعة من سواه.

قال بعضهم: إنه لتمر بي أوقات، أقول إن كان أهل الجنة كما نحن فيه، إنهم لفي عيش طيبٍ.

وقال بعضهم: إنه لتمر بي أوقات يرقص فيها القلب طربا.

وقال إبراهيم بن أدهم: لو يعلم الملوك، وأبناء الملوك ما نحن فيه من نعمة لجالدونا عليها بالسيوف.

---

(١) رواه أحمد (٤/٢٨٦،٢٨٨)، والترمذي (٩/٣١٩،٣٢٠ عارضة) أبواب صفة القيامة، وقال الحافظ ابن رجب: إسناد حسن لا بأس به.

الخاطرة الحادية عشرة

على قلوب أقفالها حتى يفتحها الله عز وجل

سمع غلامٌ شهده عمر رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] فقال الغلام: على قلوب أقفالها، حتى يفتحها الله عز وجل، فأعجب به عمر رضي الله عنه، فلما استخلف استعمله.

ومن تأمل حال السلف في كثرة بكائهم عند سماع القرآن، تعجب من حالهم سمع زرارة بن أبي أوفى قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٨-١٠] فشهق شهقة فمات.

ولما نزل الموت بمحمد بن المنكدر بكى بكاء شديداً فأحضروا له أبا حازم الزاهد فسأله أبو حازم عن سبب بكائه فقال: سمعت الله عز وجل يقول: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] فأخاف أن يبدو لي من الله ما لم أكن أحتسب. فأخذ أبو حازم يبكي معه. فقالوا له: أتينا بك من أجل أن تخفف عنه، فزدت في بكائه، فأخبرهم بما قال.

وكان عمر رضي الله عنه يسمع الآية من القرآن فيمكث في بيته، ويعوده الناس. وكان الحسن كثير البكاء. فسأل عن كثرة بكائه فقال: أخاف أن يطرحني في النار ولا يبالي.

وكان يزيد الرقاش يبكي ويقول: يا يزيد من يبكي بعدك لك، من يترضى ربك عنك.

قال ابن الجوزي رحمه الله:

من لم يكن له مثل تقواهم، لم يعلم ما الذي أبكاهم.

ومن لم يشاهد جمال يوسف، لم يعلم ما لذي آلم قلب يعقوب.

مَنْ لم يَبِت وَالحُبُّ حَشْوُ فُؤاده لم يَدْرِ كَـيْفَ تُفَـتَّتُ الأَكْـبَـادُ

قال ابن القيم رحمه الله: لا بد من سنة الغفلة، ورقاد الهوى، ولكن كن خفيف النوم، فحراس البلد يصيحون: دنا الصباح[1].

فالعبد قد يمر بأوقات يزداد فيها إيمانه ويقينه، ويصفو قلبه من الشواغل والشهوات والشبهات، ويحصل له حضور قوي عند سماع القرآن، فليمس القرآن شغاف قلبه، فإذا به يستحضر الآخرة كأنه يرى ويشاهد، ويحس بشيءٍ من عظمة الله عز وجل الذي تكلم بهذا الكلام المعجز، فلا يملك نفسه عن البكاء، وهذه الحال الإيمانية تتكرر عند الصالحين، فكأنهم في حضور دائم، وخشوع كامل، وقد تعرض للمخلطين من أمثالنا الذي خلطوا عملاً صالحاً وآخر سَيِّئاً، وعسى الله أن يتوب عليهم في نادر من أحوالهم، فكأن أقفال الغفلة على قلوبنا، فإذا فتح الله عز وجل هذه الأقفال استشعرنا حلاوة الإيمان، وعظمة القرآن.

فكأن قفل الغفلة هو الذي عناه الغلام الذي أعجب عمر ﷺ هو المراد في قوله تعالى: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [محمد: ٢٤]

---

(١) الفوائد (٥٥).

قيل لعامر بن عبد قيس: أما تسهو في صلاتك؟ فقال: أو حديث أحبُّ إِلَيَّ من القرآن، هيهات مناجاة الحبيب تستغرق الإحساس.

وكان علي بن الحسين زين العابدين إذا توضأ اصفر لونه. فقيل له: ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء؟ قال: أتدرون بين يدي مَنْ أريد أن أقوم.

وكان مسلم بن يسار إذا وقف في الصلاة كأنه عودٌ من الخشوع تقف عليه الطير لا تحسبه إلا جذع شجرة، ولقد انهدمت ناحية من المسجد، وفزع لها أهل السوق وما التفت.

سلام الله على تلك الأرواح، ورحمة الله على هذه الأشباح، لم يبق منهم إلا أخبار وآثار.

حسبك أن قوماً موتى تحيا بذكرهم النفوس، وأن قوما أحياء تقسو برؤيتهم القلوب.

الخاطرة الثانية عشرة

الطاعة قرينها العز والمعصية قرينها الذل

قال الله عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[فاطر: ١٠]

وقال النبي ﷺ: [وَجُعِلَتْ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي] (١) فالمؤمن عزيز، والكافر ذليل، والمبتدع ذليل، والعاصي ذليل ولما جهل هذه الخاطرة رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول. فقال كلمته الفاجرة في غزوة المريسيع: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. وظنَّ جهلاً منه أنه العزيز، وأن رسول الله ﷺ وحاشاه الله عز وجل من ذلك هو الذليل، لُقِّنَ درساً لا ينساه أبد الدهر.

لما سمع بهذه المقالة الفاجرة عبد الله بن عبد الله بن سلول وكان من المؤمنين الصادقين، وقف على باب المدينة وشهر سيفه و المسلمون يمرون من تحت سيفه، فلما أراد أبوه أن يدخل قال: والله لا تدخل حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، وحتى تعلم مَنْ الأعزُّ ومن الأذلُّ. فلما استأذنوا رسول الله ﷺ قال: ائذنوا له، وقد علم أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ولكن المنافقين لا يعلمون، فلا أذل لعبد الله بن أبي من أن يمنعه أقرب الناس إليه، وأبر الناس به، حتى يعي هذا الدرس.

وكان الإمام أحمد يدعو: اللهم أعزنا بطاعتك، ولا تذلنا بمعصيتك.

---

(١) رواه أحمد (٢ / ٥٠،٩٢) وصححه الألباني في الإرواء (رقم ١٢٦٩)، وصحيح الجامع (٢٨٢٨).

كان بعض السلف يقول: من أشرف وأعز ممن انقطع إلى من ملك الأشياء بيده.

قال بعض الناس: قتلني حب الشرف – أي طلب الرفعة في الدنيا – فقال له أحد العلماء: لو اتقيت الله شرفت.

وفي ذلك قيل:

ألا إنما التَّقْوى هي العزُّ والكرمُ　　وَحُبُّكَ للدنيا هُوَ الذُّلُّ والسقمُ

ولَيْسَ عَلَى عَبْدٍ تَقِيٍّ نَقِيْصَةٌ　　إذا حقَّقَ التَّقْوى وإن حَاكَ أوْ حَجَمَ

وقال رجل للحسن البصري أوصني: فقال له: أعز أمر الله حيثما كنت يعزك الله حيثما كنت.

ووصف بعضهم الإمام مالك فقال:

يَدَعُ الجَوابَ وَلا يُراجَعُ هَيْبَةً　　وَالسَّائلونَ نواكسُ الأذْقَانِ

نُورُ الوَقَارِ وَعِزُّ سُلطانِ التقى　　فَهُوَ المَهِيْبُ وَلَيْسَ ذَا سُلْطَانِ

وقال الحسن البصري: إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين، إن ذل المعصية لفي رقابهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه.

وهذه الخاطرة يستشعرها كل مؤمن في نفسه، فكلما وفق لطاعة الله عز وجل وجد العزة، والاستعلاء على الشهوات ومحبة رب الأرض والسماوات. وكلما عصى الله عز وجل، أحس بالذلة في نفسه، كما قال بعضهم: إن العبد ليذنب الذنبَ سراً، فيصبح وعليه مذلته.

فنسأل الله تعالى أن يعزنا بطاعته، وأن لا يذلنا بمعصيته.

الخاطرة الثالثة عشرة

ليس في الدنيا والآخرة شرٌ وداءٌ إلاَّ وسببه الذنوب والمعاصي..

قال بعضهم: المعاصي سلسلة في عنق العاصي، لا يفكه منها إلا الاستغفار والتوبة.

وقال بعضهم: الذنوب جراحات، وربَّ جرحٍ جاء في مقتل.

وقال بعضهم: أرقهم قلوباً أقلهم ذنوباً.

وقال بعضهم: ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة.

وقال بعضهم: إذا أجمع العبد على ترك الذنوب، أتته الأمداد من الله عز وجل من كل جانب.

وقال بعضهم: من علامة من غرق في الذنوب، أن لا ينشرح صدره لقيام الليل، وصيام النهار.

وقيل لبعضهم: لا نستطيع قيام الليل. قال: أبعدتكم الذنوب. وفي رواية كبلتكم خطاياكم.

قال ابن القيم رحمه الله: فمما ينبغي أن يعلم أن الذنوب والمعاصي تضر ولا شك، وأن ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شَرٌّ وداءٌ إلا سببه الذنوب والمعاصي، فما الذي أخرج الوالدين من الجنة، دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور، إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟ وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء، وطرده ولعنه، ومسخ ظاهره، وباطنه، فجعلت صورته أقبح صورة وأشنعها، وباطنه أقبح من صورته

وأشنع، وبدل بالقرب بعداً، وبالرحمة لعنة، وبالجنة ناراً تلظي، وبالإيمان كفراً، وبموالاة الغني الحميد أعظم عداوة ومشاقة، وبزجل التسبيح والتقديس والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش، ويلباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان، فهان على الله غاية الهوان، وسقط من رحمته غاية السقوط، وحل عليه غضب الرب تعالى فأهواه، ومقته أكبر المقت فأرداه، فصار قواداً لكل فاسق ومجرم، رضي لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة، فعياذاً بك اللهم من مخالفة أمرك، وارتكاب نهيك.

وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم، حتى علا الماء فوق رأس الجبال، وما الذي سلط الريح العقيم على قوم عادٍ، حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية، ودمرت ما مرت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم، حتى صاروا عبرةً للأمم إلى يوم القيامة؟

وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة، حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم، وماتوا عن آخرهم.

وما الذي رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، فأهلكهم جميعاً، ثم أتبعهم حجارة من سجيل السماء، أمطرها عليهم، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم، ولإخوانهم أمثالها، وما هي من الظالمين ببعيد؟.

وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل، فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم ناراً تلظى؟

وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر، ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم، فالأجساد للغرق، والأرواح للحرق.

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله؟

وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات، ودمرها تدميرا؟

وما الذي بعث على بني إسرائيل قوماً أولي بأس شديد، فجاسوا خلال الديار وقتلوا الرجال، وسبوا الذراري والنساء، وأحرقوا الديار، ونهبوا الأموال، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية، فأهلكوا ما قدروا عليه، وتبروا ما علوا تتبيرا.

وما الذي سلط عليهم بأنواع العذاب والعقوبات، مرة بالقتل والسبي وخراب البلاد، ومرة بجور الملوك، ومرة بمسخهم قردة وخنازير، وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾[1][الأعراف:١٦٧]

وقال رحمه الله في الفوائد:

نتائج المعصية: قلة التوفيق، وفساد الرأي، وخفاء الحق، وفساد القلب، وخمول الذكر، وإضاعة الوقت، ونفرة الخلق والوحشة بين العبد وبين ربه، ومنع إجابة الدعاء، وقسوة القلب، ومحق البركة في الرزق والعمر وحرمان العلم، ولباس الذل، وإهانة العدو، وضيق الصدر، والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت، وطول الهم والغم وضنك المعيشة وكسف البال[2].

---

(١) الجواب الكافي (٤٢-٤٣) المكتبة القيمة بتصرف.

(٢) الفوائد لابن القيم (٤٧) ط. دار الدعوة.

الخاطرة الرابعة عشرة

يخرج العارف من الدنيا وما قضى وطره من شيئين: ثناؤه على ربه، وبكاؤه على نفسه

فالعارف يسير إلى الله عز وجل في الدنيا يتطلع بإحدى عينيه إلى نعم الله عز وجل عليه فيورثه ذلك محبة الله عز وجل، وبالعين الأخرى يطالع عيوب نفسه، وسيئات عمله، فيبكي على نفسه، ويستمر على هذه الحال حتى يخرج من الدنيا، وما قضى وطره من ثنائه على الله عز وجل، وبكائه على نفسه.

وقالوا العارف يسير إلى الله عز وجل بين مشاهدة المنة، ومطالعة عيب النفس والعمل، فمشاهدة منه الله عز وجل عليه تورثه كمال الحب لله عز وجل، ومطالعة عيب النفس والعمل يورثه كمال الذل لله عز وجل، وهما شقا العبادة، فالعبادة هى كمال الحب مع تمام الذل.

دل على هذا المعنى كذلك قول النبي ﷺ: [سيدُ الاستغفارِ أن يقولَ العبد: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إله إلا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ ووَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ][1].

وإنما كان هذا سيد الاستغفار، لاشتماله على اعتراف العبد بنعم الله عز وجل عليه في قوله: [أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ] أي أعترف لك

(١) رواه البخاري (١١/ ٩٧،٩٨) الدعوات، والترمذي (١٢/ ٢٨٠،٢٨١) التفسير، والنسائي (٨/ ٢٧٩) الاستعاذة.

بنعمتك علي، وكذا اعتراف العبد بذنوبه وعيوبه في قوله: [وأبُوءُ بِذَنْبِي]، ثم طلب المغفرة من الله عز وجل.

فأكمل الأحوال أن يذكر المؤمن دائما نعم الله عز وجل عليه كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] فمن أسباب زيادة الإيمان ومحبة الرحمن أن يتحدث العبد بنعم الله عز وجل، لتكمل محبته لله عز وجل وكذا تذكر الذنوب والعيوب يورث العبد الذل، والإنابة، وكثرة الاستغفار، والاجتهاد في الحسنات الماحية.

وعلى ذلك درج السلف ﷺ.

قيل لأبي الصديق كيف أصبحت؟ قال: أصبحت عبداً ذليلاً لرب جليل، أصبحت مأموراً بأمره.

وقيل للإمام الشافعي: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت آكل رزق ربي، ولا أقوم بشكره.

وقيل لمالك بن دينار: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت في عمر ينقص وذنوب تزيد.

وقال أبو بكر الصديق للنبي ﷺ: [علمني دعاء أدعو به في صلاتي. قال: [قُلْ اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْماً كَثِيراً، وَلا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ](1) وهذا من أدعية السجود.

---

(١) رواه مسلم (١٧/ ٢٧، ٢٨) الذكر، والترمذي (١٣/ ٥٣ عارضة) الدعاء.

الخاطرة الخامسة عشر

من أعظم نعم الله عز وجل على العبد في الدنيا زوجة صالحة

إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله.

عن ثوبان ﷺ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ** ﴾[التوبة: ٣٤] فقال النبي ﷺ: [تَبًّا للذَّهَبِ وَالفضَّة فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله فَمَا نَتَّخِذُ؟ قَالَ: لِيَتَّخِذْ أَحَدُكُمْ قَلْبًا شَاكِرًا، وَلِسَانًا ذَاكِرًا، وَزَوْجَةً صَالِحَةً، تُعِينُ أَحَدَكُمْ عَلَى إيمَانه][(١)].

فمن سعادة العبد الزوجة الصالحة، والمسكن الواسع، والمركب الهنيء، والشؤم في ثلاثة في المرأة، والدابة، والدار.

الزوجة الصالحة هي التي تعين زوجها على أمر دينه ودنياه، وتحضه على الأكل من الحلال الطيب، كما كانت إحدى الصالحات تقول لزوجها إذا خرج لطلب المعاش: إتق الله فينا، فإنا نصبر على الجوع والعطش، ولا نصبر على النار.

الزوجة الصالحة تعين زوجها على طاعة الله عز وجل، وتربي أولادها على تقوى الله. قال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿ **رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ** ﴾[الفرقان: ٧٤] أن يُري اللهُ العبدَ المسلمَ من زوجته، ومن أخيه، ومن حميمه طاعة الله عز وجل.

وقد أوصى النبي ﷺ ذا الدين أن يكون همه ذات الدين فقال ﷺ: [فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّيْنِ تَرِبَتْ يَدَاكَ]

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٧٨، ٢٨٢)، والترمذي (٣٠٩٤)، وابن ماجه (١٨٥٦).

لأن الدين يغطي ما قد يكون في المرأة من نقص، ويعوضه، وليس هناك ما يعوض الدين، قال الله عز وجل: ﴿ **وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ** ﴾ [البقرة: ٢٢١]

كان أحمد بن حرب يقول: إذا اجتمع في المرأة ست خصال فقد كمل صلاحها: المحافظه على الخمس، وطواعية زوجها، ومرضاة ربها، وحفظ لسانها من الغيبة والنميمة، وزهدها في متاع الدنيا، وصبرها عند المصيبة.

الخاطرة السادسة عشرة

أكمل حالات المؤمن أن يكون اشتغاله بطاعة الله عز وجل، والجهاد في سبيله، والدعوة إلى دينه، والله عز وجل يسوق له الرزق

وهذه حال نبينا محمد ﷺ، فإنه كان داعياً إلى توحيد الله عز وجل باللسان والسيف والسنان، والله تعالى يسوق له الرزق كما قال ﷺ: [وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي](١).

قال عمر بن العزيز: إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ هادياً ولم يبعثه جابياً. فكان ﷺ شغله بطاعة الله عز وجل والدعوة إلى توحيده، وما يحصل في خلال ذلك من الأحوال من الفيء والغنائم، فيحصل تبعا لا قصدا أصليا، ولهذا ذم من ترك الجهادواشتغل باكتساب الأموال، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿**وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾ [البقرة:١٩٥] لما عزم الأنصار على ترك الجهاد، والاشتغال بإصلاح أموالهم وأراضيهم.

قال النبي : [إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالعِينَةِ، وَاتَّبَعْتُمْ أَذْنَابَ البَقَرِ، وَتَرَكْتُمُ الجِهَادَ، سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلاً لاَ يَنْزِعُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ رِقَابِكُمْ، حَتَّى تُرَاجِعُوا دِيْنَكُمْ](٢).

قال مكحول: إن المسلمين لما قدموا الشام، ذكر لهم زرع الحولة،

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه أبو داود (٣٤٤٥ عون) البيوع، وقال الألباني صحيح لمجموع طرقه. الصحيحة (١١).

فزرعوا، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب ﷺ فبعث إلى زرعهم وقد ابيض وأدرك فحرَّقه بالنار، ثم كتب إليهم: إن الله جعل أرزاق هذه الأمة في أسنة رماحها، وتحت أزجتها، فإذا زرعوا كانوا كالناس. خرجه أسد بن موسى. وقيل لبعضهم: لو اتخذت مزرعة للعيال؟ فقال: والله ما جئنا زراعين ولكن جئنا لنقتل أهل الزرع ونأكل زرعهم [1].

فالله عز وجل خلق المال من أجل أن يستعان به على طاعة الله عز وجل وتوحيده، فإذا استعمله المشركون في المعاصي والصد عن سبيل الله عز وجل سلط الله عز وجل عليهم عباده المؤمنين فانتزعوه من أيديهم، وعملوا فيه بطاعة الله عز وجل، ولذلك سمى الفيء فيئاً، لأنه يعود إلى أصحابه الحقيقين، الذين يستعملونه في طاعة الله عز وجل.

قال النبي ﷺ: [مَنْ كَانَت الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللهُ عَلَيْه أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْه، وَلَمْ يَأْته منَ الدُّنْيَا إلاَّ مَا كُتبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَت الآخرَةُ نيَّتَهُ، جَمَعَ اللهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غنَاهُ في قَلْبه، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهيَ رَاغمَةٌ] [2].

وعن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً: [مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحداً: هَمَّ آخرَته، كَفَاهُ اللهُ هَمَّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ به الْهُمُومُ في أَحْوَال الدُّنْيَا لَمْ يُبَال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في أَيِّ أَوْديَتهَا هَلَكَ] [3].

وفي بعض الآثار يقول الله تعالى: يا دنيا إخدمي من خدمني واستخدمي من خدمك.

---

(١) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب (١ / ٢٤٠-٢٤١) باختصار. الفاروق الحديث.
(٢) رواه أحمد (٥ / ١٨٣)، وابن ماجه (٤١٠٥) من حديث زيد بن ثابت.
(٣) رواه ابن ماجه (٢٥٧، ٤١٠٦).

الخاطرة السابعة عشرة

من لم ير لله عليه نعمة في غير مطعم أو مشرب، فقد قل علمه وحضر عذابه

هذه الخاطرة من كلام الحسن البصري رحمه الله الذي كان يشبه الأنبياء، في هديه وسمته وكلامه، وهو يشير بها رحمه الله إلى التنبيه على النعم التي هي أجل وأعظم من نعمة الشراب والطعام، فإن الكافر ينال من هذه النعمة، وقد يكون حظه منها أكثر من المؤمن ﴿ **كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً** ﴾ [الإسراء: ٢٠] وقال عز وجل ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ [الأعراف: ٣٢] فزينة الدنيا الطيبات من الرزق ليست وقفاً على أهل الإيمان، وإن كانت وقفاً عليهم في الآخرة، لا يشاركم غيرهم، كما قال تعالى: ﴿ **وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ [الأعراف: ٥٠]

فالحسن رحمه لله لا يحقر نعمة الطعام والشراب، ولكنه ينبه إلى النعم التي هي أعظم قدراً، وقد لا ينتبه إليها كثير من الناس، كما ينتبهون إلى نعمة الطعام والشراب قال تعالى ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا** ﴾ [إبراهيم: ٣٤] فالعباد عاجزون عن عد نعم الله عز وجل عليهم فضلاً عن القيام بواجب شكرها، قال بعضهم: حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، ونعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن إصبحوا تائبين، وإمسوا تائبين.

وهذه النعم بعضها أفضل من بعض، فأين نعمة الشراب والطعام من نعمة الهداية للإسلام، وشرح الصدر به قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام:١٢٥] وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر:٢٢] وأين نعمة الطعام والشراب من نعمة التوفيق لمنهج أهل السنة والجماعة، وقد قال النبي ﷺ: [وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي إِلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِيْنَ فِرْقَةً كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلاَّ وَاحِدَةً. قَالُوا: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: هُمُ الْجَمَاعَةُ][1] وفي رواية: [هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي].

وأين نعمة الطعام والشراب من نعمة شرح الصدر لقيام الليل، وصيام النهار.

ثم أين نعمة الطعام والشراب من التوفيق لمناجاة ربِّ الأرض والسماوات، والرضا به ربا، وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً.

وأين هذه النعمة من استشعار الأنس بالله عز وجل، ومحبته، واللهج بذكره، والشوق إلى لقائه.

رحم الله الحسن البصري ما كان أبصره وأفقهه، من لم ير لله عليه نعمة في غير مطعم أو مشرب، فقد قلَّ علمه، وحضر عذابه.

---

(١) رواه أبو داود (٢/٥٠٣،٥٠٤)، والدارمي (٢/٢٤١)، وأحمد (٤/١٠٢)، والحاكم (١/١٢٨)، وقال الحاكم: هذه أسانيد تقوم بها الحجة في تصحيح هذا الحديث، ووافقه الذهبي، وقال الحافظ: وإسناده حسن، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: هو حديث صحيح مشهور، وصححه الشاطبي في الاعتصام، والألباني في الصحيحة رقم (٢٠٤).

الخاطرة الثامنة عشرة

إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر أين أقامك

إذا أردت أن تعرف منزلتك عند الله عز وجل، فتأمل وظيفتك في الدنيا، فمن كان مشغولاً بجمع الحطام، والاستكثار من زينة الدنيا، فالدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة، ولو كانت تساوي جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٣٣-٣٥] فلولا أن تكون الفتنة شديدة على أهل الإيمان فيصير الناس أمة واحدة أي على الشرك، لجعل الله عز وجل لمن يكفر بالرحمن لحقارة الدنيا عنده لبيوتهم سقفاً من فضة، وأبراج ومعارج يرتفعون عليها، ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون وزخارف، وكل هذا من متاع الدنيا الحقير، ثم جمع الله عز وجل الآخرة وجعلها للمتقين فقال: ﴿وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٣٥] قال بعضهم: من علامة خذلان الله عز وجل للعبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه، أي لا يعود عليه بالخير في الدنيا والآخرة.

ومن كان مشغولاً بطاعة الله عز وجل والدعوة إلى دينه والجهاد لرفع راية الله عز وجل فليعلم أن له عند الله عز وجل قدراً وشأناً لأن هذه

وظيفة الأنبياء وسبيل الأنبياء قال تعالى: ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** ﴾ [يوسف:١٠٨]، واستجابة لأمر الله عز وجل: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ** ﴾ [النحل:١٢٥]

فالدعوة إلى الله عز وجل هي أشرف وظيفة، لأنها وظيفة الأنبياء والمرسلين الذين هم أشرف الخلق قال سفيان بن عيينه: أشرف الناس منزلة، من كان بين الله وخلقه، وهم الأنبياء والعلماء.

فأشرف الناس منزلة هم الذين يعرفون الناس برب الناس ملك الناس إله الناس، الذين يستعملهم الله عز وجل في هداية خلقه، مع أن الله عز وجل قادر علي هداية الخلق بدون بذل من الدعاة، ولكن الله عز وجل قدر أن يبذل الدعاة حتى يستحقوا الفضل من الله عز وجل، ويكون لهم من الأجر مثل أجور من دعوهم إلى الله عز وجل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

فإذا أردت أن تعرف مقامك فانظر أين أقامك.

الخاطرة التاسعة عشرة

قال أبو الدرداء ﵁: يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم، كيف يغبنون به قيام الحمقى وصومهم، والذرة من صاحب تقوى أفضل من أمثال الجبال عبادة من المغترين

هذا الكلام من أبي الدرداء ﵁ يكتب بماء الذهب، ولا يعرف قدره إلى من ذهب من العلماء العاملين، ومن نسبح على منوالهم واستقام على الصراط المستقيم فإن المدار على تقوى الله عز وجل، والأتقياء هم العقلاء والأكياس فهم يتاجرون بالمباحات مع رب الأرض والسماوات، فينامون بنية صالحة، ويفطرون بنية صالحة، كما قال معاذ ﵁: إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي. فكما يقوم الليل ويحتسب - أي ينتظر الأجر عند الله عز وجل - فهو أيضاً ينام ويحتسب الأجر عند الله عز وجل، لأنه ينوي القيام من آخر الليل، أو التقوى على صلاة الفجر وأذكار الصباح، وينام على شقه الأيمن، ويضع كفه تحت خده ويقول: باسمك اللهم ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، فإن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين. وغير ذلك من أذكار النوم، فكيف لا يؤجر على هذا النوم. أما الأحمق الذي يمتلأ قلبه بالرياء والعجب، ولا يعرف طريق الإخلاص، وهو جاهل بالسنة فقد لا يكون له من قيامه إلا السهر، ولا من صيامه إلا الجوع والعطش، كما قال بعضهم: كم من قائم محروم، وكم من نائم مرحوم، هذا قام وقلبه كان فاجرا، وهذا نام وقلبه كان عامراً.

والرجلان يكونان في صف واحدٍ، وخلف إمام واحدٍ يكبران بتكبيره، ويسلمان بتسليمه، وما بين صلاتيهما كما بين السماء والأرض، فالأعمال تتفاضل بحسب ما في قلوب أصحابها من تقوى الله عز وجل، وقد قال النبي ﷺ في حق السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار [لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً، مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ][1] .

قيل لأنهم بذلوا في وقت احتاج فيه الإسلام إلى البذل، وقيل لعظيم تقوى السابقين، فالعمل القليل منهم يرجح على العمل.الكثير ممن ليسوا مثلهم في تقوى الله عز وجل، لأن الأعمال تتفاضل بحسب ما في قلوب أصحابها من تقوى الله عز وجل، فالذرة من صاحب تقوى، أفضل من أمثال الجبال عبادة من المغترين.

قال ابن القيم رحمه الله ما ملخصه: فاعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته لا ببدنه، والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب قال تعالى: ﴿ **ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ** ﴾ [الحج:٣٢]

فالكيس يقطع من المسافة بصحة العزيمة، وعلو الهمة، وتجريد القصد، وصحة النية مع العمل القليل أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من ذلك مع التعب الكثير، والسفر الشاق، فإن العزيمة والمحبة تذهب المشقة، وتطيب السير والتقدم والسبق إلى الله سبحانه إنما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة، فيتقدم صاحب الهمة مع سكونه صاحب العمل الكثير بمراحل، فإذا ساواه في همته تقدم عليه بعمله[2] .

(١) رواه البخاري (٥/٢٥٨، ٢٥٩) الشهادات، ومسلم (١٦/٨٧، ٨٨) الفضائل.
(٢) الفوائد (١٨٦، ١٨٧).

فالسير سير القلوب لا سير الأبدان، فقد يسبق العبد بمحبته لله عز وجل وإخلاصه وصدقه، من هو أكثر منه صلاة وصياماً وحجاً وعمرة.

قال بكر بن عبد الله المزني: ما سبقكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بشيء وَقَرَ في قلبه.

مَنْ لي بمثل سيرك المدلَّلِ　　　تسيرُ رويدًا وتجيء في الأوَّلِ

الخاطرة العشرون
من أحب أن يذكر لم يذكر، ومن كره أن يذكر ذكر

أي من أحب أن يشتهر ويرتفع لم يذكر، ومن كره الشهرة والذكر في الناس ذكر. وهذا كلام متين يشهد له الواقع بالاستقراء في تاريخ أمة محمد ﷺ ، فالذين ارتفع ذكرهم في الأمة، وبقى علمهم وثناء الناس عليهم، هم أهل الزهد في الشهرة والذكر، وأهل الإخلاص من أهل السنة والجماعة قيل لأبي بكر بن عياش: إن ناساً يجلسون في المسجد ويجلس إليهم. فقال: من جلس للناس جلس الناس إليه، ولكن أهل السنة يموتون ويبقى ذكرهم، وأهل البدعة يمو تون ويموت ذكرهم.

فالذين ارتفع ذكرهم في الأمة هم أهل الورع والصدق والإخلاص من أهل السنة والجماعة كأئمة الفقه الأربعة أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد رحمة الله عليهم، وكذا ابن المبارك والسفانين وإسحاق وأبي عبيد والحربي وشيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وابن رجب والذهبي وابن كثير والنووي والعز بن عبد السلام، ومن تأمل تراجمهم وجد نصيحتهم للأمة وزهدهم في أعراضها الزائفة، قيل للنبي ﷺ : الرجل يعمل العمل لا يريد به إلا وجه الله، فيحبه الناس وفي رواية فيثني عليه الناس - قال ﷺ : [تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ][1] فالمؤمن لا يرجو وجوه الناس، ولكنه يرجو وجه ربه الأعلى، والله تعالى يعلي ذكره، ويرزق الناس مودته، لأنه تعالى يملك قلوب العباد، ونواصي العباد، والشهرة على كل حال ليس فيها نفع عاجل

(١) رواه مسلم (١٦ / ١٨٩) البر والصلة.

ولا آجل، بل هي عنت ومشقة، وإبليس من أشهر الخلق، وقد جعل الله عز وجل الآخرة للذين لا يريدون عُلوا في الأرض ولا فسادا فقال تعالى: ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [القصص: ٨٣]

وقد كان السلف ﷺ يفرون من الشهرة أشد الفرار. كان أويس وغيره من الزهاد إذا عُرفُوا في مكانٍ ارتحلوا عنه. وكان إبراهيم بن أدهم إذا دخل عليه داخل وهو يقرأ في المصحف غطاه. ودخل إبراهيم بن أدهم بستانا فظل الناس يدورون في البستان ويقولون، أين إبراهيم بن أدهم، فأخذ يدور معهم ويقول أين إبراهيم بن أدهم. وذهب عبد الله ابن المبارك إلى الكوفه، وزاحم من أجل الوصول إلى سقاية، فلم يعرفه الناس فدفعوه. فقال: ما العيش إلا هكذا أي حيث لم نعرف ولم نوقر. وكان الواحد يختم القرآن حفظا ولا يعلم به جاره. وروى أن رجلاً من السلف صام سنة كاملة ولم تعلم بذلك زوجته كان يخرج بطعام إفطاره فيتصدق به، ويبقى في دكانه إلى غروب الشمس، ثم يعود يفطر في بيته.

فمن أحبَّ أن يذكر لم يذكر، وذلك لضعف نيته، ومحبته لنفسه، ومن كره أن يذكر ذكر، لأن كراهية الشهرة إخلاص لله عز وجل ورجاء لثوابه .

فمن أحب أن يذكر لم يذكر، ومن كره أن يذكر ذكر.

الخاطرة الواحدة والعشرون

عقيدة أهل السنة في الصفات تجمع بين موافقة المنقول والمعقول

أهل السنة والجماعه يثبتون لله عز وجل ما أثبته لنفسه، وما أثبته له رسول الله ﷺ، إثباتاً بلا تشبيه، وينزهون الله عز وجل عن مشابهة المخلوقين، تنزيهاً بلا تعطيل.

وموافقة هذه العقيدة للمنقول أن الله عز وجل أثبت لنفسه صفات وأثبت النبي ﷺ له صفات وظاهر الكتاب والسنة يجب القول به، والوقوف معه، حتى يدل الدليل على أن الظاهر غير مراد، فالله عز وجل أثبت لنفسه صفة السمع والبصر والحياة والقيومية والوجه والنفس واليدان وغير ذلك مما نطق به الكتاب العزيز، أو أثبته له النبي الكريم ﷺ، ولم يرد دليل أو أثارة من علم على أن الظاهر غير مراد، وكأن الذين ينفون الصفات بدعوى التنزيه أعلم بالله عز وجل من الله عز وجل، فيقال لهم: ﴿ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٤٠] هل هم أعلم بالله عز وجل من الله عز وجل أو من رسوله ﷺ، ويستحيل أن يكون ظاهر آيات وأحاديث الصفات غير مراد، ويترك النبي ﷺ الأمة دون أن يبين أن ظاهر الآيات والأحاديث في الصفات غير مراد.

أما موافقة هذه العقيدة للمعقول: فيستحيل أن يكون المخلوق أكمل من الخالق عز وجل، فالإنسان يتصف بصفة السمع والبصر، وإن كان السمع محدوداً والبصر محدوداً، فكيف يليق بالله عز وجل سلب

هذه الصفات عنه بدعوى التنزيه، فيكون المخلوق الضعيف أكمل من الخلق عز وجل من هذه الحيثيه والذين نفوا عن الله عز وجل صفة السمع والبصر والحياة خشية الوقوع في تشبيه الله عز وجل بالإنسان الحي السميع البصير، وقعوا في تشبيه الله عز وجل بالجمادات الخسيسة، التي لا تسمع ولا تبصر، بل ليست فيها حياة بالكلية، كما أن الذين نفوا عن الله عز وجل استواءه على عرشه، وفوقيته بدعوى التنزيه وقالوا بأن الله عز وجل في كل مكان، وقعوا في دعوى وجود الله عز وجل في دورات المياه، وأجواف الحيوانات، وهكذا كل من هرب من مقتضى الكتاب والسنة يقع فيما هرب منه، والله تعالى يعيب الآلهة الباطلة ويبين عجزها وعدم استحقاقها للعبادة فيقول عز وجل:

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]

وهذا إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء يقول لأبيه: **﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾** [مريم: ٤٢]

فهؤلاء المعطلة يجعلون لآذر حجة على إبراهيم الخليل فيمكنه أن يقول له: وأنت أيضاً تعبد ما لايسمع ولا يبصر، فالمعقول أن نثبت لله هذه الصفات على أكمل وجه يليق بالله عز وجل: **﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾** [الكهف: ٢٦] فالإنسان له سمع محدود على بعد معين، وبذبذبات معينة، وله بصر محدود في أبعاد محددة وبأحجام معينة، وبشروط معينة، كتوفر الضوء مثلا، والله تعالى يقول: **﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾** [الرعد: ١٠]

فالمعقول أن نثبت لله عز وجل هذه الصفات التي أثبتها لنفسه، وأثبتها له رسول الله ﷺ، ونعتقد أنها كما تليق بجلال الله عز وجل وعظمته، كما قال تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى: ١١].

فجمعت عقيدة أهل السنة والجماعة في الصفات بين موافقة المعقول والمنقول.

الخاطرة الثانية والعشرين

أولياء الله عز وجل الذين إذا رؤا ذكر الله عز وجل

الولاية هى المحبة والنصرة، وأولياء الله عز وجل هم الذين يحبون الله عز وجل وينصرونه. قال الحافظ: ولي الله هو القائم بطاعته، والمخلص في عبادته. وقيل في وصفه: أن يكون مستجاب الدعوة راضياً عن الله عز وجل في كل حال، مكثرا من طاعة الله عز وجل غير منشغل بالتكاثر من أعراض الدنيا، إذا وصل إليه القليل صبر، وإذا وصل إليه الكثير شكر، يستوي عنده المدح والذم، والظهور، والخمول، والفقر والغنى، حسن الصحبة، كثير الحلم، عظيم الاحتمال كلما زاده الله عِزّاً ازداد في نفسه تواضعاً وخضوعاً.

وقد بين الله عز وجل طريق الولاية في الحديث القدسي في قوله تعالى [وما تقرب إلي عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه](1) .

فطريق الولاية أن يستكمل العبد الفرائض فيؤديها في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي، ثم يفتح على نفسه أبواب النوافل، يتحبب بها إلى الله عز وجل ويتقرب بها إليه.

قال بعضهم: من أستغنى بالله أمن من العدم، ومن لزم الباب أثبت في الخدم، ومن أكثر من ذكر الموت أكثر من الندم.

---

(١) سبق تخريجه.

فإذا أكثر العبد من النوافل بعد استكمال الفرائض، وأقبل على الله عز وجل بقلبه وجوارحه، أقبل الله عز وجل عليه، ومن أقبل الله عز وجل عليه أضاءت ساحاته، واستنارت جوارحه، وظهرت عليه علامات القبول والولاية كان أيوب السختياني سيد شباب البصرة في زمن التابعين إذا دخل السوق، ورآه أهل السوق، سبحوا وهللوا وكبروا.

قال بعضهم: العارف في الدنيا ريحانة من رياحين الجنة، إذا شمها المريد اشتاقت نفسه إلى الجنة.

ويقول من رأى الحسن البصري : كان إذا أقبل فكأنما أقبل من دفن حميمه، وإذا جلس فكأنه أسير أمر بقطع رقبته، وإذا ذكرت النار فكأنها لم تخلق إلا له.

ولا شك في أن سادة الأولياء بعد الأنبياء هم العلماء العاملون، الذين جمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح، والزهد، والورع، وقد دعا النبي ﷺ لمن بَلَّغَ حديثه فقال ﷺ: [نَضَّرَ اللَّهُ امْرَءًا سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَبَلَّغَهُ إِلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعه، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ، رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ] (١).

قال سفيان بن عيينه: لا تجد أحداً من أهل الحديث إلا وفي وجهه نضرة لدعوة رسول الله ﷺ.

---

(١) رواه أحمد (٥/١٨٣)، والترمذي (١٠/١٢٥، ١٢٦) أبواب العلم، وابن ماجه (٢٣١) المقدمة، وابن حبان رقم (٦٨٠ الإحسان)، والدارمي (١/٧٥) والحديث له طرق وروايات كثيرة، وصححه الألباني، وأورده السيوطي في الأزهار المتناثرة في الأحاديث المتواترة رقم (٢٥).

وقال بعضهم:

أهلُ الحديثِ طويلةٌ أَعْمَارهم ... ووجوههم بدعَا النبيِّ مُنَضَّرَةٌ

وَسَمِعْتُ منِ بعضِ المشايخ أنهم ... أَمْوَالُهُمْ أيضا به متكثرة

والنبي ﷺ سيد الأولياء وإمام الأتقياء وقد وصفه حسان بن ثابت بقوله:

لو لم تكن فيه آيات مبينة ... كانت بديهته تأتيك بالخبر

أي لو لم يأت بالمعجزات الدالة على صدقه لكان الناظر إلى وجهه الكريم يعتقد صدقه، وهذا ما حدث من عبد الله بن سلام، وكان حبراً من أحبار اليهود، فلما هاجر النبي ﷺ نظر إلى وجهه وقال: أشهد أن وجهك ليس بوجه كذاب.

وكان النبي ﷺ إذا سرَّ استنار وجه، كأنه فلقة قمر ﷺ.

فالأولياء يذكرون بالله عز وجل بما على وجوههم من علامات إقبال الله عز وجل عليهم فالأولياء الذين إذا رؤا ذكر الله عز وجل.

الخاطرة الثالثة والعشرون

قال بعضهم: إني أريد أن لا أموت حتى أعرف مولاي

أول واجب على المكلف معرفة الله عز وجل بالدليل، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] فالله عز وجل هو رب الناس والرب هو الخالق الرزاق، المحي المميت، الذي يجمع الناس ليوم لا ريب فيه، وهو الحاكم المشرع، فلا يجوز التحاكم إلى غير شرعه، ويجب على المسلم كذلك أن يتعرف على أسماء الله عز وجل وصفاته، وأن يثبت لله عز وجل ما أثبته لنفسه، وما أثبته له رسوله ﷺ وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات هو توحيد المعرفة والإثبات ولازم هذا التوحيد النوع الثاني من التوحيد وهو توحيد القصد والطلب، أو توحيد الألوهية، ولاشك في أن صاحب هذه الخاطرة لم يقصد هذه المعرفة التي يعلمها أكثر المسلمين، ولكنه يقصد معرفة خاصة وهي المعرفة التي يترتب عليها شدة محبة الله عز وجل، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والاستغناء به عز وجل يستغنى بحبه عن حب ما سواه، وبذكره عن ذكر ما سواه، وبخدمته عن ما سواه.

فمثل هذا العارف تحبب إليه الطاعات والعبادات، وتصير جنتة التي ينقلب منها إلى جنة الآخرة. كما قال شيخ الإسلام: إن في الدنيا جنة، من لم يدخلها، لن يدخل جنة الآخرة.

وقال: ما يفعل بي أعدائي، أنا جنتي معي، بستاني في صدري، إن سجني خلوة وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، وتعذيبي جهاد في سبيل الله.

وقال بعضهم: إنه لتمر بي أوقات أقول إن كان أهل الجنة كما نحن فيه، والله إنهم لفي عيش طيب.

وقال بعضهم: إنه لتمر بي أوقات يرقص فيها القلب طربا.

وقال بعضهم: أحبه إِلَيَّ أحبه إليه.

وقال بعضهم: إني لا أحسن أن أعصي الله.

وقالت إحدى الصالحات من السلف: تعودوا حُبَّ الله وطاعته، فإن المتقين ألفوا بالطاعة فاستوحشت جوارحهم من غيرها، فإذا أمرهم الملعون بمعصية مرت المعصية بهم محتشمة، فهم لها منكرون.

وقال بعضهم: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من نعمة، لجالدونا عليها بالسيوف.

وقال بعضهم: أنا منذ أربعين سنة ما أزعجني إلا طلوع الفجر.

وقال بعضهم: أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا.

أبداً نفوس الطالبين إلى طلولكم تحن
وكذا القلوب بذكركم بعد المخافة تطمئن
جُنَّت بحبكم ومن يهوى يجن ولا يجن

رحم الله أعظماً طالما نصبت وانتصبت
جَنَّ عليها الليل فلما تمكن وثبت وثبت
إن ذكـــرت عـــدله رهبت وهربت
وإن تصــورت فـضله فـرحت وطربت

يا ديار الأحـبـاب أين السكان؟ يا منازل العـارفين أين القطان؟ يا أطلال الوجد أين أين البنيان؟ أماكن تعبدهم باكية، ومواطن خلواتهم لفقدهم شاكية، زال التعب وبقي الأجر، ذهب ليل النصب وطلع الفجر، تحت شجرة طوبى مستراح العابدين.

الخاطرة الرابعة والعشرون

إذا وجدت عند رجل خصلة من خصال الخير أو الشر فلها عنده أخوات

قال الأوزاعي: إذا وجدت عند رجل خصلة رائعة من خصال الخير، فاعلم أن لها عنده أخوات، وإذا وجدت عند رجل خصلة من خصال الشر فاعلم أن لها عنده أخوات.

الطاعات يولد بعضها بعضها، والمعاصي يولد بعضها بعضا، فإذا عمل العبد طاعة من الطاعات، قالت أخرى إلى جوارها وأنا أيضا أعملني فيعملها، فإذا عملها قالت أخرى إلى جوارها وأنا أيضا اعملني فيعملها وهذا من بركة الطاعة، فمن ثواب الطاعة الطاعة بعدها، فإذا رأيت رجلاً يقوم الليل، فإذا تدبرت في أحواله وجدته يصوم النهار كذلك، فإذا أكثر العبد من طاعة الله عز وجل تصير الطاعات هيئات راسخات، لا يستغنى عنها العبد بحال، فإذا وجد نفسه في غير طاعة، يضيق صدره، ويجد ما يدفعه من داخله إلى طاعة الله عز وجل.

وكذا إذا وجدت عند رجل خصلة من خصال الشر فاعلم أن لها عنده أخوات، فالمعاصي يولد بعضها بعضها، حتى تصير هيئات راسخات، فإذا تكاسل عن معصية الله عز وجل نزلت عليه الشياطين تؤزه إليها أزاً، وتزعجه إليها إزعاجاً كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا

الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم:٨٣] حتى يفعل كثير من الناس المعاصي ولا يجد لذة في فعلها، ولكن خوف الألم من مفارقتها كما قال بعضهم:

وكأسٍ شربتُ على لذةٍ ... وأُخرى تداويتُ منها بها

وقال بعضهم:

فكانت دوائي وهي دائي بعينه ... كما يتدواى شاربُ الخمرِ بالخمرِ

وهذا يبين بركة الطاعة، وشؤم المعصية، فمن ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن شؤم المعصية المعصية بعدها، فإذا وجدت عند رجل خصلة من خصال الخير فاعلم أن لها عنده أخوات، وإذا وجدت عند رجل خصلة من خصال الشر فاعلم أن لها عنده أخوات.

وقال ابن قيم رحمه الله: مثال تولد الطاعة ونموها وتزايدها، كمثل نواة غرستها فصارت شجرة، ثم أثمرت فأكلت ثمرها وغرست نواها فلكما أثمر منها شيء، جنيت ثمره وغرست نواة.

وكذلك تداعى المعاصي. فليتدبر اللبيب هذا المثال. فمن ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها[1].

---

(١) الفوائد (٤٩،٥٠).

الخاطرة الخامسة والعشرون

من الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم

قال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء:٦٥] وقالوا: لا تسأل لماذا شرع، ولكن سل ماذا شَرَّع.

فقد توجد عبادات لا تظهر حكمتها، ومقتضى الإيمان والرضا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، أن تعتقد أن لكل حكم حكمه، لأن الله عز وجل عليمٌ حكيمٌ، ولا يشترط أن تعلم الحكمة في كل أمر شرعي، حتى تنقاد له بل مقتضى الإيمان أن تبادر بتنفيذ الأمر الشرعي وإن جهلت حكمته، فمن الله عز وجل الرسالة، وعلى الرسول ﷺ البلاغ، وعلينا التسليم، ولا تسأل لماذا شرع ولكن سل ماذا شرع.

وقالوا: العقل كالدابة تصل بها إلى دار السلطان، ولا تدخل بها على السلطان تأدباً.

فالعقل يوصل إلى الإيمان، بتدبر أدلة التوحيد، وعلامات النبوة ثم تنتهي وظيفة العقل، فلا تعرض كل الأوامر الشرعية علي العقل، والدين بالشرع لا بالعقل، فلو كان الدين بالعقل، لكان باطن الخف أولى بالمسح من ظاهره.

فالواجب على المسلم أن يسلم نفسه للشرع الحنيف، فيتولى الشرع تطيبه وتطهيره، فيكون بين يدي الشارع كالميت بين يدي المغسل، فالميت ليس له إرادة تخالف إرادة مغسله، فيقلبه المغسل كيف شاء، ويبدأ بما شاء، وينتهي بما شاء، وهكذا المسلم بين يدي الشرع.

والإسلام هو الاستسلام لشرع الله عز وجل، وإخلاص القصد والنية قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [الرعد: ١٥]

والإسلام العام هو دين جميع الأنبياء قال الله عز وجل عن إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣١]

قال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢]

ثم قال عز وجل: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣]

فالإسلام هو دين جميع الأنبياء، فالأنبياء كإخوة لعلات، أباهم واحد وأمهاتهم متفرقة، إشارة إلى أن أصل الدين واحد، وهو العقائد، والشرائع متفرقة: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨]

الخاطرة السادسة والعشرون

من توفيق الله عز وجل للعبد أن يعرف خطر الأوقات والأنفاس، وأن يسابق الأوقات بالطاعات

رأس مال العبد أنفاسه، فمن سابق سعادته أن يعلم أن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة ثمينة، يستطيع أن يشتري بها كنزا لا يفنى أبد الآباد، فتضيعه وخسارته، أو اشتراء صاحبه به ما يجلب هلاكه، لا يسمح به إلا أقل الناس عقلاً، وأكثرهم حمقاً، فالسعيد من عرف زمانه، وتاجر بأنفاسه مع الله عز وجل، فربح على الله عز وجل أعظم الأرباح.

قال الحسن البصري: المبادرة المبادرة فإنما هي الأنفاس، لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله عز وجل، رحم الله امرءاً نظر في نفسه، ثم بكى على عدد ذنوبه، ثم تلا قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤] يعني الأنفاس - آخر العدد خروج نفسك آخر العدد فراق أهلك، آخر العدد دخولك في قبرك. فكل عبدٍ له عدد محدد من الأنفاس، ويعد لكل واحد منا عدٌّ تنازلي، حتى يصل إلى آخر العدد الذي قدره الله عز وجل له، فإذا وصل إلى آخر العدد المقدر له، كان خروج النفس، وفراق الأهل، ودخول القبر، فالسعيد من تاجر بأنفاسه مع الله عز وجل، فكانت أقواله وأعماله مما يغتبط به في الآخرة، وترتفع به درجته، والمخذول من ضيع عمره،

وأنفق أنفاسه فيما لا يعود عليه بالخير، قال النبي ﷺ : [مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيهِ][1] أي ترك ما لا يعود عليه بالخير في الدنيا والآخرة من الأقوال والأعمال.

وقال بعضهم: من علامة خذ لان الله عز وجل للعبد، أن يجعل شغله فيما لا يعنيه.

يا مَنْ بدنياه انشغلَ وغَرَّهُ طولُ الأملِ
الموتُ يأتي بغتةً والقبرُ صندوق العملِ

كان السلف رضي الله عنهم يبخلون بأنفاسهم أن تنفق في غير طاعة الله عز وجل فملأوا الدنيا عبادة وطاعة لله عز وجل وتمنوا لو واصلوا العبادة بعد الموت.

كان ثابت البناني يقول: يا رب إن أذنت لأحدٍ أن يصلي في قبره فأذن لي.

ودخلوا على الجنيد وكان في النزع وكان يصلي فقالوا له: الآن. قال: الآن تطوى صحيفتي.

ودخلوا على أبي بكر النهشلي، وكان في النزع، وكان صائماً فقالوا له: إشرب قليلاً من الماء. قال: حتى تغربَ الشمسُ.

وبكى أحد السلف عند موته، فسأل عن سبب بكائه، فقال: أبكي لأن يصوم الصائمون ولست فيهم، ويصلي المصلون ولست فيهم.

وكان في التابعين ثلاثين تابعياً لو قيل لأحدهم: القيامة غدا ما استطاع أن يزيد شيئا.

---

(١) رواه الترمذي (٩ / ١٦٩ عارضة) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه، ورواه ابن ماجه (٣٩٧٦)، وحسنه النووي وابن عبد البر، وقال ابن رجب: الصحيح فيه المرسل، وصححه الألباني.

وكانوا يعدون خصال الخير، ويبكون على أنفسهم أنْ فاتهم شيءٌ منها.

دخلوا على عابدٍ مريض، فنظر إلى قدميه وبكي وقال: ما اغبرتا في سبيل الله.

وقال بعضهم: أعد ثلاثين خصلة من خصال الخير، ليس فيَّ شيءٌ منها.

وكانوا أحرص على أوقاتهم من حرصنا على الدينار والدرهم.

قال رجل لأحد العلماء: قف أكلمك. قال: أوقف الشمس.

وكان أحد العلماء إذا جلس عنده الناس، فأطالوا الجلوس يقول: أما تريدون أن تقوموا، إن ملك الشمس يجرها لا يفتر.

قال بعضهم: من علامة المقت، إضاعة الوقت.

يا من أنفاسه محفوظة، وأعماله ملحوظة

أينفق العمر النفيس، في نيل الهوى الخسيس

جَدَّ الزمان وأنت تلعب ... والعمر لا في شيء يذهب

كم كم تقول غداً أتوب ... غداً غداً والموت أقرب

قال ابن القيم رحمه الله: إضاعة الوقت أشد من الموت، لأن إضاعة الوقت يقطعك عن الله والدار الآخرة، والموت يقطعك من الدنيا وأهلها.

قال ابن الجوزي ما ملخصه: رأيت العادات قد غلبت الناس في تضييع الزمان، وكان القدماء يحذرون من ذلك.

قال الفضيل: أعرف من يعد كلامه من الجمعة إلى الجمعة.

ودخلوا على رجل من السلف فقالوا: لعلنا شغلناك فقال: أصدقكم كنت أقرأ، فتركت القراءة لأجلكم.

وجاء رجل من المتعبدين إلى سرى السقطي فرأى عنده جماعة. فقال: صرت مناخ البطالين ثم مضى ولم يجلس.

وكان داود الطائي يستف الفتيت ويقول: بين سف الفتيت وأكل الخبز، قراءة خمسين آية.

وكان عثمان الباقلاوي دائم الذكر لله تعالى فقال: إني وقت الإفطار أحس بروحي كأنها تخرج، لأجل اشتغالي بالأكل عن الذكر.

وأوصى بعض السلف أصحابه فقال: إذا خرجتم من عندي فتفرقوا، لعل أحدكم يقرأ القرآن في طريقه، ومتى اجتمعتم تحدثتم.

والذي يعين على اغتنام الزمان الانفراد والعزلة مهما أمكن، والاقتصار على السلام، أو حاجة مهمة لمن يلقى.

وقلة الأكل، فإن كثرته سبب النوم الطويل، وضياع الليل ومن نظر في سير السلف وآمن بالجزاء بان له ما ذكرته[1].

---

(١) صيد الخاطر (٤٧٩-٤٨٠).

الخاطرة السابعة والعشرون

ليس شيءٌ أنفع لقلب العبد من مصاحبة الصالحين والنظر إلى أفعالهم، وليس شيءٌ أفسد لقلب العبد من مصاحبة الفاسقين والنظر إلى أفعالهم

النفس بطبيعتها فيها استعداد للخير والشر، كما قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٧-١٠]

فإذا صاحب العبد العباد والزهاد والعلماء رغبت نفسه في التشبه بهم، وتحركت نفسه إلى الإيمان، والعمل الصالح، والعلم النافع، وإذا صاحب أهل المعاصي والاختلاط وأهل الرغبة في الدنيا، والطمع في شهواتها مالت نفسه إلى الدنيا، فالصاحب ساحب إما إلى الخير وإما إلى الشر.

ومن أعظم أسباب الرقي الإيماني مصاحبة العلماء العاملين، والدعاة المخلصين. قال أنس رضي الله عنه: ما نفضنا أيدينا من دفن رسول الله ﷺ حتى أنكرنا قلوبنا. فكان من أعظم أسباب الرقي الإيماني للصحابة رضي الله عنهم صحبتهم للنبي ﷺ، وقد كان في التابعين من هو أكثر صلاة وصياما وحجاً وعمرة من الصحابة رضي الله عنهم، ولكن الصحابة سبقوا بالأحوال الإيمانيه، والصدق، واليقين، والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه للتابعين: لأنتم أكثر عملاً من أصحاب رسول الله ﷺ، ولكنهم كانوا خيراً منكم، كانوا أزهد في الدنيا، وأرغب في الآخرة.

قال رجل لأحد الفضلاء هل يمكن أن يأتي جيل مثل الصحابة ﭫ؟ قال: لا يمكن فقيل له لماذا؟ قال لأنهم يلزمهم أن يصبحوا شيخاً مثل رسول الله ﷺ.

فمن أراد أن يرق قلبه فليقترب من أصحاب القلوب الرقيقه، ومن أراد الرغبة في العلم النافع والعمل الصالح، فليقترب من العلماء والعباد والزهاد قال ابن الجوزي رحمه الله:

صاحب أهل الدين وصافهم
واستفد من أخلاقهم وأوصافهم
واسكن معهم بالتأديب في دارهم
وإن عاتبوك فاصبر ودارهم
أنت في وقت الغنائم، نائم
وقلبك في شهوات البهائم، هائم
إن صدقت في طلابهم، فانهض وبادر
ولا تستصعب طريقهم، فالمعين قادر
تعرض لمن أعطاهم، وسل فمولاك مولاهم

رب كنز وقع به فقير، ورب فضل فاز به صغير.

علم الخضر ما خفي على موسى، وكشف لسليمان ما غطى عن داود.

وقال ابن القيم رحمه الله: إذا رزقت يقظه، فصنها في بيت عزلة، فإن أيدي المعاشرة نَهَّابةٌ، واحذر معاشره البطالين، فإن الطبع لص، لاتصادقن فاسقاً، ولا تثق إليه، فإن من خان أول منعم عليه لا يفي لك[1].

(١) بدائع الفوائد (٣/٢٣٥).

الخاطرة الثامنة والعشرون
أهل السنة لهم نصيب من قول الله عز وجل
﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح: ٤]
وأهل البدع لهم نصيب من قول الله عز وجل
﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ [الكوثر: ٣]

فأهل السنة يحبون رسول الله ﷺ، ويذبون عن سنته، فيرفعهم الله عز وجل ويرزق الناس محبتهم، كما قال الإمام أحمد: بيننا وبينهم - أي أهل البدع - أيام الجنائز. لأن العبد إذا مات نطق الناس بالحق، وظهرت منزلة العبد، وقد قال النبي ﷺ لمن شهد الناس له بالخير وجبت أي وجبت له الجنة. وقال لمن شهد الناس له بالشر وجبت أي وجبت له النار ثم قال: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] والوسط هو العدل، فهذا تعديل من الله عز وجل لهذه الأمة، فيستحيل أن تتعلق قلوب المسلمين بمحبة أهل البدع والمعاصي، فالله عز وجل يرزق الناس محبة أهل السنة والجماعة لأنهم أحبوا رسول الله ﷺ، وأحيوا سنته، فأحيا الله عز وجل قلوبهم، ورفع ذكرهم، ورزق الناس مودهم.

قال أبو مسلم الخولاني: والله لنزاحمنهم عليه - أي يزاحم الصحابة على رسول الله ﷺ على الحوض - حتى لا يستأثروا به دوننا، وحتى يعلموا أنهم تركوا من خلفهم رجال. وهل ارتفع في الأمة إلا أهل السنة والجماعة أمثال مالك والسفيانين وابن المبارك والشافعي وإسحاق

وأحمد بن حنبل والبخاري ومسلم وابن تيمية وابن القيم وغيرهم من الأئمة الأعلام الذين أحيوا سنة رسول الله ﷺ وحفظ الله عز وجل بهم دينه، وأحيا القلوب بمحبتهم، فلهم نصيب من قول الله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:٤] وإن كانت الآية تخص رسول الله ﷺ.

أما أهل البدع فلأنهم أعرضوا عن سنته ﷺ، وقدموا آراء الرجال والأهواء على ما جاء به رسول الله ﷺ، فأمات الله عز وجل ذكرهم، وخلت القلوب من محبتهم، ونالهم من الذلة الصغار بحسب بدعتهم، قيل لأبي بكر بن عياش إن ناساً يجلسون في المسجد ويجلس إليهم. فقال: من جلس للناس جلس الناس إليه، ولكن أهل السنة يموتون ويبقي ذكرهم، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم. فكان لأهل البدع نصيبٌ من قول الله عز وجل ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ [الكوثر:٣] فكل من أبغض رسول الله ﷺ أو شيئا من سنته، فهو مقطوع الخير، لا محبة له في قلوب الناس، ولا بركة في عمره ولا ذريته فهو أبتر من كل خير، أمثال الجعد بن درهم، والجهم بن صفوان، والحلاَّج وعبد الله بن سبأ وغيرهم.

الخاطرة التاسعة والعشرون

العبودية وظيفة العمر

والموفق من عرف الوظيفة التي خلقه الله عز وجل من أجلها، وقام بها كما يحب ربنا ويرضى.

وقد بين الله عز وجل هذه الوظيفة أتم بيان فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨]

فالوظيفه التي خلقنا الله عز وجل من أجلها ليست السعي على المعاش كما يظن البعض، أو جمع المال حتى يترك مالا جزيلا لأولاده كما يظن البعض، فالله عز وجل هو المتكفل بالأرزاق ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٧-٥٨] فالمطلوب من العبد أن يشتغل بالعبوديه لله عز وجل، والله تعالى ييسر له أسباب الرزق، ويرزقه من حيث لا يحتسب، فالله عز وجل خلقنا من أجل أن نعبده عز وجل، وأرسل الرسل الكرام من أجل أن ينبهوا الناس إلى الوظيفة التي خلقهم الله عز وجل من أجلها، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]

وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]

فوظيفة الرسل تحرير الناس من عبادة غير الله عز وجل، وتعبيدهم لله عز وجل، وهي أيضاً وظيفه الدعاة بدعوة الرسل، كما قال ربعي بن عامر رضي الله عنه لرستم: إن الله ابتعثنا، لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

فالعباد يقعون في عبادة الأشجار والأحجار والشمس والقمر والبقر والطواغيت والهوى فالدعاة إلى الله عز وجل يحررون الناس من هذه العبادة الباطلة ويشرفونهم بأن يجعلوهم عبيداً لله عز وجل والقلوب لا تسعد ولا تطمئن ولا تستقر حتى تعبد الله عز وجل، وتمتلأ بمحبته وذكره وشكره، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]

فلا تصل القلوب إلى مناها حتى تصل إلى مولاها، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة، ومهما اكتملت العبودية لله عز وجل، تحرر القلب من عبودية غير الله، ومهما تحرر من عبودية غير الله عز وجل، تكتمل سعادته في الدنيا والآخرة، فأسعد ما يكون العبد إذا كان بقلبه وجوارحه معبداً لله عز وجل في كل أوقاته وأحواله ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]

فنحن عبيد لله عز وجل، والعبد لا يجوز له أن يعمل ويؤدي إلى غير سيده، فالسعادة في الدنيا والآخرة منوطة بقيام العبد بوظيفة العبودية لله عز وجل، والضنك والشقاء في الدنيا والآخرة منوط

بالإخلال بهذه الوظيفة، والتعبد لغير الله عز وجل، قال النبي ﷺ: [تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيْصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ القَطِيْفَةِ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيْكَ فَلاَ انْتَقَشَ](١).

ولما خلقت القلوب لعبادة عَلاَّم الغيوب وغفار الذنوب عز وجل، كان علاج القلب إذا أصيب بشيء من الهم أو الغم أو الحزن في التوحيد، وإخلاص العبادة للرب الحميد المجيد، قال النبي ﷺ: [مَا أَصَابَ عَبْداً قَط هَمٌّ وَلاَ غَمٌّ وَلاَ حَزَن فَقَال: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ رَبِيْعَ قَلْبِي ...](٢)الحديث.

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.

الخاطرة الثلاثون

البلايا على مقادير الرجال

قال النبي ﷺ : [أَشَدُّ النَّاسِ بَلاءً الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ يُبْتَلَى المَرْءُ عَلَى قَدْرِ دِيْنِه][1] .

من تأمل أحوال الأنبياء، وشدة ما مَرَّ بهم من بلاء، ازداد يقينا وإيمانا بصدق رسول الله ﷺ .

فهذا نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام إبتلي بابن كافر وزوجة كافرة، وابتلي بقوم في غاية الكفر والغباء، كلما دعاهم إلى الله عز وجل جعلوا أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا كلامه، وغطوا وجوههم حتى لا يرون من يدعوهم إلى الله عز وجل، وظل يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، سراً وجهاراً، وليلا ونهاراً، وما آمن معه إلا قليل وما دعا عليهم حتى أوحى الله عز وجل إليه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن.

وهذا إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والتسليم، أمر بذبح ولده وبكره بعد أن رزق به على كبر، وبعد أن بلغ معه السعي وصار ملء السمع والبصر وهم بذبح ولده تلبية لأمر الله عز وجل، لأن أوامر الله عز وجل لا تعرض على العقول وفداه الله عز وجل بذبح عظيم.

وألقي في النار ونجاه الله عز وجل بقوله : ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]

(١) رواه الترمذي (٩/ ٢٤٣) الزهد وقال: هذا حديث صحيح، وأحمد في المسند (١/ ١٧٢).

وأمره الله عز وجل بترك ولده إسماعيل، وأم ولده هاجر، بوادٍ غير ذي زرع، فلا أنيس ولا جليس. وقالت له هاجر آلله أمرك بذلك قال: نعم قالت: فلن يضيعنا.

وهذا يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ألقى في غيابة الجب وهو صغير، وبيع بيع الرقيق بثمن بخس، دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين، وابتلى بما ابتلى به من امرأة العزيز، ثم زج به في السجن فلبث في السجن بضع سنين.

وهذا يعقوب عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ابتلى بفقد ولده الذي أحبه حباً شديدا، فلا يتحمل فراقه ساعة من نهاره سنين متطاولة، وقال فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ثم ابتلى بفقد شقيق يوسف وذهب بصره وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم، ثم ابتلى بأكبر أبنائه الذي قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠]

وهذا أيوب عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام إبتلى بفقد ماله وأولاده وأصحابه، ثم ابتلى في بدنه حتى تضرع إلى الله عز وجل فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]

وهذا يونس عليه السلام ابتلى بمخالفة قومه، ولما استبطأ إيمانهم ركب البحر، فساهم فكان من المدحضين، ثم سجن في بطن الحوت، ولولا أنه كان من المسبحين – أي المصلين – للبث في بطنه إلى يوم يبعثون، أي لصار بطن الحوت قبراً له: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمة الليل،

وظلمة قاع البحر، وظلمة بطن الحوت، فقال: ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧]

وهذا نبينا محمد ﷺ أوذى في الله وألقى على ظهره سلى الجذور وهى الجلدة التي يكون فيها الولد – وخنقه عقبه بن أبي معيط خنقا شديدا حتى دفعه عنه أبو بكر الصديق وقال: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ومكر به قومه كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ [الأنفال: ٣٠]

فالبلايا على مقادير الرجال

على قدر فضل المرء تأتي خطوبه ... ويعرف عند الصبر فيما يصيبه

ومن قل فيما يتقيه اصطباره ... فقد قل مما يرتجيه نصيبه

قال ابن الجوزي: البلايا على مقادير الرجال فكثير من الناس تراهم ساكتين راضين بما عندهم من دين ودنيا.

وأولئك لم يرادوا لمقامات الصبر الرفيعة

أو علم ضعفهم من مقاومة البلاء، فلطف بهم[1].

---

(١) صيد الخاطر (٢٠٥).

الخاطرة الواحدة والثلاثون

كلٌّ أحد من الخلق يريدك لنفسه، والله عز وجل يريدك لك

معاملة الله عز وجل مع العباد تختلف عن معاملة العباد مع العباد، فمعاملة الله عز وجل مع العباد معاملة بين الغني بالذات الذي لا يحتاج إلى شيء، ولايستغنى عنه شيء، وبين الفقير بالذات، فالله عز وجل يريد من العباد أن يعاملوه حتى يربحوا عليه عز وجل أعظم الأرباح، والله تعالى لا يستفيد شيئاً من طاعتهم وعباداتهم، كما أنه عز وجل لا يتضرر بشيء من معاصيهم كما جاء في الحديث القدسي: [يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا].

فالعباد أنفسهم ينتفعون بطاعتهم، وهم أنفسهم يتضررون بمعاصيهم، قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج:٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران:١٤٤]

ومن تأمل الخاطرة الثالثة بعنوان: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر:٦٧] علم أن

شأن العباد أقل وأذل من أن ينفعوا الله عز وجل، وشأن الله تعالى أعلى من أن ينفع بطاعات العباد، أو يتضرر بمعاصيهم، لأنه ملكه كامل عز وجل، فالله تعالى يحب من العباد أن يطيعوه حتى يربحوا على الله عز وجل أعظم الأرباح، ويحذرهم من معصيته، حتى لا يعرضوا أنفسهم لسخطه وعقابه.

فكل أحدٍ من الناس يريد أن يعاملك ببيع أو شراء أو إيجارة أو مضاربة، فإنما يريدك لنفسه، قد تربح أنت أيضاً وأنت فقير وهو فقير، والله عز وجل يريدك لك يريد أن تعامله حتى تربح أنت، والله عز وجل غنى عنك وعن عبادتك، ومن تأمل هذا المعنى لا يَمُنُّ بعمله على الله عز وجل أو على عباد الله، ولا يعجب بعمله، وكلما ازداد اجتهاداً في طاعة الله عز وجل ازداد تواضعاً لله عز وجل وشكراً له على توفيقه لطاعته، قال أيوب السختياني: ينبغي للعالم أن يضع التراب على رأسه تواضعاً لله عز وجل.

الخاطرة الثانية والثلاثون

ينبغي للعالم أن يورث تلامذته (لا أدري)

التجرأ على الفتوى تجرأ على الله عز وجل، والتورع عن الفتوى بغير علم دليل تقوى وورع، لأن المفتي يوقع عن الله عز وجل أمره ونهيه، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل:١١٦]

وقال تعالى ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣]

وقد كان السلف ﷺ يكرهون التجرأ على الفتيا والحرص عليها.

عن البراء قال: أدركت عشرين ومائة من الأنصار، من أصحاب رسول الله ﷺ يسأل أحدهم المسألة، ما منهم من رجل إلا وَدَّ أن أخاه كفاه.

وفي رواية: فيردها هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، حتى يرجع إلى الأول.

وعن ابن مسعود ﷺ قال: إن الذي يفتي الناس في كل ما يستفتونه لمجنون.

وقال سفيان الثوري: أدركنا الفقهاء وهم يكرهون أن يجيبوا في المسائل والفتيا، حتى لا يجدوا بُداً من أن يفتوا، وإذا أعفوا منها كان أحب إليهم.

وقال عمر بن عبد العزيز: أعلم الناس بالفتاوى أسكتهم وأجهلهم بها أنطقهم.

وكان ابن سيرين إذا سئل عن شيء من الحرام والحلال تغير لونه، وتبدل حتى كأنه ليس بالذي كان.

وكان النخعي يسأل فتظهر عليه الكراهة ويقول: ما وجدت أحداً تسأله غيري. وقال: قد تكلمت ولو وجدت بُدّاً ما تكلمت، وإن زمانا أكون فيه فقيه أهل الكوفة لزمان سوء.

وقال الإمام أحمد: ليعلم المفتي أنه يوقع من الله أمره ونهيه، وأنه موقوفٌ ومسئول عن ذلك.

وقال أحد العلماء لبعض المفتين: إذا سألت عن مسألة، فلا يكن همك تخليص السائل ولكن تخليص نفسك.

وقالوا: إنما العالم الذي إذا أفتى فكأنما يقلع ضرسه.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: ما أبردها على قلبي، إذا سألت عما لا أعلم أن أقول الله أعلم.

وقالوا: العلم ثلاثة: حلالٌ، وحرامٌ، ولا أدري.

وأخبرني من سجل بعض التسجيلات للعلامة ابن باز، وقد سأل عن مسألة فقال، لا أدري فحذفها من سجل له البرنامج، ظَنَّاً منه أن هذا يشين الشيخ رحمه الله، فلما علم بذلك العلامة ابن باز أصَرَّ على إعادتها، وفي ذلك من علم الشيخ رحمه الله وتربيته للأمة، ما هو أنفع من كثير من الكلام، وظهرت بركة هذه الأخلاق، التي تذكر بأخلاق السلف، فرحمة الله عليه.

فينبغي للعالم أن يكثر من قول لا أدري حتى يورثها تلامذته وحتى لا يتحرجوا من ذكرها والله المستعان.

الخاطرة الثالثة والثلاثون

السلفية هي الفهم الصحيح للإسلام

السلفية ليست فهم شخص من الأمة للإسلام غير معصوم.

السلفية ليست مجرد اعتقاد السلف رضي الله عنهم.

السلفية ليست امتثال الهدى الظاهر وحده.

السلفية منهج حياة متكامل، وصياغة للحياة كما لو كان السلف الصالح وهم الصحابة والتابعون وتابعوهم من أهل القرون الخيرية يعيشون في زماننا.

السلفية عقائد، وأخلاق، وآداب، وأعمال، وأقوال، موافقة لما كان عليه سلف الأمة.

السلفية هي الامتداد الطبيعي للإسلام الخالي من البدع، والشبهات والشهوات.

فإن قال قائل: ولماذا لا يكفي اسم الإسلام؟ ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج:٧٨] فالجواب كان يكفي اسم الإسلام لو لم تفترق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، كما أخبر المعصوم ﷺ، لكن لما افترقت الأمة، وظهرت فيها البدع التي أخبر عنها النبي ﷺ، كان لا بد لمن تمسك بهدي الجماعة الأولى وما كانت عليه أن يتميز باسم ومنهج. كما قيل للإمام أحمد: ألا يسعنا أن نقول: القرآن كلام الله ونسكت فقال: كان هذا يسع من قبلنا. أي قبل ظهور قول المعتزلة بأن القرآن مخلوق.

فكان يكفي المسلم أن يقول القرآن كلام الله. ولكن بعد ظهور البدعه لا يكفيه ذلك حتى يقول القرآن كلام الله غير مخلوق.

فاسم الإسلام كان يكفي عندما كانت الأمة جماعة واحدة، وقبل ظهور البدع.

قال عبد الله بن مسعود: إنكم قد أصبحتم اليوم على الفطرة وإنكم ستحدثون ويحدث لكم، فإذا رأيتم محدثة فعليكم بالعهد الأول.

وقال الإمام مالك: لم يكن شيءٌ من هذه الأهواء، على عهد رسول الله ﷺ، وأبي بكر، وعمر، وعثمان.

فالبدع ظهرت في آخر عصر الصحابة ﷺ مصداقاً لقول النبي ﷺ: [فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلاَفاً كَثِيراً][1].

ولذا لما سئل عبد الله بن المبارك عن الجماعة. فقال: أبو بكر وعمر. فقيل: قد مات أبو بكر وعمر. فقال: فلان وفلان. فقيل: قد مات فلان وفلان، فقال: أبو حمزة السكري جماعة.

فالسلفية هي التمسك بهدى الجماعة الأولى التي إمامها رسول الله ﷺ، فنحن ننتسب إلى هذه الجماعة عبر القرون والأجيال، ففي الصفوف الأولى منها أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وبقية العشرة، وأهل بدر وأهل الحديبية، ومنها أئمة الفقه، كأبي حنيفة ومالك

---

(١) رواه أحمد (٤/١٢٦، ١٢٧)، وأبو داود (١٢/٣٥٩، ٣٦٠) السنة، والترمذي (١٠/١٤٤) العلم وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٤٣) المقدمة والدارمي (١/٤٤، ٤٥) اتباع السنة، والبغوي في شرح السنة (١/٢٠٥)، وقال: هذا حديث حسن، وصححه الألباني في الظلال.

والشافعي وأحمد، وأئمة الحديث كالبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وأئمة التفسير كابن جرير الطبري، وابن أبي حاتم، وابن كثير، وغيرهم من الذين حافظوا على عقيدة الصحابة، وفهم الصحابة للكتاب والسنة والذين نفضوا الغبار عن منهج أهل السنة والجماعة، كشيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وابن رجب ومحمد بن عبد الوهاب والألباني وابن باز رحم الله الجميع، وجمعنا بهم في عليين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

الخاطرة الرابعة والثلاثون

إعطاء الدنيا ليس علامة على رضى الله عز وجل، وحرمانها ليس علامة على سخط الله عز وجل

كثير من الناس خاصة من بسط له في الدنيا من الذين حرموا اليقين والإذعان يظن أن الله عز وجل إذا فتح على العبد الدنيا، فهى علامة على رضى الله عز وجل، وأن من بسط له في الدنيا سوف يبسط له في الآخرة، وهذا ظنٌّ فاسد كما قال صاحب الجنتين: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٦] فهو يعلن كفره بالآخرة لأن الإيمان جزم ويقين لا يحتمل الشك، فمن شك في وجود الله عز وجل أو وعيد الله عز وجل كفر، ولذلك قال له المؤمن وهو يحاوره: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ [الكهف:٣٧] وهو مع كفره بالله عز وجل، يظن أن الآخرة إذا كانت حقاً، ورد إلى ربه يجد جنة أحسن من جنته في الدنيا، فحرمه الله عز وجل من جنته في الدنيا مع حرمانه من جنة الآخرة بكفره.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ:٣٥-٣٧]

فإعطاء الدنيا ليس علامة على رضى الله عز وجل، لحقارة الدنيا، فلو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء

فالله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب كما قال تعالى: ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ [الإسراء: ٢٠]

أما العلم النافع والفقه في الدين فهو علامة على محبة الله عز وجل وإرادته بالعبد خيرا كما قال النبي ﷺ: [مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ] (١) فمنطوق الحديث من أراد الله عز وجل به خيراً فقهه في الدين، والمفهوم من لم يرد الله به خيرا لا يفقهه في الدين.

فمهما نال العبد من زينة الدنيا ولم يفقه دين الله عز وجل فهو ممن لم يرد الله به خيرا.

كذلك بسط الدنيا قد يكون استدراجاً من الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الإعراف: ١٨٢] قال بعضهم: يعطيهم النعم ويمنعهم الشكر. وقال بعضهم: كلما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمة.

كما أن بسط الدنيا ليس علامة على الذكاء والمهارة، ولكن الله عز وجل يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، فقد يكون الرجل من أغبى الناس، ومع ذلك أكثرهم مالاً، وقد يكون في غاية الذكاء وهو أقل الناس من أعراض الدنيا.

كما قال بعضهم

تموتُ الأُسْدُ في الغاباتِ جُوعاً ... ولحمُ الضَّأنِ تأكلُهُ الكلابُ

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٦٤) العلم، ومسلم (١٣/ ٦٧) الإمارة، والترمذي (١٠/ ١١٤)، وقال ابن الأثير: الفقه: الفهم والدراية والعلم في الأصل وقد جعله العرف خاصاً بعلم الشريعة.

الخاطرة الخامسة والثلاثون

إذا لم يكن من الله عون للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده

العبد لا يستغني عن ربه طرفة عين، فهو فقير بالذات، كما أن الله عز وجل غنيٌّ بالذات قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥]

والموفق من وفقه الله عز وجل، والمخذول من خذله الله، قال بعض السلف: رأيت العبدَ ملقىً بين الله عز وجل وبين الشيطان، فإن تولاه الله عز وجل لم يقدر عليه الشيطان، وإن خذله الله عز وجل أخذه الشيطان.

فنحن لا نستطيع أن نعبد الله عز وجل إلا بتوفيقه ومعونته، ولذلك نكرر في كل ركعة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] وقد وصف الله عز وجل الخوارج فقال ﷺ: [يحقر أحدكم صلاته على صلاتهم، وصيامه على صيامهم، يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم] ثم قال ﷺ: [يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ، كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ][(١)].

فبعد أن وصفهم النبي ﷺ بالاجتهاد في الطاعة والعبادة قال: [يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ] فالأمر ليس بكثرة العبادات والاجتهاد وحده، فكلما ازداد صاحب بدعة اجتهاداً، ازداد من الله عز وجل بعداً ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤]

(١) رواه البخاري (٨/١١٧) فضائل القرآن، ومسلم (١٠٦٤) الزكاة.

وقال عز وجل عن الأعمال التي لا تصدر عن إخلاص لله عز وجل أو متابعة لسنة النبي ﷺ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً﴾[الفرقان:٢٣]

فكل عمل كان بإرادة غير الله مشوباً مغموراً، يجعله الله عز وجل يوم القيامة هباءً منثوراً.

فالأمر ليس بكثرة الاجتهاد وحده، ولكن بالتوفيق من الله عز وجل واقتصادٌ في سبيلٍ وسنةٍ خير من اجتهاد في غير سبيل وبدعة.

فنسأل الله تعالى أن يوفقنا لطاعته والله المستعان.

الخاطرة السادسة والثلاثون

إذا قصَّرَ العبد في العمل ابتلاه الله بالهم

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]

إذا شغل الناس عن طاعة الله عز وجل، وقصروا في طاعته وعبادته فتحت عليهم أبواب الهموم والمشاغل، والمشاكل، التي تستوعب الأوقات التي بخلوا ببذلها في سبيل الله عز وجل، والجهود التي كان ينبغي أن تبذل في طاعته، والأموال التي لم تبذل في سبيله، فإذا فرحوا بما فتح لهم من زينة الدنيا ومشاغلها، وبعدوا عن ذكر الله عز وجل وطاعته أتاهم عذاب الله عز وجل بغتة فإذا هم مبلسون.

والعكس بالعكس فمن جعل همه واحدا وهو طاعة الله عز وجل، وطلب رضاه في الآخرة، كفاه الله سائر همومه، ويسر له أموره، ورزقه من حيث لا يحتسب، كما ورد عن ابن مسعود مرفوعاً وموقوفاً: [من جعل همومه هماً واحداً، كفاه الله سائر همومه، ومن تشعبت به الهموم دون أحوال الدنيا، لم يبال الله في أي أوديتها هلك].

وقال بعضهم: من شغله أمر دينه كفاه الله أمر دنياه، ومن أحسن سريرته أحسن الله علانيه، ومن أحسن ما بينه وبين الله أحسن الله ما بينه وبين الناس.

فهؤلاء العلماء الذين ملأوا الدنيا علماً، وعبادة وطاعة لله عز وجل،

لما كان جهدهم لله عز وجل، ووقتهم لله عز وجل سهل الله عز وجل لهم أمور معاشهم، ورزقهم من حيث لا يحتسبون.

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢-٣]

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤]

وقالوا كذلك: إذا قصر العبد في العمل سلبه الله من يؤنسه أي من العقوبات التي يبتلى بها العبد إذا قصر في طاعة الله عز وجل، أن يحرم من يأنس به، ويستريح برؤيته من إخوانه في الله عز وجل أو أقاربه أو زوجته أو أولاده.

وما نقص مالٌ من صدقة فمهما تصدق العبد من وقته وجهده وماله، يبارك له في عمره وماله، والله المستعان.

الخاطرة السابعة والثلاثون

أي قدرة وعزة في قول الله عز وجل

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩]

وقد ذكر المفسرون أن الذي جرى له ذلك نبي الله عزير، ولم يقل أنَّى يحيي هذه الله بعد موتها شكاً في قدرة الله عز وجل على إحياء الموتى، ولكن تعجباً من قدرة الله عز وجل، كما قال إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والتسليم ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]

فعزير عليه السلام لما قال ذلك بلسان الحال أو المقال أماته الله مائة عام ثم بعثه، ليريه كمال قدرته وعزته، وأن ذلك شيء هين على الله عز وجل، بل إماتة الخلق جميعاً وبعثهم مثل إماتة نفسٍ واحدة وإحياءها قال تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]

وأدلة البعث في القرآن ثلاثة فالله تعالى كما يحيي الأرض الميتة بالغيث الهتال الوابل، كذلك يحيي الموتى.

والدليل الثاني يبين الله عز وجل أن الذي خلق في المرة الأولى لاشك قادر على الخلق في المرة الثانية.

والثالث: أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس لو كانوا يعلمون، كما بين الله عز وجل في كتابه قصص من أماتهم ثم أحياهم: كالسبعين الذين اصطفاهم موسى من قومه حتى يتوبوا إلى الله من عبادة العجل فأخذتهم الرجفة، فشفع فيهم موسى عليه السلام فأحياهم الله عز وجل، وكذلك القتيل من بني إسرائيل الذي ضرب به جزء من البقرة فأحياه الله عز وجل، وأخبر عن قاتله، وكذلك الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم.

ولم تقتصر قصة عزير عليه السلام على إماتته ثم إحياءه بعد مائة سنة، بل أبقى الله عز وجل طعامه فلم يتغير مع هذه المدة المتطاولة، وأمات الله عز وجل حماره وبعث حماره بعد أن أحياه فرأى عظام حماره وهي يتركب بعضها على بعض حتى اكتمل الهيكل العظمي، ثم كساه الله عز وجل لحماً، فرأى عزير عليه السلام آية من آيات الله كما رأى إبراهيم عليه السلام الطير التي قطع أجزاءها وخلطها وجعل على كل جبل منهن جزاء، فرأى كل جنس من الطير تجتمع وتبعث مرة ثانية والله عزيز حكيم.

وإذا لم يكن من جرى له ذلك نبياً من الأنبياء، فلاشك في أنه يكون من الأولياء لأن الأولياء هم الذين تجرى على أيديهم الكرامات، وهي الخوارق الرحمانية، كما حدث لأصحاب الكهف فلو كان قوله: ﴿**أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾ على سبيل الشك أو الكفر، لما جرت على يديه هذه الكرامة أو المعجزة، وقال بعدها ﴿**أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [البقرة:٢٥٩] والله تعالى أعلى وأعلم وأعز وأكرم.

الخاطرة الثامنة والثلاثون

قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾
[محمد : ٤]

بعض الناس يهوله إرجاف المرجفين، ويظن أن الإسلام لن تقوم له قائمة، لأن أهل الإسلام كلما نهضوا لإعزاز دين الله عز وجل اجتمعت عليهم قوى الشر والشرك فأخمدتهم مرة ثانية، وهذا من سوء الظن بالله عز وجل. وكأن الكافرين بما لديهم من تكنولوجيا يعجزون الله عز وجل، ونسي هؤلاء عاداً وثموداً وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً، وكانت عاد عمالقة، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً فارهين، وقالوا من أشد منا قوة فأرسل الله عز وجل عليهم ريحاً هي أشد منهم قوة، فكانت تحمل الواحد منهم إلى السماء ثم تقذف به على الأرض، فينكسر رأسه، ثم تدخل الريح في جوفه فتسلت ما في جوفه، فصاروا كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية، فهل ترى لهم من باقية.

ولما أراد الله عز وجل أن يهلك القرية التي قتلت مؤمن آل ياسين قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ [يس:٢٨-٢٩]

فما كان يستأهل الأمر أن تنزل جنود من السماء من الملائكة، ولكن أرسل الله عز وجل عليهم جبريل، فصاح فيهم صيحة، قطعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم.

فالله عز وجل قادر على إهلاك الكافرين، ولكن الله عز وجل يبتلي المؤمنين بالكافرين، والكافرين بالمؤمنين ﴿ **وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ** ﴾ [محمد: ٤]

حتى يكون الجهاد والتضحية والاستشهاد من المؤمنين، فيبوئهم الله عز وجل أعلى الدرجات وحتى يجمع الكفار بين الكفر والصد عن سبيل الله فيستحقون الدركات.

فهذه عصا موسى التي ألقاها فإذا هي حية تسعى، وإذا بها تلتهم الحيات والثعابين التي ألقاها السحرة، كان يمكن أن تلتهم فرعون وتريح منه البلاد والعباد، ولكن شاء الله عز وجل أن تتم القصة لحكمة الابتلاء، واستمرار الصراع بين الحق والباطل ﴿ **وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ** ﴾ [محمد: ٤-٦]

فالله عز وجل قادر على إهلاك الكافرين دون جهاد واستشهاد من المؤمنين، كما أنه عز وجل قادر على هداية الناس دون بذل من الدعاة، لأنه يملك قلوب الناس ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا** ﴾ [السجدة: ١٣]

﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا** ﴾ [يونس: ٩٩] ولكن الله عز وجل يحب أن يرى الدعاة وهم يبذلون جهدهم من أجل هداية الناس، فينالون الثواب من الله عز وجل، ولله في خلقه شئون.

الخاطرة التاسعة والثلاثون

من الواجب على المسلم معرفة عبودية الوقت

فالدعوة الإسلامية تمر بمراحل مختلفة، ولكل مرحلة عبودية، والواجب على المسلم أن يعرف عبودية الزمن، حتى تثمر الدعوة ثمارها المرجوة، وحتى يوفق العبد للمشاركة في إعزاز دين الله عز وجل، ورفع راية الله عز وجل.

فلا يتحرك بالعواطف الهوجاء التي لا يضبطها العلم بالشرع، ومعرفة الواقع، فحيث كان الصحابة الكرام مستضعفين بمكة ليست لهم دولة ولا شوكة نزل قول الله عز وجل: ﴿**قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ**﴾[الجاثية:١٤] أي يتحملوا الأذى منهم، ويعفوا ويصفحوا عنهم حتى يقبلوا دعوة الإسلام، ويرغبوا في متابعة النبي ﷺ وقال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**﴾[النساء:٧٧]

فكانت العبودية في هذه المرحلة إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وتحمل أذى الكفار، والصفح عنهم بالإضافة إلى الاجتهاد في نشر الدعوة بعد نزول قول الله عز وجل: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ**﴾[الحجر:٩٤-٩٥]

ثم لما بايع الأنصار الكرام رسول الله ﷺ على أن يحموه مما يحمون منه أزرهم أي نساءهم وأولادهم إذا هاجر إليهم بالمدينة وأمر النبي ﷺ الصحابة الكرام بالهجرة لتأسيس الدولة الإسلامية بالمدينة فكانت

العبودية في ترك الديار والأوطان ومفارقة الأهل والعشيرة، لإعزار دين الله عز وجل، ورفع راية الله عز وجل.

ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة، وتأسست دولة الإسلام، وصار للمسلمين دولة وشوكة، وشرع الجهاد والجلاد صارت العبودية في الجهاد والجلاد، وإزهاق أنفس الكفار وإراقة دمائهم، ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم أوفياء لدينهم، مخلصين لربهم عز وجل، ومحبين لرسولهم ﷺ ، كفوا أيديهم حين أمروا بكف الأيدي، وهاجروا حين أمروا بالهجرة، وجاهدوا حين أمروا بالجهاد وقامت دولة الإسلام بعد ثلاثة عشر عاما من بداية البعثة، وما فارق النبي ﷺ الدنيا حتى عَمَّ الإسلام جزيرة العرب، وجاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجا، ثم فتح الصحابة والتابعون لهم بإحسان البلاد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، حتى دق المسلمون أبواب فِيِنَّا في أوربا، ووصلوا إلى حدود الصين في آسيا، وحتى وقف الفارس المسلم على شاطئ الأطلنطي، وقال: والله يا بحر لو أعلم أن وراءك أرض تفتح في سبيل الله لخضتك بفرسي هذا.

وقال هارون الرشيد للسحابة في السماء: أمطري حيث تشائين فسوف يأتيني خراجك.

حتى تثمر الدعوة ثمرتها المرجوة في أقصر وقت، وحتى لا تضيع الجهود وتبذل الأوقات، وتزهق الأرواح، من أجل مصالح متوهمة فينبغي على المسلم معرفة عبودية الوقت، والله الموفق للطاعات.

الخاطرة الأربعون

ليس كل من شهد شهادة الحق يجد حلاوة الإيمان

وإنما يجد حلاوة الإيمان من أينعت شجرة الإيمان في قلبه، فأكثر المسلمين اليوم ما ذاقوا حلاوة الإيمان، فإن العبد لا يذوق حلاوة الإيمان بمجرد إسلامه، ولا يذوق حلاوة الإيمان إلا من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، وقال النبي ﷺ : [ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيْه وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَان : أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْه مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَه أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ][1].

فمن تحقق بهذا الوصف ذاق حلاوة الإيمان، وحب الله عز وجل ورسوله ﷺ يستلزم الرضا بقضاء الله عز وجل وقدره، والرضا بأمره ونهيه.

فمهما قضى الله عز وجل مما تكرهه النفوس فهو راض، ومهما أمره الله عز وجل فهو ممتثل، مع المحبة والتسليم والفرح، ويكون الولاء والبراء على مقتضى هذا الحب، وهذا الدين، فلا يحب إلا لله ولا يبغض إلا في الله، فلا يحب الكافر والمبتدع والفاسق، ويكون حبه لأخيه بمقدار ما عند أخيه من طاعة وخير وبغضه كذلك، فبغضه للكافر أكثر من بغضه للمبتدع، وبغضه للمبتدع أكثر من بغضه للفاسق، ويكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار، لأن العود إلى الكفر إلقاء في النار، فالكفار ليس لهم في الآخرة إلا النار، نعود بالله من حال أهل البوار.

---

(١) سبق تخريجه.

وإنما افتتن أكثر الناس بطرائق الكفار وهديهم لأنهم ماذاقوا حلاوة الإيمان، فهم يظنون أن الدنيا ليس فيها إلا لذات المعاصي البهيمية قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد:١٢]

ولو ذاق المسلمون حلاوة الإيمان، لأعرضوا عن زيف الدنيا الزائل وشهواتها الدنيئة ورغبوا في حلاوة الإيمان، والنعيم المقيم في جوار رب العالمين(١).

ومن ذاق حلاوة الإيمان، ومحبة الرحمن عز وجل فإنه يشتغل بما يزيد حلاوة الإيمان في قلبه، ويعرض عن زينة الدنيا وشهواتها الدنيئة.

قال مالك بن دينار: ما تلذذ المتلذذون بمثل ذكر الله عز وجل.

وقال شيخ الإسلام: إن في الدنيا جنة، من لم يدخلها لن يدخل جنة الآخرة.

وكان يقول: أنا جنتي معي، بستاني في صدري، إن سجني خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، وتعذيبي جهاد في سبيل الله.

فالعاقل هو الذي يتعهد شجرة الإيمان في قلبه، فيرويها بالطاعات حتى تتفرع فروعها في أرجاء قلبه، وحتى تثمر الثمرات اليانعة الطيبة، فإذا طابت الثمرة، وجد عندها حلاوة الإيمان، ومن ذاق عرف، ومن عرف اغترف. فنسأل الله تعالى أن يوقفنا لمزيد من الطاعة والعمل الصالح، والرضا به عز وجل رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً.

---

(١) بتصرف من مقدمة (تحذير الداني والقاصي من عقوبات الذنوب والمعاصي) صـ(٤، ٥) للمصنف ط، دار العقيدة للتراث.

الخاطرة الواحدة والأربعون

إذا أراد الله بعبد خيراً فتح له باب العمل، وأغلق عنه باب الجدل وإذا أراد بعبد شراً أغلق عنه باب العمل، وفتح له باب الجدل

فمما أنكره أئمة السلف كثرة الخصام والجدال والمراء في مسائل الحلال والحرام، ولم يكن ذلك طريقة السلف رضي الله عنهم.

قال الإمام مالك: أدركت أهل هذه البلدة وإنهم ليكرهون هذا الإكثار الذي فيه الناس اليوم - يريد المسائل - وكان يعيب كثرة الكلام والفتيا.

روى البخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: [إنَّ اللهَ حَرَّمَ عليكم عقوق الأمهات، ومنعاً وهات، ووأد البنات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال].

وروى مسلم في مقدمة الصحيح: [كَفَى بِالمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ].

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: فما سكت من سكت عن كثرة الخصام والجدال من سلف الأمة جهلاً ولا عجزاً، ولكن سكتوا عن علم وخشية لله عز وجل، وما تكلم من تكلم، وتوسع من توسع بعدهم، لاختصاصه بعلم دونهم ولكن حُبّاً للكلام وقلة ورع، كما قال الحسن وسمع قوما يتجادلون، هؤلاء قوم مَلوُّا العبادة، وخَفَّ عليهم القول، وقلَّ ورعهم فتكلموا.

قال: وقد فتن كثير من المتأخرين بهذا، فظنوا أن من كثر كلامه وجداله وخصامه في مسائل الدين فهو أعلم ممن ليس كذلك، وهذا جهل محضٌ وانظر إلى أكابر الصحابة وعلمائهم كأبي بكر وعمر وعلي ومعاذ وابن مسعود وزيد بن ثابت، وكيف كان كلامهم أقل من كلام ابن عباس، وهم أعلم منه، وكذلك كلام التابعين أكثر من كلام الصحابة، والصحابة أعلم منهم، وكذلك تابعوا التابعين كلامهم أكثر من كلام التابعين، والتابعون أعلم منهم فليس العلم بكثرة الرواية، ولا بكثرة المقال، ولكنه نور يقذف في القلب، يفهم به العبد الحق ويميز به بينه وبين الباطل، ويعبر عن ذلك بعبارات وجيزة محصلة للمقاصد.

وقد كان النبي ﷺ أوتي جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصاراً. ولما كان العلم هذا النور في القلب والتعبير عنه بألفاظ قليلة محصلة للفوائد، كان كلام السلف قليلاً كثير البركة والنفع، وكلام الخلف كثير قليل البركة، لأن السلف أعلم وأحكم ممن جاء بعدهم، وكلما اقتفى المسلم آثارهم ونهل من علمهم نال من بركة العلم النافع، والعمل الصالح، والله الموفق للجميع لما يحب ويرضى.

الخاطرة الثانية والأربعون

كيف تنهض الأمة من كبوتها، وتعود إلى سالف عزتها وكرامتها

لا بد من تشخيص الداء الذي أصاب الأمة، فكان سبباً في ذلها وهوانها فإذا وقفنا على أصل الداء أمكننا تحديد الدواء، وبيان السبيل للتخلص من هذا الداء، والنبي ﷺ الذي ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى أخبر عن هذا الداء الذي أصاب الأمة اليوم كأنه يراه ويعاصره، وبين سببه قبل أربعة عشر قرناً من الزمان فقال ﷺ: [يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: مِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ المَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ فِي قُلُوبِكُمُ الوَهَنَ، فَقَالَ قَائِلٌ وَمَا الوَهَنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ المَوْتِ][1].

فالداء الذي أصاب الأمة فهزَّ كيانها، وضعضع قوتها، هو حب الدنيا والرغبة في زينتها وشهواتها، وكراهية الموت، وليس المراد بالموت جنس الموت الذي كتب على سائر الخلق، فقد قال الصحابة للنبي ﷺ: إِنَّا لَنَكْرَهُ المَوْتَ[2] فما أنكر عليهم ذلك، ولكن المراد والله أعلم

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٧٦) الملاحم، وأحمد (٥ / ٢٧٨) وأبو نعيم في الحلية (١ / ١٨٢)، وصححه الألباني في السلسلة (٩٥٨)، والتداعي هو الاجتماع ودعاء البعض بعضاً، والمراد من الأمم فرق الكفر والضلالة، والأكلةُ: جمع آكل، والغثاء ما يلقيه السيل من زبد ووسخ شبههم به لقلة شجاعتهم ودناءة قدرهم. قوله: « الوهن »، قال الطيبي: سؤال عن نوع الوهن أو كأنه أراد من أي وجه يكون ذلك الوهن قال: « حب الدنيا وكراهية الموت » وهما متلازمان فكأنهما شيءٌ واحد يدعوهم إلى إعطاء الدنية في الدين من العدو المبين ونسأل الله العافية. عون المعبود هامش (١١ / ٤٠٤-٤٠٥).

(٢) رواه البخاري (١١ / ٣٦٤-٣٦٥) الرقاق.

كراهية الموت في سبيل الله عز وجل أي الشهادة في سبيله، كما كان خالد بن الوليد ﷺ يقول للروم: أتيتكم بقوم يحبون الموت، كما تحبون الحياة.

وقال النبي ﷺ في التحذير مما وصلت إليه الأمة اليوم: [إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالعِيْنَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ البَقَرِ، وَرَضِيْتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الجِهَادَ، سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلاً، لا يَنْزِعُهُ عَنْكُمْ حَتَّى تُرَاجِعُوا دِيْنَكُمْ][1].

فلما تركت الأمة الجهاد والرغبة في الاستشهاد، صارت في ذيل الأمم، وتسلط عليهم أعداء الإسلام في كل مكان، ولما كانت الأمة في عصورها الأولى تعمل بدين الله عز وجل، وتحكم شرع الله، وتجاهد في سبيله، عاشت عزيزة الجانب، راسخة الأركان، قوية البنيان تهابها كل الشعوب، فنسأل الله تعالى أن يرفع علم الجهاد، وأن يقمع أهل الزيغ والعناد.

فليس معنى أن الأمة غير مؤهله الآن للجهاد أن تخلو قلوب المسلمين من محبة الجهاد، والرغبة في الاستشهاد، فقد قال النبي ﷺ: [مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ][2].

فينبغي أن يتربى الشباب المسلم على محبة الجهاد وطلب الدرجات العالية في الجنة بالاستشهاد قال النبي ﷺ: [لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سِتُّ خِصَالٍ: يَغْفِرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دُفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُحَلَّى حُلَّةَ الإِيمَانِ، وَيُزَوَّجُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ إِنْسَاناً مِنْ أَقَارِبِهِ][3].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه مسلم (١٣/ ٥٦) الإمارة، وأبو داود (٢٤٨٥ عون) الجهاد، والنسائي (٦/ ٨) الجهاد.

(٣) رواه الترمذي (٧/ ١٦١ عارضة) فضائل الجهاد، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وابن ماجه (٢٧٩٩)، وأحمد (٤/ ١٣١)، وصححه الألباني.

الخاطرة الثالثة والأربعون

من هم الغرباء الذين عناهم النبي ﷺ في قوله: [بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيباً، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيباً، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ][1]

في رواية في غير الصحيح: قيل يا رسول الله ومن الغرباء قال: [النُّزَّاعُ من القبائل] أي من القبيلة الرجل والرجلين.

وفي رواية قيل: ومن هم يا رسول الله قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس

وفي رواية قال: [الذين يفرون بدينهم من الفتن].

وفي رواية قال: [الذين يُصْلِحون ما أفسد الناس بعدي من سنتي]

وفي رواية: [قوم صالحون قليل في ناس سوءٍ كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم].

وهؤلاء الغرباء الذين بشرهم النبي ﷺ، وبين صفتهم هم الفرقة الناجية التي قال عناها النبي ﷺ بقوله: [وستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة كلهم في النار إلا واحدة قالوا: من هم يا رسول الله ﷺ. قال: [هم الجماعة] ولاشك في أن المراد بالجماعة الصحابة قبل أن تظهر البدع، ومن كان على شاكلتهم كما بين في الرواية الأخرى: [هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي][2].

والغرباء كذلك هم الطائفة الظاهرة التي بشر بها رسول الله ﷺ

(١) رواه مسلم (١٤٦).
(٢) سبق تخريجه.

بقـوله: [لاَ تَزَالُ طَائِفَـةٌ مِنْ أُمَّـتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ لاَ يَضُـرُّهُـمْ مَنْ خَـذَلَهُـمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ](1) . فـالغـرباء هم أهل السنة والجماعة كما دل على ذلك أقوال السلف ﷺ .

قال الأوزاعي في قولهﷺ : [بَدَأَ الإِسْلاَمُ غَرِيباً، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيباً] أما إنه لا يذهب الإسلام، ولكن يذهب أهل السنة والجماعة، حتى لا يبقى في البلد منهم إلا الرجل الواحد.

فالمسلمون كثير وهم أمة المليار كما يقولون، ولكن أكثرهم وقع في فتنة الشبهات أو الشهوات، ومنهم العلمانيون والشيوعيون، والشيعيون، والصوفيون وغيرهم، والذين حافظوا على عقيدة السلف ومنهج السلف، ونجوا من فتنة الشبهات والشهوات هم الغرباء، وهم أهل السنة والجماعة، وهم الفرقة الناجية، والطائفة الظاهرة.

كان الحسن البصري رحمه الله يقول لأصحابه: يا أهل السنة ترفقوا رحمكم الله، فإنكم من أقل الناس.

وكان يقول: السنة والذي لا إله إلا هو بين الغالي والجافي، فاصبروا عليها رحمكم الله، فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقى، الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم فكذلك إن شاء الله فكونوا.

وقال سفيان الثوري: استوصوا بأهل السنة خيراً فإنهم غرباء.

وقال يونس بن عبيد: ليس شيء أغرب من السنة وأغرب منها من يعرفها.

---

(١) رواه البخاري (١٣/٣٠٦) الاعتصام بالكتاب والسنة، ومسلم (١٣/٩٧) الزكاة.

ومـراد هؤلاء الأئمـة بالسنة، طريقـة النبي ﷺ التي كـان هو ﷺ وأصحابه عليها، السالمة من الشبهات والشهوات، ولهذا كان الفضيل ابن عـيـاض يقـول: أهـل السنة مـن عـرف مـا يـدخل بطنه مـن حـلال، وذلك لأن أكل الحلال من أعظم خـصـال السنة التي كـان عليـهـا ﷺ وأصحابه ﷺ.

وهؤلاء الغرباء قسمان: أحدهما من يصلح نفسه عند فساد الناس.

والثاني: من يصلح ما أفسد الناس من السنة، وهو أعلى القسمين وأفضلهما.

وأشـار إلى القـسم الأول قـوله ﷺ في وصف الغـرباء: [الذين يصلحون إذا فسد الناس].

وأشار إلى القسم الثاني قوله ﷺ: [الذين يصلحون ما أفسد الناس بعدي من سنتي].

الخاطرة الرابعة والأربعون

قوله تعالى:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

[النحل: ١٢٠-١٢٣]

كلما ذكر الله عز وجل إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم، أثنى عليه بالأوصاف العالية الجميلة، كما في هذه الآيات الكريمة فيصفه الله عز وجل بأنه كان أُمَّةً قيل: إماماً وقدوة، وقيل تجمعت في إبراهيم عليه السلام كمالات لا توجد إلا في أمة كاملة، ومن أعظم ما أعطى الله عز وجل إبراهيم الخليل أن أمر الله عز وجل سيد الأولين والآخرين وخاتم الأنبياء والمرسلين أن يتبع ملة إبراهيم كما قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] وبين الله عز وجل أن كل الطوائف تتشرف بنسبة إبراهيم عليه السلام إليها، فتقول اليهود كان إبراهيم يهودياً، وتقول النصارى كان إبراهيم نصرانياً ورد الله عز وجل عليهم بقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا

نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٨]

فإذا قرأت قصة إبراهيم عليه السلام علمت سبب هذا الثناء العظيم من الله الجليل على إبراهيم الخليل، فهو إبراهيم الخليل الذي كسر الأصنام بيده وهو فتى كما قال تعالى: ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ [الأنبياء: ٦٠] ثم ألقي على أثر ذلك في النار، وجعلها الله عز وجل عليه برداً وسلاماً، ثم هو إبراهيم الخليل الذي بنى الكعبة المشرفة هو وولده إسماعيل عليهما السلام وقال ابن كثير: ولم يرد في خبر صحيح عن معصوم أن الكعبة كانت موجودة قبل إبراهيم، ثم هو إبراهيم الخليل الذي أمره الله بذبح ولده إسماعيل، الذي أتاه على كبر، ولما بلغ معه السعي وصار ملء السمع والبصر قال: ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ [الصافات: ١٠٢] هو إبراهيم الذي أراه الله عز وجل ملكوت السماوات والأرض ليكون من الموقنين، هو إبراهيم الذي آتاه الله الحجه فأقام الحجة على الملك الكافر الذي ادعى الربوبية، وأقام الحجة على قومه من عبدة الأصنام، ومن عبدة النجوم والكواكب، هو إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء وإمام الحنفاء، ما بعث الله عز وجل نبياً بعد إبراهيم إلا وهو من ذريته كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ [العنكبوت: ٢٧] فإذا قرأت قصة إبراهيم زال تعجبك من كثرة ثناء الله عز وجل عليه، وامتلأ قلبك بحبه، وقد رآه النبي ﷺ في الإسراء والمعراج في السماء السابعة مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، فهو أفضل الأنبياء بعد نبينا محمد ﷺ، وأقرب الناس شبهاً به نبينا محمد ﷺ

الخاطرة الخامسة والأربعون

كلما أكثر العبد من الشهوات كلما أخلد إلى الأرض، وضاق صدره وكلما قلل من الشهوات، وأكثر من الطاعات كلما حلّق في السماء واتسع قلبه

هذه حادثة من الحوادث التي شغلت الرأي العام عدة أيام، وسودت أخبارها صفحات الجرائد والمجلات، رجل المال والأعمال تزوج ممثلة مشهورة وبعد شهرين من زواجه قتل زوجته، ومدير مكتبه وزوجته، ثم أطلق النار على نفسه، فقتل ثلاثة أنفس، ثم انتحر، فأى ضيق وصل إليه، وأي ضنك وشقاء تعرض له، حتى أقدم على هذه الجرائم المتتابعة، نسأل الله تعالى حسن الخاتمة، وكذا الناظر في البلاد الإسكندنافية التي هى من أكثر المجتمعات رفاهية، وهي أعلى البلاد في نسبة دخل الفرد، وكذا هي أكثر البلاد إباحية، ومع ذلك نسبة الانتحار في هذه البلدان أكبر نسبة في العالم، فالإنسان جسد وروح، والجسد من طين الأرض، والروح علوية سماوية، فكلما نال الجسد من شهوات كلما أخلد إلى الأرض، وكلما غذيت الروح برغائب الإيمان، وطاعة الرحمن كلما ارتفعت عن الأرض وحلقت في أجواء الإيمان، كما قال بعض العباد: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من نعمة لجالدونا عليها بالسيوف.

وقال بعضهم: ما بقي من لذات الدنيا إلا ثلاث: قيام الليل، ولقاء الإخوان، وصلاة الجماعة.

والقلب فيه فقر وحاجة واضطرار إلى الله عز وجل، فمهما نال العبد من شهوات الدنيا ولم يعرف ربه عز وجل، ولم يتعلق بالله عز وجل فهو في ضنك وشقاء، والانتحار أول دليل على الشقاء لأن من يقدم على الانتحار يتصور أنه لا يمكن أن يكون هناك شقاء أكثر مما هو فيه، نسأل الله العافية: ﴿ **أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ [الزمر:٢٢]

وقال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد:٢٨]

ولما كانت الشهوات تعارض الرقي الإيماني والتحليق في أجواء الإيمان كان الجماع أعظم محظورات الحج، لأنه رحلة بالبدن إلى بيت الله، وبالقلب إلى الله عز وجل، كذلك الاعتكاف وهو قطع العلائق عن الخلائق، والتفرغ لطاعة الخالق عز وجل قال تعالى: ﴿ **وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ** ﴾ [البقرة:١٨٧] والصيام كذلك إمساك عن الطعام والشراب والنكاح من الفجر إلى غروب الشمس. فكلما ابتعد عن الشهوات كلما ارتقى في أجواء الإيمان.

وكلما تفرغ القلب لحب الله عز وجل وطاعته، وعزف عن شهوات الدنيا تنزل الموائد الإلهية، والمنح الربانية، لذا كان النبي ﷺ يواصل وينهى عن الوصال، فيقولون: إنك تواصل فيقول: [إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي أَبِيتُ لِي مُطْعِمٌ يُطْعِمُنِي وَسَاق يَسْقِين](١).

---

(١) رواه البخاري (٤/ ٢٣٨) الصوم.

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الطعام وتلهيها عن الزاد

فكلما أكثر العبد من الشهوات كلما ارتبط بالأرض، وكلما ارتبط بالأرض ضاق صدره، وكلما قلل من الشهوات، وأكثر من الطاعات كلما حَلَّق في السماء، وكلما حلق في السماء انشرح صدره ووجد حلاوة الإيمان.

الخاطرة السادسة والأربعون

التعظيم والتحقير أمر نسبي يختلف باختلاف الأحوال والأفراد

كلما ازداد العبد تقوى لله عز وجل يزداد تعظيمه لشعائر الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج: ٣٢] وإذا عظم العبد شعائر الله إهتم بإقامتها بواجباتها ونوافلها، وإذا عظم حرمات الله عز وجل تورع عن الوقوع فيها ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ [الحج: ٣٠]

وفي الصحيح عن أنس رضي الله عنه قال: [إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالاً هِي أَدَقُّ فِي أَعْيِنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ، إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ المُوبِقَاتِ](١) أي من المهلكات.

وأنس رضي الله عنه لا يخاطبنا بذلك في ذيل الزمان، وأنما يخاطب الجيل المفضل الثاني، جيل التابعين، وقد كان في التابعين ثلاثين تابعياً لو قيل لأحدهم: القيامة غداً، ما استطاع أن يزيد شيئاً.

فما هو أدق من الشعر في أعين التابعين، كان من الموبقات عند الصحابة رضي الله عنهم لمزيد تقواهم لله عز وجل، وارتفاع أحوالهم الإيمانية والواجب على المسلم تعظيم طاعة الله عز وجل، كما قال النبي ﷺ: [لا تحقرن من المعروف شيئاً] حتى لا يزهد المسلم في المعروف ولو أن يتصدق بشق تمرة، كما قال النبي ﷺ: [اتقوا النار ولو بشق تمرة] فقد يحتاج المسلم لثواب التصدق بشق تمرة حتى ينجو من النار، ويدخل جنة العزيز الغفار.

(١) رواه البخاري (١١ / ٣٣٧) الرقاق.

كما أن من الواجب على المسلم كذلك تعظيم الذنوب والمعاصي حتى يتورع عنها ويبادر بالتوبة منها.

ففي صحيح البخاري عن ابن مسعود موقوفاً: [إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يوشك أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا، فطار].

فالمؤمن يعظم حرمات الله فيرى ذنوبه كأنه في أصل جبل، وإنما قال جبلاً، حتى لا يكون هناك أدنى احتمال للنجاة، بخلاف من تسقط عليه شجرة، أو مبنى هناك احتمال للنجاة.

فالتعظيم والتحقير أمر نسبى، فالصحابه مع أنهم أبر الأمة قلوباً، وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً، لَمَّا تناقلوا حديث الإفك عاتبهم الله عز وجل بقوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾[النور: ١٥]

فمقياس التحقير والتعظيم نسبي، ولكن كلما ازداد إيمان العبد يزداد تعظيماً لحرمات الله، ولشعائر الله عز وجل.

وكما ينبغي على المؤمن أن يعظم حرمات الله حتى لا يستهين بها وينتهكها، كذلك ينبغي عليه أن يعظم طاعة الله عز وجل، فلا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلق أخاك بوجهٍ طلق والله الموفق.

الخاطرة السابعة والأربعون

أكثر فساد القلب من تخليط العين

قال ابن الجوزي: أكثر فساد القلب، من تخليط العين، ما دام باب العين موثقاً بالغض، فالقلب سليم من آفة، فإذا فتح الباب، طار طائرٌ وربما لم يعد.

يا متصرفين في إطلاق الأبصار، جاء توقيع العزل: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]

إطلاق البصر ينقش في القلب صورة المنظور.

والقلب كعبة المحبة، وما يرضى المعبود بمزاحمة الأصنام أ.هـ

أمر الله عز وجل بغض البصر، وقرنه بحفظ الفرج، لأن العين رائد القلب كما قال بعضهم:

ألم تر أن العين للقلب رائدُ ... فما تألف العينان فالقلب آلف

فإذا فسدت العين فسد القلب، لأنه يكون مشغولاً بما يرد عليه من صور محرمة، فالنظرة سهم مسموم، وهذا السهم يصيب الناظر نفسه.

كما قال بعضهم:

يا راميا بسهام اللحظ مجتهدا ... أنت القتيل بما ترمى فلا تصب

فالناظر يرمي بسهام غرضها قلبه: كما قال بعضهم:

ما زلت تتبع نظرة في نظرة ... في إثر كل مليحة وملح

وتظن ذاك دواء جرحك ... وهو في التحقيق تجريح على تجريح

فذبحت قلبك باللحاظ وبالبكا ... فالقلب منك ذبيح أي ذبيح

والضرر لا يقتصر على الجرح الذي يحصل في القلب بالنظرة المحرمة، ولكن الشيطان يدخل خلف السهم المسموم أسرع من دخول الهواء إلى المكان الخالي من أجل أن يزين صورة المنظور إليه، ويجعلها صنماً يعكف عليه القلب، فكيف يصلح القلب لمحبة الرب عز وجل ثم كيف يصلح هذا القلب الذي تنقش فيه الصور المحرمة كل فترة وجيزة، لطلب العلم النافع والعمل الصالح.

فإطلاق البصر يشتت القلب، ويحزنه، ويضعفه عن السير إلى الله عز وجل، وقد يوقع القلب في أسر الهوى، فيصير صاحبه من أشقى الناس كما قال بعضهم:

وما في الأرض أشقى من محبٍ … وإن وجد الهوى حلو المذاقِ
تراه باكياً في كُلِّ حالٍ … مخافة فرقة أو لاشتياقِ
فيبكي إن نأوا شوقاً إليهم … ويبكي إن دنوا حذر الفراقِ
فتسخن عينه عند التلاقي … وتسخن عينه عند الفراقِ

كما أن إطلاقه ينافي المروءة، فهذا عنترة بن شداد من شعراء العصر الجاهلي، لم يتشرف بالإسلام، ولم يسمع قول الله عز وجل ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**﴾ [النور: ٣٠]

وهو يبين مروءته فيقول:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي … حتى يواري جارتي مأواها

ويتأكد حرص المؤمن على عبادة غض البصر، كلما ازداد تبرج النساء، وذهب من قاموسهم معنى الحياء.

قال ابن القيم رحمه الله : إذا عرضت نظرة لا تحل، فاعلم أنها مسعر حرب، فاستتر منها بحجاب : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ، فقد سلمت من الأثر، وكفى الله المؤمنين القتال .

الخاطرة الثامنة والأربعون

شرع الله عز وجل هو الروح وهو النور

قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى:٥٢]

وقال تعالى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٢]

فإذا كان الشرع هو الروح والنور، فالذي يعرض عن شرع الله عز وجل وعن الاهتداء به ميت القلب مظلمه، فهو ميت يمشي على الأرض، لأن الحياة التي ينشؤها الشرع ليست حياة البهائم، ولكنها الحياة الطيبة التي يسعد فيها العبد بربه عز وجل، وتبقى له الحياة التي يشترك فيها مع البهائم كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد:١٢] فهو يأكل ليعيش، ويعيش ليأكل، لا يعرف ربه عز وجل، ولا يعبده بأمره ونهيه، والجزاء من جنس العمل، فكما أنه أعرض عن أسباب الحياة الطيبة بشرع الله عز وجل وطاعته، وصار يتمتع بنعم الله عز وجل، ويعصي بها ربه عز وجل كان جزاؤه في الآخرة النار، لا يموت فيها ولا يحيى، لا يموت فيفقد الإحساس بالألم، ولا يحيا حياة يجد فيها راحته، وسعادته ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ [إبراهيم:١٧]

أي تأتيه أسباب الموت من البلايا والرزايا، وما هو بميت **﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾** [إبراهيم:١٧] أي وأمامه عذاب غليظ، كما قال تعالى: **﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾** [المؤمنون:١٠٠] وقال تعالى: **﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾** [الزخرف:٧٧] وحسب المنايا أن يصرن أمانيا، أي حسب العبد من البلايا والرزايا أن يكون الموت أمنيته. قال بعض السلف: إحذر الموت وأنت في هذه الدار، قبل أن تصل إلى دارٍ، تتمنى فيها الموت فلا تجده.

وإذا كان شرع الله عز وجل هو الروح الذي به الحياة، والنور الذي به الهداية، فكلما التزم العبد بشرع الله عز وجل تزداد حياة قلبه وهدايته فأكملهم حياة في الدنيا أكثرهم عملاً بشرع الله عز وجل وأتمهم هداية أسعدهم في الدنيا والآخرة، كما يصف ابن القيم شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولقد كان من أطيب الناس عيشاً مع ما كان فيه من شدة العيش وخلاف الرفاهية، كانت نضرة النعيم تلوح على وجهه» كذلك تكون حياة العبد وسعادته في الآخرة بحسب حياته في الدنيا بالله عز وجل وشرعه، فنسأل الله تعالى أن يحيي قلوبنا بالإيمان وطاعة النبي عليه الصلاة والسلام: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾** [الأنفال:٢٤].

الخاطرة التاسعة والأربعون

طبيعة الصراع بين الحق والباطل

سنن الله عز وجل لا تبتدل ولا تتحول ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ [فاطر: ٤٣]

والحرب سجال بين أهل الحق وأهل الباطل ينتصر أهل الحق في جولة من الجولات فتزداد قوتهم وتقوى شوكتهم، ثم يدال عليهم في جولة أخرى فيمحص الله عز وجل قلوبهم، ويتخذ ما يشاء من الشهداء، ولكن العاقبة في الدنيا والآخرة للمتقين كما قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] وقال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢] لما حدثت الهزيمة في جولة أحد، وذهبت الظنون الكاذبة بالمنافقين كل مذهب. عزى الله عز وجل المؤمنين بقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]

فلا يمكن أن تكون أحد هي خاتمة الصراع بين الحق والباطل لأن الجولة الأخيرة والنصر لا بد أن يكون للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] وقال عز وجل: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]

والناظر في قصص جميع الأنبياء وقصص الإيمان في القرآن، وسنة النبي ﷺ يجد أن سنن الله عز وجل لا تتبدل ولا تتغير فلا بد أن تكون الجولة النهائية للمؤمنين، فلا يمكن أن تكون أحد آخر الجولات،

ولا يمكن أن يسلم الله أولياءه لأعدائه فيقضون عليهم قضاءً نهائياً بل لا بد أن تبقى من المؤمنين بقية تكون لها العاقبة والنصر، ومن حارب الحق فهو محروب. ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾[يوسف: ٢١]

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[التوبة: ٣٢]

وقال النبي ﷺ: [إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا] (١).

والمعروف أن الفتوحات الإسلامية الأولى، لم تستوعب المعروف من الأرض في هذا الوقت. قبل أربعة عشر قرنا من الزمان، والأمريكتان واستراليا أكتشفوا منذ مائتي عام أو يزيد قليلاً، وهذا يدل على أن الجولة القادمة للإسلام، وأن انتشار الإسلام في هذه الجولة سيكون أكثر من انتشاره في صدر الإسلام، كما قال النبي ﷺ: [لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرَ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَلاَ يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّين، بِعِزِّ عَزِيْزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيْلٍ، عِزّاً يُعِزُّ اللهُ بِهِ الإِسْلاَمَ، وَذُلاًّ يُذِلُّ بِهِ الكُفْرَ] (٢).

وبيت المدر هو المبني من الحجارة، والوبر من الشعر أو الصوف فنسأل الله تعالى أن يعز الإسلام والمسلمين، وأن يُقرَّ أعيننا بنصره المبين، وفتحه العزيز، والله ولي المؤمنين.

---

(١) رواه مسلم (١٦ / ١٣) الفتن وأشراط الساعة، والترمذي (٩ / ٢٢) الفتن، وأبو داود (٤٢٣٢) الفتن والملاحم.

(٢) رواه أحمد (٤ / ١٠٣)، والحاكم (٤ / ٤٣٠-٤٣١) وقال صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (١٦٣١ موارد)، وصححه الألباني على شرط مسلم في الصحيحة رقم (٣).

الخاطرة الخمسون

الفرق بين تجارات الدنيا، والتجارة مع الله عز وجل

قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠-١١]

وقال النبي ﷺ: [الدُّنْيَا سُوقٌ قَامَ ثُمَّ انْفَضَّ، رَبِحَ فِيهِ مَنْ رَبِحَ، وَخَسِرَ مَنْ خَسِرَ كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَائِعُ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، أَوْ مُوبِقُهَا]

وقال بعضهم:

أخي إنما الدنيا كسوق قد تزينت	أقيم لنا وانفض عمر الفوانيا
وكل امرىءٍ لابد يدخل سوقها	سواء بهذا كارها أم راضيا
ولابد من بيع ولابد من شرىً	ولابد يمشي رابحا أو غاديا
وسلعته الكبرى التي يبيعها	هي النفس لكن من يكون الشاريا
فإن باعها لله أعتقها إذن	وكان له من جمرة النار واقيا
وجنة ربي كانت الثمن الذي	سيقبضه الإنسان فرحان راضيا
وقد ربح البيع الذي تم عقده	وجَلَّ الإله المشتري جَلَّ ربيا

فالدنيا سوق والناس جميعا تجار، والتجارة إما أن تكون مع الله عز وجل أو مع الشيطان، وليس هناك طرف ثالث يساوم على نفس العبد وماله.

والسؤال هل التجارة مع الله عز وجل كسائر التجارات، يمكن لكل أحد أن يتاجر مع الله عز وجل ويربح عليه أعظم الأرباح؟

والجواب أن التجارة مع الله نوع خاص من التجارات، لأن سائر التجارات معاملة بين فقير وفقير، وبين محتاج ومحتاج، فأنت تحتاج إلى السلعة والبائع يحتاج إلى الثمن، أما التجارة مع الله عز وجل فهي معاملة بين العبد الفقير المحتاج، وبين الرب الغني الكريم، فكل أحد يريد معاملتك ببيع، أو شراء، أو مزارعة، أو مضاربة، فإنما يريد أن يربح منك، وينتفع نوع منفعة، والله عز وجل غني كريم يريد منك أن تعامله حتى تربح أنت على الله عز وجل أعظم الأرباح، والله غني عنك وعن معاملتك، قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]

وكما في الحديث القدسي: [يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي][(1)].

فكل أحد من الناس يريدك لنفسه، والله عز وجل يريدك لك.

الفرق الثاني بين تجارات الدنيا والتجاره مع الله عز وجل أن تجارات الدنيا عرضة للمكسب والخسارة أما التجارة مع الله عز وجل فهي في الربح دائماً، لا يمكن أن تخسر بحال من الأحوال. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩]

فلا يمكن بحال من الأحوال أن تخسر التجارة مع الله عز وجل.

الفرق الثالث أن الأرباح في تجارات الدنيا محدودة، لأن الدنيا حقيرة دنيئة، فغاية ما يمكن من الربح أن تربح السلعة مائة بالمائة،

---

(١) رواه مسلم (١٦/ ١٣٢-١٣٣) البر والصلة، والترمذي (٩/ ٣٠٤-٣٠٥ عارضة) صفة القيامة.

الدرهم يربح درهما أو مائتين بالمائة الدرهم يربح درهمين، أما الأرباح في التجارة مع الله عز وجل فهي عظيمة جداً لأن الله عز وجل غنيٌّ كريمٌ، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٦١]

الفرق الرابع أن تجارات الدنيا قد يدخلها الغش، فتكون عند التاجر سلعة معيبة فيدلسها، ويروجها فتروج، أما التجارة مع الله عز وجل فلا يمكن أن يدخلها الغش لأن الله عز وجل عليم خبير.

فكل أحد يمكن أن يتاجر في الدنيا، ويحقق الأرباح العظيمة، أما التجارة مع الله عز وجل فهي تجارة العلماء الذين يعرفون فقه التجارة مع الله عز وجل[1].

---

(١) انظر خطبة «فقه التجارة مع الله عز وجل» في «تحفة الواعظ» للمصنف الجزء الأول.

الخاطرة الواحدة والخمسون

قلّت ذنوبهم فعرفوا من أين أوتوا

ركب محمد بن سيرين الدين فقال: هذا بذنب أذنبته منذ أربعين سنة، قلت لرجل: يا مفلس.

فذكر ذلك لأبي سليمان فقال: قلت ذنوبهم فعرفوا من أين أوتوا، وكثرت ذنوبنا فلم نعرف من أين نؤتى.

كان السلف لقلة ذنوبهم يعدونها.

قال رياح القيسي: لي نيف وأربعون ذنباً، قد استغفرت لكل ذنب مائة ألف مرة.

ما للمذنبين أحد يرجعون إليه إلا الله، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٣٥]

ما يأمل الخطاءون إلا رحمة من أسبل على خطاياهم ذيل الكرم فسترها لولا أن حلمه وسع الخلق لهلكوا.

وفي الصحيحين عن ابن عمر عن النبي ﷺ: [إِنَّ اللَّهَ لَيَدْعُو العَبْدَ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ فَيَقُولُ: أَتَذْكُرُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَذْكُرُ ذَنْبَ كَذَا، فَلاَ يَزَالُ يُقَرِّرُهُ حَتَّى إِذَا رَأَى أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ قَالَ لَهُ: إِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ][1].

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٩٦) المظالم، ومسلم (١٧/ ٨٦-٨٧) التوبة.

إخواني: هب أنه تجاوز عن الزلل، فأين ما يلقاه العاصي عند تقريره بذنوبه من الحياء والخجل.

العارفون يشتد قلقهم من الحياء من الله عند الوقوف بين يديه.

قال بعضهم: ما يمر بي أشد من الحياء من الله عز وجل.

شرع للمؤمن أن يختم أعماله الصالحة بالاستغفار، وذلك لجبر النقص في أداء العمل الصالح كما يحب ربنا ويرضى فشرع للمسلم أن يقول بعد التسليم من المفروضة «استغفر الله» ثلاث مرات وكذا بعد قيام الليل وإذا دخل وقت السحر كما قال تعالى في وصف المحسنين: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٦] وعند الانتهاء من مناسك الحج كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٩٩]

وفي أذكار الصباح الاستغفار مائة مرة وكفارة المجلس أن يقول العبد: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

فعلى العبد أن يجتهد في طاعة العزيز الغفار عز وجل، ثم يجلس بعد ذلك على بساط الذل، يستغفر الله لعل الله عز وجل يقبل طاعته ويثيبه عليها أعظم الثواب.

الخاطرة الثانية والخمسون

أهل السنة والجماعة يزدادون في المدة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال أضعاف ما يناله غيرهم في قرون وأجيال

وذلك لأن اعتقاد الحق الثابت يقوي الإدراك ويصححه قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد:١٧]

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٦٨) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾ [النساء:٦٦-٧٠]

فالعقيدة الصحيحة والفهم السليم للكتاب والسنة لاشك يصلح به القلب، فيصلح فهمه للأمور، واستيعابه وحفظه للحق، واستعداده للترقي في درجات الإيمان، وأحوال الصالحين، كذا يصلح لتعلم العلم النافع والعمل الصالح، ولذا نجد من يلتزم بمنهج السلف وعقيدة السلف تظهر عليه أنوار الطاعة والعبادة في مدة يسيرة، بخلاف من يخالف عقيدة أهل السنة أو يخالف منهج السلف في فهم الكتاب والسنة، تمر عليه الأعوام والمدد المتطاولة وهو على حاله من العلم النافع والأحوال الإيمانية لأن العقيدة الصحيحة والفهم الصحيح هو الإسلام النقي الخالي من البدع والخرافات، والإسلام هو الثوب المفصَّل على هذا

الجسد فالسلفية هي الفهم الصحيح للكتاب والسنة، فمن يلتزم بالمنهج السلفي يقيس الأمور بمقاييس صحيحة، وكذا تشرق أنوار الكتاب والسنة الصحيحة على قلبه، فكيف لا يترقى في درجات القرب والولاية، بالعلم النافع والعمل الصالح، والله تعالى يقول: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ أي من أعظم عوامل الثبات على دين الله أن يلتزم العبد بما أمره الله عز وجل به، ومن أعطى أسباب الفتنة من نفسه أولاً لم ينجو آخرا، وإن كان جاهلاً.

ثم قال عز وجل ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ فمن كان مع هذه الرفقة الطيبة من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين يحبهم ويواليهم ويفهم الكتاب والسنة بفهمهم، فهو معهم كذلك في الآخرة فالمرء مع من أحب ثم قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ﴾ أي الفضل العظيم من الله عز وجل أن يوفق العبد للعمل بطاعة الله عز وجل وطاعة الرسل الكرام وموالاة المؤمنين، ليس الحرص على الدنيا وزينتها وشهواتها ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾ أي بمواقع الخير والفضل، فهذه جوائز متتابعة، وفوائد متنوعة، لمن التزم شرع الله عز وجل، وامتثل ما أمره الله عز وجل به، ولذا نجد الشاب الصغير الذي يلتزم بالمنهج الصحيح، عنده من العلم النافع ومن الالتزام، والأحوال الإيمانية أضعاف ما عند غيره من الكهول والشيوخ، الذين يلتزمون بمناهج تخالف منهج السلف، وهذا واضح لمن استقرأ أحوال الناس، وتفرَّس في وجوههم، والله الموفق.

الخاطرة الثالثة والخمسون
لطف الله عز وجل بأنبيائه وأوليائه

فهذه أمثلة من لطف الله عز وجل بأنبيائه، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود:٤٣] كم كان يتألم قلب نوح عليه السلام بعاطفة الأبوة وللطبيعة البشرية وهو يرى إبنه - وإن كان كافراً - يعاني أمواج المياه كأنها الجبال، ويراه وهو تخرج روحه، بعد أن أبى أن يركب السفينة التي جعلها الله عز وجل وقفاً على المؤمنين، فمن رحمة الله عز وجل بنوح عليه السلام جعل الماء يحول بين نوح وإبنه ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود:٤٣] فالله عز وجل لطيف رحيم بأنبيائه وأولياؤه.

ومن ذلك رؤيا يوسف عليه السلام، عندما رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين، وقص رؤياه على أبيه يعقوب عليهما السلام فكانت هذه الرؤيا تبعث في قلبه الأمل، ويعتقد أن يوسف لم يأكله الذئب كما زعم إخوته، وأنه سيعلوا أمره ويخضع له الجميع، وقال لهم: ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف:٨٧]

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [يوسف:١٥]

ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص:٧]

ومن ذلك ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: [يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لاَ تَعْصِنِي؟ فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لاَ أَعْصِيكَ. فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لاَ تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الكَافِرِينَ. ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ: مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ، فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ][1] والذيخ هو ذكر الضبع.

قال الحافظ: قيل: الحكمة في مسخه، لتنفر نفس إبراهيم، ولئلا يبقى في النار على صورته، فيكون فيه غضاضة على إبراهيم.

وقيل الحكمة في مسخه ضبعاً، أن الضبع من أحمق الحيوان، وآزر كان من أحمق البشر، لأنه بعد أن ظهر له من ولده الآيات البينات أصر على الكفر حتى مات، ولأن إبراهيم بالغ في الخضوع له وخفض الجناح فأبى واستكبر وأصر على الكفر، فعوقب بصفة الذل يوم القيامة[2].

ومن لطف الله عز وجل بأوليائه أن يسوق لهم الخير والرزق، من طرق لطيفة قد لا يتوقعونها، بل قد يكرهونها لأنها في الظاهر بلايا، وفي الواقع عطايا، والله لطيف خبير، وانظر الخاطرة السابقة بعنوان «**كم في البلية من عطية خفية**».

---

(١) رواه البخاري (٦ / ٣٨٧) الأنبياء.

(٢) فتح الباري (٨ / ٥٠٠).

الخاطرة الرابعة والخمسون

اجتهاد السلف في طاعة الله عز وجل

باع الحسن بن صالح – أحد عباد التابعين جارية فقامت في منتصف الليل تقول: الصلاة يا أهل الديار، فقالوا أأصبحنا؟ فقالت لهم: ألا تصلون إلا المكتوبة. فذهبت إلى الحسن وقالت له: بعتني إلى قوم لا يصلون إلا المكتوبة، ردني ردني.

تزوج رياح القيسي امرأة، فأراد أن يختبرها فتناوم في الربع الأول من الليل فقامت، ثم أرادت أن توقظه. فقال: سأقوم، واستمر في نومه.

فقامت الربع الثاني من الليل، وأرادت أن توقظه فقال: سأقوم، فقامت الربع الثالث من الليل، وأرادت أن توقظه فقال: سأقوم، فقالت: يا ليت شعري من غَرَّني بك يا رياح.

سمع أبو حنيفة رحمه الله امرأة تشير إليه وتقول: هذا الرجل يقوم الليل كله: فقال: لا يتحدث الناس أني أقوم الليل كله ولا أفعل، فصار يقوم الليل كله.

كان لقوم جارية فأخرجوها إلى النَّخَّاس[1]، فأقامت أياماً تبكي، ثم بعثت إلى ساداتها تقول: بحرمة الصحبة ردوني، فقد ألفتكم.

---

(١) النخاس: بائع الرقيق.

من تعود طاعة الله عز وجل، وامتلأ قلبه بحبه، فإنه يصبر على الجوع والعطش ولا يصبر على البعد، كما قالت إحدى الصالحات: تعودوا حُبَّ الله وطاعته، فإن المتقين ألفوا بالطاعة فاستوحشت جوارحهم من غيرها، فإذا أمرهم الملعون بمعصية مرت بهم محتشمة فهم لها منكرون.

وقال بعضهم: إني لا أحسن أن أعصي الله.

وقال بعضهم: أحبه إلَيَّ أحبه إليه.

وإذا وفق العبد إلى شيءٍ من المحبة والأنس ثم حرم بغفلة أو ذنوب فيمكنه أن يتوسل إلى الله عز وجل بعمله الصالح، وقديم الوصل.

يقول ابن الجوزي: يا هذا قف في الدياجي، وامدد يَدَ الذل، وقل: قد كانت لي خدمة، فعرض تفريط أوجب البعد، فبحرمة قديم الوصل ردوني، فقد ألفتكم.

يا من كان له قلب فمات، يا من كان له وقت ففات، استغث في بوادي القلق، ردُّوا عَلَيَّ ليالي التي سلفت، احضر في السحر، فإنه وقت الإذن العام، واستصحب رفيق البكاء، فإنه مساعد صبور، وابعث مسائل الصعداء، فقد أقيم لها من يتناول.

الخاطرة الخامسة والخمسون
التقوى ثلاث مراتب:
إحداها حمية القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات
الثانية: حميتها عن المكروهات
الثالثة: حميتها عن الفضول وما لا يعني

فالأولى تعطي العبد حياته.

والثانية: تفيده صحته وقوته.

والثالثة: تكسبه سروره وفرحه وبهجته.

وللسلف في تعريف التقوى أقوال، تختلف مبانيها وتتفق معانيها.

قال طلق بن حبيب: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله ترجو ثواب الله وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عقاب الله.

وقال ابن مسعود ﵁ في قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

وسئل أبو هريرة عن التقوى فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك قال: نعم. قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عزلت عنه، أو قصرت عنه، قال: ذاك التقوى.

وأخذ هذا ابن المعتمر وقال:

خَلِّ الذنوبَ صغيرَهَا ... وكبيرَهَا فَهُوَ التُّقَى

وَاصْنَعْ كماشٍ فَوقَ ... أَرْضِ الشَوْكِ يَحْذَرُ ما يَرى

لا تَحقَرنَّ صَغِيرَةً ... إنَّ الجِبَالَ مِنَ الحَصَى

وقال الإمام أحمد: التقوى هي ترك ما تهوى لما تخشى.

وقيل: هي الخوف من الجليل، والرضا بالتنزيل، والاستعداد ليوم الرحيل.

وقيل: هي أن لا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك.

وقيل: هي علم القلب بقرب الرب.

والتقوى هي مراقبة الله عز وجل، لأن التقوى هي درجة الإحسان وهي أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والتقوى هي الحياء من الله عز وجل، وقد دل على هذا المعنى آثار فمن ذلك قول المحاسبي: المراقبة علم القلب بقرب الرب.

وسئل الجنيد بم يستعان على غض البصر؟ قال: بعلمك أن نظر الله إليك، أسبق إلى ما تنظر إليه.

وكان الإمام أحمد ينشد:

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمَاً فَلاَ تَقُلْ ... خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفُلُ سَاعَةً ... وَلَا أَنْ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ

وذكر عن أعرابي قال: خرجت في بعض ليالي الظلم، فإذا أنا بجارية كأنها علم[1]، فأردتها عن نفسها، فقالت: ويلك أما كان لك زاجر من عقل، إذا لم يكن لك ناه من دين.

فقلت، إنه والله ما يرانا إلا الكواكب. فقالت: فأين مكوكبها؟[2]

---

(١) أي جبل.

(٢) انظر رسالة «التقوى الغاية المنشودة والدرة المفقودة» للمصنف، ط. دار العقيدة.

الخاطرة السادسة والخمسون

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً وموقوفاً: «من جعل همومه هما واحدا كفاه الله سائر همومه ومن تشعبت به الهموم دون أحوال الدنيا لم يبال الله عز وجل في أي أوديتها هلك»[1].

فالواجب على المسلم أن يجعل همه واحداً، وهو طاعة الله عز وجل، وطلب رضى الله عز وجل، فمن جعل همه طاعة الله، وشغله أمر دينه، كفاه الله أمر دنياه ومن سر بخدمة الله سرت الأشياء كلها بخدمته، وإذا قصر العبد في العمل ابتلاه الله بالهم، وفتح عليه من هموم الدنيا وشواغلها، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[الأنعام: ٤٤]

قال ابن القيم رحمه الله: إذا أصبح العبد وأمسى وليس همّه إلا الله وحده، تحمل الله سبحانه حوائجه كلها، وحمل عنه كل ما أهمه، وفرَّغ قلبه لمحبته، ولسانه لذكره، وجوارحه لطاعته.

وإن أصبح وأمسى والدنيا همه، حَمَّلَهُ الله همومها وغمومها وأنكادها، ووكله إلى نفسه، فشغل قلبه عن محبته بمحبة الخلق، ولسانه عن ذكره بذكرهم، وجوارحه عن طاعته بخدمتهم، وأشغالهم، فهو يكدح كدح الوحش في خدمة غيره، كالكير ينفخ بطنه ويعصر أضلاعه في نفخ غيره.

---

(١) تقدم تخريجه.

فكل من أعرض عن عبودية الله، وطاعته، ومحبته، بلي بعبودية المخلوق ومحبته، وخدمته، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾ [الزخرف:٣٦]

قال سفيان بن عيينه: لا تأتوني بمثل مشهور للعرب إلا جئتكم به من القرآن. فقال له قائل، فأين في القرآن «أعط أخاك تمرة، فإن لم يقبل فأعطه جمرة؟ فقال في قوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾[1] [الزخرف:٣٦]

(١) الفوائد: (١١٠).

الخاطرة السابعة والخمسون

قوله تعالى:

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾[1] [الأنفال: ٢٤]

المشهور في تفسير هذه الآية الكريمة كما هو مروي عن ابن عباس والجمهور، أن الله عز وجل يحول بين المؤمن وبين المعصية التي تجره إلى النار، فهو عز وجل يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان، ويحول بين أهل طاعته وبين معصيته، وبين أهل معصيته وبين طاعته.

قال ابن القيم رحمه الله: وفي الآية قول آخر: أن المعنى أنه سبحانه قريب من قلبه، لا تخفى عليه خافية، فهو بينه وبين قلبه. ذكره الواحدي عن قتادة، وكان هذا أنسب بالسياق لأن الاستجابة أصلها بالقلب، فلا تنفع الاستجابة بالبدن دون القلب، فإن الله سبحانه بين العبد وبين قلبه، فيعلم هل استجاب له قلبه، وهل أضمر ذلك، أو أضمر خلافه.

وعلى الوجه الأول فوجه المناسبة أنكم إن تثاقلتم عن الاستجابة وأبطأتم عنها فلا تأمنوا أن الله يحول بينكم وبين قلوبكم فلا يمكنكم بعد ذلك من الاستجابة عقوبة لكم على تركها، بعد وضوح الحق، واستبانته، فيكون كقوله: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ

﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠] وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] وقوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف:١٠١] ففي الآية تحذير من ترك الاستجابة بالقلب، وإن استجاب بالجوارح.

وفي الآية سر آخر، وهو أنه جمع لهم بين الشرع والأمر به، وهو الاستجابة، وبين القدر والإيمان به، فهي كقوله: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩] وقوله: ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [المدثر:٥٥-٥٦] والله أعلم[1].

(١) الفوائد: (١١٨-١١٩).

الخاطرة الثامنة والخمسون

أهل التوحيد ولو دخلوا النار لا يخلدون فيها خلود الكفار، ولا يعاملون معاملتهم في النار (*)

عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لاَ يَمُوتُونَ فِيهَا وَلاَ يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ - أَوْ قَالَ: بِخَطَايَاهُمْ - فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً، حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ. فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ: قد كان بالبادية[1].

وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: [يعذب أناس من أهل التوحيد في النار، حتى يكونوا حمما، ثم تدركهم الرحمة، قال فيخرجون فيطرحون على أبواب الجنة، فيرش عليهم أهل الجنة الماء، فينبتون كما ينبت الغثاء في حمالة السيل، ثم يدخلون الجنة][2].

قال النووي رحمه الله في التعليق على حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: وأما معنى الحديث فالظاهر والله أعلم في معنى هذا الحديث أن

(*) انظر لمزيد من التفصيل: «تحذير الداني والقاصي من عقوبات الذنوب والمعاصي» للمصنف (١١٧-١٢٤) ط. دار العقيدة.

(١) رواه مسلم (٣/ ٣٧-٣٨) الإيمان.

قال القرطبي: ضبائر ضبائر، معناه جماعات جماعات، الواحدة ضبارة وهي الجماعة من الناس، وبثوا فرقوا، والحبة بذر البقول، وحميل السيل ما احتمله من غثاء وطين.

(٢) رواه البخاري (١٣ / ٤٣٤) التوحيد، وأحمد (٣ / ١٣٣).

الكفار الذين هم أهل النار، والمستحقون للخلود لا يموتون فيها ولا يحيون حياة ينتفعون بها، ويستريحون معها، كما قال الله تعالى: ﴿ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر:٣٦] وكما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ ﴾ [الأعلى:١٣]

وهذا جارٍ على مذهب أهل الحق أن نعيم أهل الجنة دائم، وأن عذاب أهل الخلود في النار دائم، وأما قوله ﷺ: [ولكن ناس أصابتهم النار] إلى آخره فمعناه أن المذنبين من المؤمنين يميتهم الله تعالى إماتة، بعد أن يعذبوا المدة التي أرادها الله تعالى، وهذه الإماتة حقيقية يذهب معها الإحساس، ويكون عذابهم على قدر ذنوبهم، ثم يكونون محبوسين في النار من غير إحساس المدة التي قدرها الله تعالى، ثم يخرجون من النار موتى قد صاروا فحماً، فيحملون ضبائر كما تحمل الأمتعة، ويلقون على أنهار الجنة فيصب عليهم ماء الحياة فيحيون وينبتون نبات الحبة في حميل السيل، في سرعة نباتها وضعفها، فتخرج لضعفها صفراء ملتوية، ثم تشتد قوتهم بعد ذلك، ويصيرون إلى منازلهم، وتكمل أحوالهم فهذا هو الظاهر من لفظ الحديث ومعناه[1].

وقال القرطبي رحمه الله ما ملخصه: هذه الموتة للعصاة موتة حقيقية، لأنه أكدها بالمصدر، وذلك تكريماً لهم حتى لا يحسوا ألم العذاب بعد الاحتراق، بخلاف الحي الذي هو من أهلها ومخلدٌ فيها ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ [النساء:٥٦]

(١) شرح النووي على صحيح مسلم هامش (٣/٣٨).

وفي هذه الأحاديث وما يشبهها رد على الخوارج والمعتزلة، الذين يخلدون فاعل الكبيرة في النار بعقائدهم الفاسدة، وليسوا بخالدين فيها لرحمة الله عز وجل لأهل التوحيد فإنهم إذا دخلوا النار لايخلدون فيها كما يخلد الكفار، وكذا لا يعاملون معاملة الكفار الذين لا يموتون فيها ولا يحيون، بل تمسهم النار فتحرقهم وتميتهم إماتة ثم يحملون إلى أبواب الجنة، فيرش عليهم أهل الجنة ماء الحياة فتتخرج من الجلود المحترقة أجساد جديدة، مثل النبتة الصفراء الملتوية[1].

قال الإمام الطحاوي: «وأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ في النار لا يخلدون، إذا ماتوا وهم موحدون، وإن لم يكونوا تائبين، بعد أن لقوا الله عارفين، وهم في مشيئته وحكمه، إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله كما ذكر عز وجل في كتابه: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]

وإن شاء عذبهم في النار بعدله، ثم يخرجهم منها برحمته، وشفاعة الشافعين من أهل طاعته، ثم يبعثهم إلى جنته، وذلك بأن الله تعالى تولى أهل معرفته، ولم يجعلهم في الدارين كأهل نكرته، الذين خابوا من هدايته، ولم ينالوا ولايته، اللهم يا ولي الإسلام وأهله ثبتنا على الإسلام حتى نلقاك به[2].

(١) باختصار من «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة» (٤٠٩، ٤١٠) مكتبة الكليات الأزهرية.
(٢) شرح الطحاوية (٣٦٩، ٣٧٠).

فأهل المعاصي من الموحـدين يموتون في النار موتة أخرى، أما أهل الطاعة الذين يدخلون الجنة من أول وهلة، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم لا يموتون إلا الموتة الأولى في الدنيا.

عن سلمان بن الحكم بن عوانة أن رجلاً دعا بعرفات فقال: لا تعذبنا بالنار بعد أن أسكنت توحيدك قلوبنا، قال: ثم بكى وقال: ما إخالك تفعل بعفوك، ثم بكى وقال: لئن فعلت فبذنوبنا، لا تجمعن بيننا وبين قوم طالما عاديناهم فيك.

وعن حكيم بن جابر قال: قال إبراهيم عليه السلام: اللهم لا تشرك من كان يشرك بك، وبمن كان لا يشرك بك.

الخاطرة التاسعة والخمسون

الأعمال بالخواتيم والخواتيم لها تعلق شديد بالسرائر والضمائر (*)

قال أبو محمد عبد الحق: أعلم أن سوء الخاتمة أعاذنا الله منها لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، وما سمع بهذا ولا علم به. والحمد لله (1).

فقد يكون العبد ممن يعمل بطاعة الله عز وجل ولكنه يبطن النفاق أو الرياء، أو يكون في قلبه دسيسة من دسائس السوء، كالكبر، أو العجب، فيظهر ذلك عليه آخر عمره، ويختم له به فتكون الخسارة الأبدية، والهلاك الأخروي، كما في قصة الذي كان يقاتل مع رسول الله ﷺ ويبلي أحسن البلاء، ولكنه لم يكن ذلك لله عز وجل أو من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا. فلما جرح استعجل الموت فانتحر، فقال النبي ﷺ: [إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ فِيْمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ] (2).

فقوله ﷺ: [فِيْمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ] يدل على أن باطنه خلاف ظاهره ولا يمكن أن تسوء خاتمة من صلح ظاهره وباطنه والله أعلم.

(*) انظر لمزيد من التفصيل «تذكير النفوس المؤمنة بأسباب سوء الخاتمة وحسن الخاتمة» للمصنف (٣٦-٣٩).

(١) التذكرة (١/١٠٦).

(٢) رواه البخاري (٧/٥٣٨) المغازي.

قال الحافظ ابن الجوزي: واسم الرجل قزمان، وكان قد تخلف عن المسلمين يوم أحد فعيَّره النساء فخرج حتى صار في الصف الأول، فكان أول من رمى بسهم، ثم صار إلى السيف ففعل العجائب، فلما انكشف المسلمون، كسر جفن سيفه، وجعل يقول: الموت أحسن من الفرار فمر به قتادة بن النعمان فقال له هنيئاً لك بالشهادة فقال: والله ما قاتلت على دين، وإنما قاتلت على حسب قومي، ثم أقلقته الجراحة فقتل نفسه.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: شهدنا خيبر فقال رسول الله ﷺ لرجل ممن معه يدعي الإسلام: [هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَلَمَّا حَضَرَ القِتَالُ قَاتَلَ الرَّجُلُ أَشَدَّ القِتَالِ، حَتَّى كَثُرَت بِهِ الجِرَاحَةَ، فَكَادَ بَعْضُ النَّاسِ يَرْتَاب، فَوَجَدَ الرَّجُلُ أَلَمَ الجِرَاحَةِ فَأَهْوَى بِيَدِهِ إِلَى كِنَانَتِه، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهَا أَسْهُماً فَنَحَرَ بِهَا نَفْسَهُ، فَاشْتَدَّ رِجَالٌ مِنَ المُسْلِمِيْنَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله صَدَّقَ اللهُ حَدِيْثَكَ، إِنْتَحَرَ فُلاَنٌ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ. فَقَالَ: قُمْ يَا فُلاَن، فَأَذِّن أَنَّهُ لاَ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلاَّ مُؤْمِنٌ إِنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ الدِّيْنَ بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ][1].

وعلى كل حال إن قلنا إن القصة واحدة، أو متعددة، فهي شاهدة لما أشرنا إليه، من أن من أسباب سوء الخاتمة اختلاف الظاهر والباطن، سواء كان بنفاق أو رياء أو سمعة، كما أن الإخلاص والصدق، ومحبة الله عز وجل، من أعظم أسباب حسن الخاتمة.

---

(١) رواه البخاري (٧/٥٣٩) المغازي.

منذ سنوات جرت حادثة بالقصيم، وتطايرت أخبارها هنا وهناك، وحاصلها أن رجلا في حال احتضاره، ظهر عليه من الاعتراض على ربه ما ظهر، فجاء بعض أصحابه ممن كان يصلي معه في المسجد - والله أعلم بما في القلوب - وقال: يا عبد الله هذا المصحف الذي كنت تقرأ فيه، فاتق الله في نفسك. ولقنه كلمة التوحيد فقال: هو كافر بالمصحف وبـ لا إله إلا الله وختم له على ذلك نعوذ بالله تعالى من الخذلان.

والغالب في الناس كما أشار إلى ذلك الإمام النووي أنهم يعملون بمعصية الله عز وجل، ثم يوفقون للعمل بطاعة الله عز وجل ويموتون على ذلك، والنادر فيهم من يعمل بطاعة الله عز وجل، ثم ينقلب إلى معصية الله عز وجل ويموت على ذلك والله تعالى سبقت رحمته غضبه والله المستعان.

الخاطرة الستون

القول بكفر تارك الصلاة كسلاً وإن كان فيه تعظيم للصلاة ففيه إهدار لفضل الشهادتين فيستوي عند من قال بكفر تارك الصلاة كسلاً من نطق بالشهادتين ومن لم ينطق بهما

وعمدة القائلين بكفر تارك الصلاة كسلاً أحاديث صرحت بكفر تارك الصلاة كما في حديث بريدة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: [العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ] (1).

والقائلون بعدم كفره كفراً أكبر لم يخالفوا في التسمية بالكفر، ولكن الخلاف هل هو كفر أكبر أو أصغر، وقد تواترت الأدلة على وجود كفر دون كفر، وفسق دون فسق، وظلم دون ظلم، ونفاق دون نفاق، وبوب على ذلك البخاري في صحيحه، والذي منع القائلين بعدم لزوم الكفر الأكبر الذي يخلد به صاحبه في النار الجمع بين هذه الأحاديث الناطقة بكفره، وأحاديث فضل الشهادتين، وأن من قال لا إله إلا الله نفعته يوماً من دهره أصابه قبل ذلك ما أصابه، وكذلك أحاديث الشفاعة وأنه يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، والجمع واجب ما أمكن، وحمل الكفر هنا على الكفر الأصغر له نظائر في الشرع كقوله ﷺ: [سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ].

(1) رواه الترمذي (10 / 90 عارضة) الإيمان وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، والنسائي (231، 232) الصلاة، والحاكم (1 / 7) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد لا تعرف له علة بوجه من الوجوه ولم يتعقبه الذهبي.

وقوله ﷺ: [مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ][1].

وهنا ضابط نافع للحكم بالكفر وهو أن الله عز وجل جعل للإسلام باباً وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن من دخل من هذا الباب لا يخرج إلا منه، فكل فعل أو قول لا يدل على نقض الإقرار السابق لا يكون بمجرده مخرجاً من الملة، فالاستهزاء بالشرع وسب الدين يدل على نقض الشهادتين، وترك الصلاة جحوداً يدل على نقضهما، أما ترك الصلاة كسلاً، أو توجيه عبادة من العبادات جهلاً لغير الله، لا يكون بمجرده مخرجاً من الملة مخلداً لصاحبه في النار، وليس معنى ذلك أننا نستهين بجريمة ترك الصلاة، بل نحن مع ما صدر به الإمام ابن القيم كتابه «الصلاة وحكم تاركها» لا يختلف المسلمون أن ترك الصلاة المفروضة عمداً، من أعظم الذنوب، وأكبر الكبائر، وأن إثمه عند الله أعظم من إثم قتل النفس، وأخذ الأموال، ومن إثم الزنا والسرقة وشرب الخمر، وأنه متعرض لعقوبة الله، وسخطه، وخزيه في الدنيا والآخرة.

وهنا لطيفة نبه إليها العلامة الألباني رحمه الله فقال: [إن التارك للصلاة كسلاً إنما يصح الحكم بإسلامه ما دام لم يوجد هناك ما يكشف عن مكنون قلبه، أو يدل عليه، ومات على ذلك، قبل أن يستتاب، كما هو الواقع في هذا الزمان أما لو خير بين القتل والتوبة بالرجوع إلى المحافظة على الصلاة، فاختار القتل عليها، فهو في هذه الحالة يموت كافراً].

---

(١) رواه الترمذي (٧/١٨) الإيمان، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن، وأبو داود (٣٢٣٥) الأيمان، وأحمد (٢/٣٤،٦٩،٨٦)، والحاكم (٤/٢٩٧) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الإرواء (٢٥٦١).

قال شيخ الإسلام: ومتى امتنع الرجل من الصلاة حتى يقتل، لم يكن في الباطن مقراً بوجوبها، ولا ملتزماً بفعلها وهذا كافر باتفاق المسلمين، كما استفاضت الآثار عن الصحابة بكفر هذا، ودلت عليه النصوص الصحيحة[1] .

قال الشيخ سليمان بن عبد الله: بقي أن نشير إلى أننا لم نعلم في عصر من الأعصار، أحداً من تاركي الصلاة، ترك تغسيله والصلاة عليه، ولا منع ميراث مورثه، مع كثرة تاركي الصلاة، ولو كفر لثبتت هذه الأحكام[2] .

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/١١٧).
(٢) حاشية المقنع (١/٩٥-٩٦).

الخاطر الواحدة والستون

قال بعضهم: من أحب تصفية الأحوال، فليجتهد في تصفية الأعمال

قال تعالى: ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾ [الجن: ١٦]

قال أبو سليمان الداراني: من صَفَّى صُفِّيَ له: ومن كَدَّر كُدِّرَ عليه، ومن أحسن في ليله كوفئ في نهاره، ومن أحسن في نهاره كوفئ في ليله.

وكان شيخ يدور في المجالس ويقول: من سره أن تدوم له العافية فليتق الله عز وجل.

وكان الفضيل بن عياض يقول: إني لأعصي الله، فأعرف ذلك في خلق دابتي وجاريتي.

قال ابن الجوزي: ومتى رأيت تكديراً في حال فاذكر نعمة ما شكرت، أو زلة قد فعلت، واحذر من نفار النعم، ومفاجأة النقم، ولا تغتر بسعة بساط الحلم، فربما عجل انقباضه.

وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١]

وكان أبو علي الروذباري يقول: من الاغترار أن تسيء فيحسن إليك، فتترك التوبة، توهما أنك تسامح في الهفوات.[١] قلت: وقد يكون هذا من الاستدراج كما قال تعالى: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم: ٤٤] قال بعض السلف: كلما أحدثوا ذنباً، أحدث لهم نعمة.

---

(١) صيد الخاطر (١٨، ١٩) المكتبة العلمية.

وعلى كل حال فمن أحب تصفية الأحوال في الدنيا والآخرة، فليجتهد في تصفية الأعمال، من الرياء والسمعة، ومخالفة الشرع فهؤلاء تصفو قلوبهم من المشوشات في الدنيا وتصفو حياتهم من المكدرات ويسوق الله عز وجل لهم الأرزاق كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢-٣]

ثم يصفو شرابهم في الآخرة من تسنيم، فلا يمزج بغيره كما قال تعالى في وصف شراب الأبرار: ﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين: ٢٧-٢٨]

فالمقربون الذين صفت أعمالهم يشربون من تسنيم صرفاً غير ممزوج والأبرار يمزج شرابهم من تسنيم.

قال ابن الجوزي رحمه الله: أقبل على ما أقوله يا ذا الذوق، هل وقع لك تعثير في عيش، وتخبيط في حال، إلا حال مخالفته.

والله ما جئتكم زائراً ... إلا وجدتُ الأرضَ تُطوى لي
ولا ثنيت عزمي عن بابكم ... إلا تعثرتُ بأذيالي

أما سمعت تلك الحكاية عن بعض السلف أنه قال: رأيت على سور بيروت شاباً يذكر الله تعالى فقلت له: ألك حاجة؟ فقال: إذا وقعت لي حاجة سألته إياها بقلبي فقضاها.

يا أرباب المعاملة بالله عليكم لا تكدروا المشروب، فقفوا على باب المراقبة وقوف الحرس، وادفعوا ما لا يصلح أن يلج، فيفسد.

واهجروا أغراضكم، لتحصيل محبوب الحبيب، فإن أغراضكم تحصل[1].

---

(١) صيد الخاطر (١٩٦).

الخاطرة الثانية والستون

كل ظالم معاقب في العاجل قبل الآجل

قال بعض أحبار بني إسرائيل يا رب كم أعصيك ولا تعاقبني، فقيل له: كم أعاقبك، وأنت لا تدري، أليس قد حرمتك حلاوة مناجاتي

قال ابن الجوزي رحمه الله ما ملخصه: فكل ظالم معاقب في العاجل على ظلمه قبل الآجل، وكذلك كل مذنب ذنباً وهو معنى قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء:١٢٣].

وربما رأى العاصي سلامة بدنه وماله، فظن أن لا عقوبة، وغفلته عما عوقب به عقوبة.

وقد قال الحكماء: المعصية بعد المعصية، عقاب المعصية، والحسنة بعد الحسنة، ثواب الحسنة.

فمن تأمل هذا الجنس من المعاقبة وجده بالمرصاد، حتى قال وهب ابن الورد، وقد سئل أيجد لذة الطاعة من يعصى؟ فقال: ولا من هم فرب شخص أطلق بصره فحرم اعتبار بصيرته، أو لسانه فحرم صفاء قلبه، أو آثر شبهة في مطعمه فأظلم سره، وحرم قيام الليل، وحلاوة المناجاة، إلى غير ذلك.

وهذا أمر يعرفه أهل محاسبة النفس[1].

---

(١) صيد الخاطر (٥١، ٥٢).

وقال أيضا: وأعظم المعاقبة أن لا يحس المعاقب بالعقوبة، وأشد من ذلك أن يقع السرور بما هو عقوبة، كالفرح بالمال الحرام، والتمكن من الذنوب، ومن هذه حاله، لا يفوز بطاعة.

وإني تدبرت أحوال أكثر العلماء والمتزهدين، فرأيتهم في عقوبات لا يحسون بها، ومعظمها من قبل طلبهم الرياسة.

فالعالم يغضب إن رد عليه خطؤه، والواعظ متصنع بوعظه، والمتزهد منافق أو مراءٍ.

فأول عقوباتهم إعراضهم عن الحق شغلا بالخلق. ومن خفي عقوباتهم، سلب حلاوة المناجاة، ولذة التعبد. إلا رجال مؤمنون ونساءٌ مؤمنات، يحفظ الله بهم الأرض، بواطنهم كظواهرهم بل أحلى، وهمهم عند الثريا بل أعلى إن عرفوا تنكروا، وإن رئيت لهم كرامة أنكروا فالناس في غفلاتهم، وهم في قطع فلاتهم، تحبهم بقاع الأرض، وتفرح بهم أملاك السماء.

نسأل الله عز وجل التوفيق لا تباعهم وأن يجعلنا من أتباعهم[1].

وكما أن من أعظم العقوبة الغفلة عن العقوبة فمن أعظم التوفيق أن ينتبه العبد إلى العقوبة فيفي بتمام التوبة.

عن عثمان النيسابوري أنه انقطع شسع نعله في مضيه إلى الجمعة، فتعوق لإصلاحه ساعة ثم قال: إنما انقطع لأني ما اغتسلت غسل الجمعة.

وكما قال محمد بن سيرين رحمه الله لما ركبه الدين: إني أعرف الذنب الذي فعلته، فقد عيرت رجلاً منذ أربعين سنة فقلت: يا مفلس.

---

(١) صيد الخاطر (١٤، ١٥).

الخاطرة الثالثة والستون

أفضل ما تكتسبه النفوس العلم والإيمان

ولهذا قرن الله عز وجل بينهما في قوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ [الروم:٥٦]

وقوله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة:١١]

عن حماد بن زيد قال: قلت لأيوب، العلم اليوم أكثر أو فيما تقدم. فقال: الكلام اليوم أكثر، والعلم فيما تقدم أكثر.

قال ابن القيم رحمه الله: ففرق هذا الراسخ بين العلم والكلام. فالكتب كثيرة جداً، والكلام والمقدرات الذهنية كثيرة، والعلم بمعزل عن أكثرها، وهو ما جاء به الرسول ﷺ عن الله سبحانه، قال تعالى: ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ [آل عمران:٦١] وقال تعالى: ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ [البقرة:١٢٠]، وقال تعالى في القرآن: ﴿ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ [النساء:١٦٦] أي وفيه علمه.

ولما بعد العهد بهذا العلم، آل الأمر بكثير من الناس إلى أن اتخذوا هواجس الأفكار، وسوانح الخواطر والآراء علماً، ووضعوا فيها الكتب وأنفقوا فيها الأنفاس، فضيعوا فيها الزمان، وملأوا بها الصحف مداداً، والقلوب سواداً، حتى صرح كثير من الناس منهم أنه ليس في القرآن والسنة علم.

قال: وقال لي شيخنا مرة في وصف هؤلاء: إنهم طافوا على أرباب المذاهب، ففازوا بأخس المطالب، ويكفيك دليلاً على أن هذا الذي عندهم ليس من عند الله، ماترى فيه من التناقض والاختلاف، ومصادمة بعضه لبعض.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]

وحكى الحاكم عن أبي عبد الله البخاري قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا إنما يتذاكرون كتاب ربهم، وسنة نبيهم، ليس بينهم رأي ولا قياس، ولقد أحسن القائل:

العلم قال الله قال رسوله	**قال الصحابة ليس بالتمويه**
ما العلم نصبك للخلاف سفاهة	**بين الرسول وبين رأي فقيه**
كلا ولا جحد الصفات ونفيها	**حذراً من التمثيل والتشبيه**

وأما الإيمان فأكثر الناس أو كلهم يدعونه ﴿ **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يوسف:١٠٣] وأكثر المؤمنين عندهم إيمان مجمل، وأما الإيمان المفصل بما جاء به الرسول ﷺ معرفة، وعلماً، وإقراراً، ومحبة ومعرفة بضده، وكراهيته فهذا إيمان خواص الأمة، وخاصة الرسول ﷺ وهو إيمان الصديق وكثير من الناس حظهم من الإيمان الإقرار بوجود الصانع، وأنه وحده هو الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما، وهذا لم ينكره عباد الأصنام من قريش والإيمان عندهم التكلم بالشهادتين سواء كان معه عمل أو لم يكن، وسواء وافق تصديق القلب أو خالفه.

وآخرون عندهم الإيمان هو مجرد تصديق القلب وإن لم يقر بلسانه، ولم يعمل شيئاً، وآخرون عندهم الإيمان هو جحد صفات الرب من علوه على عرشه، والإيمان وراء ذلك كله، وهو حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علماً، والتصديق به عقداً، والإقرار به نطقاً، والانقياد له محبة وخضوعاً، والعمل به باطناً وظاهراً، وتنفيذه، والدعوة إليه بحسب الإمكان، وكماله في الحب في الله، والبغض في الله، والعطاء، والمنع لله، وأن يكون وحده إلهه ومعبوده، والطريق إليه تجريد متابعة رسوله ظاهراً وباطناً وتغميض عين القلب عن الالتفات إلى سوى الله ورسوله وبالله التوفيق[1] .

(١) باختصار من الفوائد (١٤٠-١٤٦).

الخاطرة الرابعة والستون

الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس

فمن كان فاضلاً في نفسه أحب الخلوة، فإذا خلا أنس بالله عز وجل وسعد بالله، ومن خلت نفسه من الفضائل، ولم يمتلأ قلبه بحب الله عز وجل أنس بالناس، ومن أحب أحداً أحب أن يخلو به.

قيل لبعضهم: ألا تستوحش وحدك؟ قال: كيف ذلك وهو يقول: أنا جليس من ذكرني. وقال بعضهم: إعتزال العامة، مروءة تامة.

قال ابن القيم رحمه الله: من فقد أنسه بين الناس ووجده في الوحدة فهو صادق ضعيف، ومن وجده بين الناس وفقده في الخلوة فهو معلولٌ، ومن فقده بين الناس وفي الخلوة فهو ميت مطرود، ومن وجده في الخلوة وفي الناس فهو المحب الصادق القوي في حاله.

ومن كان فتحه في الخلوة لم يكن مزيده إلا منها. ومن كان فتحه بين الناس ونصحهم وإرشادهم كان مزيده معهم، ومن كان فتحه في وقوفه مع مراد الله حيث أقامه، وفي أي شيء استعمله، كان مزيده في خلوته ومع الناس.

فأشرف الأحوال أن لا تختار لنفسك حالة سوى ما يختاره لك، ويقيمك فيه، فكن مع مراده منك، ولا تكن مع مرادك منه[1].

قال بعضهم: غرس الخلوة يثمر الأنس.

---

(١) الفوائد (٥٧).

وقال بعضهم: عزلة الجاهل فساد، وأما عزلة العالم فمعها غذاؤها وسقاؤها. فالجاهل إذا اعتزل الناس كان فريسة للشيطان.

استأذن رجل أحد العلماء في العزلة فقال: تفقه واعتزل.

وإنما تطلب العزلة عند كثرة المعاصي والفتن، التي يخاف فيها المؤمن على دينه إذا رأى هوى مطاعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه.

قال بعضهم: هذا زمان السكوت، والتزام البيوت، والقنع بالقوت إلى أن تموت.

قال النبي ﷺ: [يأتي على الناس زمانٌ خيرُ مالِ المسلم الغنمُ يتبع بها شَعفَ الجبالِ، ومواقعَ القَطْرِ، يفرُّ بدينه من الفِتنِ][1].

أما الضابط النافع في مثل هذه الأزمنة التي نعيشها، والناس يطيعون ويعصون، فينبغي على المسلم أن يخالط الناس في الطاعات والمستحبات ويعتزلهم في المعاصي والمكروهات، وفضول المباحات، والله الموفق للطاعات، والهادي لأعلى الدرجات.

---

(١) رواه البخاري (١١ / ٣٣١) الرقاق، وبوب له البخاري رحمه الله: العزلة راحة من خُلَّاطِ السوء.

الخاطرة الخامسة والستون

الابتلاء ضيفٌ قِراه[1] الصبر

ولا تجزع إذا أعسرت يوماً فقد أيسرت في الزمن الطويل

من تفكر في حاله مع البلاء، يرى أن أكثر عمره كان في عافية في دينه، وبدنه، وماله، وأن فترات الابتلاء قصيرة بالنسبة إلى أزمنة العافية، والله تعالى يبتلي عباده بفتن الضراء والسراء، ليستخرج عبوديتهم له عز وجل، ويوم القيامة يتمنى أهل العافية أن لو كانت جلودهم قرضت بالمقاريض، لما يرون من ثواب أهل البلاء، وإن الرجل لتكون له عند الله المنزلة فما يبلغها بعمل، فما يزال الله يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها، فالعاقل إذا ابتلي ببلاء لا ينسى نعمة الله عز وجل عليه في العافية، ويعلم أن الله عز وجل أراد أن يطهره من ذنوبه، أو يرفع درجته، وأنه إذا صبر، فإن الله عز وجل يعوضه ولا يخيبه، فهذا أيوب عليه السلام فاز بمدح الله عز وجل بقوله: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠] وعافاه الله عز وجل مما ابتلاه، وآتاه أهله ومثلهم معهم، ورزقه رزقاً عظيماً، مع ما ادَّخر له من ثواب الآخرة، وهذا يوسف عليه السلام خرج من السجن بضع سنين إلى خزائن الأرض، ورفع أبويه على العرش، وسجدوا له سجود تحية، وهذا نبينا محمد ﷺ أقر الله عينه بنصره المبين وفتحه العزيز، فما لحق بالرفيق الأعلى حتى جاء نصر الله

(١) **القرى**: ما يقدم للضيف.

والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، ولقد كان من حال السلف الصالح ﷺ ما يدعو إلى الصبر والاحتساب، عن هشام بن عروة عن أبيه أنه وقعت الأكلة في رجله فقيل له: ألا ندعو لك طبيباً قال، إن شئتم فجاء الطبيب فقال أسقيك شراباً يزول فيه عقلك. فقال: امض لشأنك. ما ظننت أن خلقاً يشرب شراباً ويزول فيه عقله، حتى لا يعرف ربه. قال: فوضع المنشار على ركبته اليسرى ونحن حوله فما سمعنا له حُسّاً، فلما قطعها جعل يقول: لئن أخذت لقد أبقيت، ولئن ابتليت لقد عافيت، وما ترك حزبه من القراءة تلك الليلة[1].

وروى ابن المبارك في الزهد عن شهر بن حوشب قال: حدثني عبد الرحمن بن غنم عن حديث الحارث بن عميرة قال: أخذ بيده معاذ بن جبل فأرسله إلى أبي عبيدة فسأله: كيف هو؟ وقد طُعِنَا فأراه أبو عبيدة طعنة خرجت في كفه فتكاثر شأنها في نفس الحارث وفرق منها حين رآها: فأقسم أبو عبيدة بالله ما يحب أن له مكانها حمر النعم[2].

---

(١) تهذيب الكمال (٢٠/٢٠،٢١).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٣٦٤)، والحاكم (٣/٢٦)، ورجاله ثقات سوى شهر بن حوشب مختلف فيه.

الخاطرة السادسة والستون

قيل لبعض العباد: إلى كم تتعب نفسك؟ فقال: راحتها أريد

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله   لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

قال ابن الجوزي رحمه الله: فالصبر الصبر أيها الطالب للفضائل، فإن الراحة بالهوى أو بالبطالة تذهب، ويبقى الأسى.

قال الشافعي رحمه الله:

يا نفس ما هو إلا صبر أيام   كأن مدتها أضغاث أحلام

يا نفس جوزي عن الدنيا مبادرة   وخل عنها فإن العيش قدامي

ثم أيها العالم الفقير: أيسرك ملك سلطان من السلاطين، وأن ما تعلمه من العلم لا تعلمه؟

كلا: ما أظن بالمتيقظ أن يؤثر هذا.

ثم أنت إذا وقع لك خاطر مستحسن، أو معنى عجيب، تجد لذة لا يجدها ملتذ باللذات الحسية.

فاهرب وفقك الله قبل الحبس، وافسخ عقد الهوى على الغبن الفاحش، واعلم أن الفضائل لا تنال بالهوينا، وأن يسير التفريط يشين وجه المحاسن.

فالبدار البدار، ونَفَسُ النَّفْسِ يتردد، وملك الموت غائب ما قدم بعد، وانهض بعزيمة عازم.

وارفض في هذه العزيمة الدنيا وأربابها، فبارك الله لأهل الدنيا في دنياهم، فنحن الأغنياء وهم الفقراء.

قال إبراهيم بن أدهم: لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه، لجالدونا عليه بالسيوف.

فأبناء الدنيا أحدهم لا يكاد يأكل لقمة إلا حراماً أو شبهة.

ونحن نأكل ما ظاهر الشرع يشهد له بالإباحة، ولا نخاف من عدو ولا ولايتنا تقبل العزل.

والعز في الدنيا لنا لا لهم، وإقبال الخلق علينا وفي الآخرة بيننا وبينهم تفاوت إن شاء الله تعالى، فإن لفت أرباب الدنيا أعناقهم يعلمون قدر مزيتنا، وإنما هو طعام دون طعام، ولباس دون لباس، وإنها أيام قلائل. أيقظنا الله من رقدة الغافلين، ورزقنا فكر المتيقظين، ووفقنا للعمل بمقتضى العلم والعقل، إنه قريب مجيب[1].

---

(١) باختصار من صيد الخاطر (٤٣-٤٥).

الخاطرة السابعة والستون

حكي أن بعض الحكماء كتب على باب بيته: إنه لن ينتفع بحكمتنا إلا من عرف نفسه ووقف بها عند قدرها فمن كان كذلك فليدخل وإلا فليرجع حتى يكون بهذه الصفة

قال ابن القيم رحمه الله ما ملخصه: لا ينتفع بنعمة الله بالإيمان والعلم إلا من عرف نفسه ووقف بها عند قدرها، ولم يتجاوزه إلى ما ليس له، ولم يتعد طوره، ولم يقل هذا لي، وتيقن أنه لله، ومن الله، وبالله، فهو المَانُّ به ابتداءً وإدامة بلا سبب من العبد، ولا استحقاق منه، فتذله نعم الله عليه وتكسره كسرة من لا يرى لنفسه ولا فيها خيراً البتة، وأن الخير الذي وصل إليه فهو لله وبه ومنه، فتحدث له النعم ذلاً وانكساراً عجيباً، لا يعبر عنه، فكلما جدد له نعمته ازداد له ذلاً، وانكساراً، وخشوعاً، ومحبة، وخوفاً، ورجاءً، وهذا نتيجة علمين شريفين: علمه بربه وكماله وبره وغناه وجوده وإحسانه ورحمته، وأن الخير كله في يديه، وهو ملكه يؤتي منه من يشاء، ويمنع من يشاء، وله الحمد على هذا، وهذا أكمل حمدٍ وأتمه.

وعلمه بنفسه، ووقوفه عند حدها، وقدرها، ونقصها، وظلمها وجهلها، وأنها لا خير فيها البتة، ولا لها ولا بها ولا منها، وأنها ليس لها من ذاتها إلا العدم. فإذا صار هذان العلمان صبغة لها لا صبغة على لسانها، علمت حينئذٍ أن الحمد كله لله، والأمر له، والخير كله في

يديه، وأنه هو المستحق للحمد والثناء دونها، وأنها هي أولى بالذم والعيب واللوم، ومن فاته التحقيق بهذين العلمين تلونت به أقواله، وأعماله، وأحواله، وتخبطت عليه، ولم يهتد إلى الصراط المستقيم الموصل إلى الله، فإيصال العبد بتحقيق هاتين المعرفتين علماً وحالاً، وانقطاعه بفواتهما، وهذا معنى قولهم، من عرف نفسه عرف ربه، فإنه من عرف نفسه بالجهل، والظلم، والعيب، والنقائص، والحاجة، والفقر، والذل، والمسكنة، والعدم، عرف ربه بضد ذلك، فوقف بنفسه عند قدرها، ولم يتعد بها طورها، وأثنى على ربه ببعض ما هو أهله، وانصرفت قوة حبه، وخشيته، ورجائه، وإنابته، وتوكله إليه وحده، وكان أحبَّ شيءٍ إليه، وأخوف شيءٍ عنده، وأرجاه له، وهذا هو حقيقة العبودية والله المستعان [1].

وإذا كان أصل الخير ومنشأوه معرفة العبد بربه عز وجل، ومعرفته بعيوب نفسه، وسيئات عمله، فأصل الشر كذلك جهل العبد بربه عز وجل، بأسمائه وصفاته وربوبيته وإلهيته، وكذا جهل العبد نفسه بعيوبها، ونقصها، وذلها، واعتقاده خيرتها، وكمالها، واستحقاقها لكل خير كما قال قارون ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾[القصص:٧٨] وكما قال صاحب الجنتين ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً﴾[الكهف:٣٦]

وقد تقدم معنى قريب من هذا المعنى بلفظ آخر، وسياق آخر، في الخاطرة الرابعة عشرة، بعنوان **«يخرج العرف من الدنيا وما قضى وطره من شيئين ثناؤه على ربه، وبكاؤه على نفسه»**

---

(١) الفوائد (١٨١-١٨٢).

الخاطرة الثامنة والستون

قال شيبان الراعي لسفيان: عُدَّ منع الله إياك عطاء منه لك، فإنه لم يمنعك بخلا، إنما منعك لطفاً

فالله عز وجل غنى كريم، وعطاؤه عز وجل لعباده لا ينقص ما عنده، كما قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل:٩٦]

ولو أعطى الله عز وجل الأولين والآخرين، جميع ما يطلبونه من الله عز وجل، لا ينقص ذلك ما عند الله عز وجل، إلا كما ينقص المخيط أي الإبرة إذا أدخل البحر، والإبرة لا تنقص من البحر شيئاً، وفي الحديث: [يَدُ اللهِ مَلأَى سَحَّاءُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُم مَّا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِيْنِه]. وفي بعض الروايات قال عز وجل: [ذَلِكَ بِأَنِّي جَوَّادٌ، وَاجِدٌ مَاجِدٌ عَطَائِي كَلاَمٌ، وَعَذَابِي كَلاَمٌ، إِنَّمَا أَمْرِي لِشَيءٍ إِذَا أَرَدْتُهُ، أَنْ أَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ].

والله تعالى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، بعلمٍ وحكمةٍ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى:٢٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق:٦-٧]

والعبد لا يستغني عن ربه عز وجل طرفة عين، ولكنه إذا ظن أنه استغنى فهذا من أسباب الطغيان.

والله تعالى يحمي عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه لطفاً به، كما أنه عز وجل قد يفتح على من يبغضه أبواب الرزق استدراجاً كما قال تعالى: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم: ٤٤]

قال النبي ﷺ: [اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا].

وقال النبي ﷺ: [مَا الفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى أَنْ تُفْتَحُ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا فُتِحَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، فَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ].

وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر.

فسبحان من منعه عطاء، وعطاؤه منع، والله تعالى لا يبتلي العباد بالخوف كله، أو الجوع كله، ولكنه عز وجل من لطفه بهم يبتليهم بشيء من الخوف، والجوع، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، كما قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]

الخاطرة التاسعة والستون

نؤمن بالقدر ولا نحتج به إلا في المصائب، وإذا سقط اللوم صح الاحتجاج بالقدر

كثير من المفرطين في أمر الله عز وجل، والمتجرئين على معاصي الله، يحتج بالقدر، وهو احتجاج بارد، لأن القدر يحتج به في المصائب دون المعائب، ولو صح الاحتجاج بالقدر في ترك الأوامر وانتهاك المحارم، لبطلت جميع الشرائع، والذي يترك الصلاة أو يمنع الزكاة الواجبة، ويحتج على ذلك بالقدر، لو سرق ماله وانتهكت حرمته، ثم اعتذر من سرق ماله أو انتهك حرمته على ذلك بالقدر لما قبل منه.

قال ابن الجوزي: رأيت جماعة من الخلق يتعللون بالأقدار، فيقول قائلهم إن وفقت فعلت، وهذا تعلل بارد، ودفع للأمر بالراح، وهو يشير إلى رد أقوال الأنبياء والشرائع جميعاً، فإنه لو قال كافر للرسول ﷺ: إن وفقني أسلمت لم يجبه إلا بضرب العنق.

وهذا جنس قول الناس لعلي، ندعوك إلى كتاب الله. فقال: كلمة حق أريد بها باطل.

وكذلك قول الممتنعين عن الصدقة ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ [يس:٤٧] ولعمري إن التوفيق أصل الفعل، ولكن التوفيق أمر خفي، والخطاب بالفعل أمر جلي. فلا ينبغي أن يتشاغل عن الجلي بذكر

الخفي ومما يقطع هذا الاحتجاج أن يقال لهذا القائل: إن الله سبحانه لم يكلفك شيئاً إلا وعندك أدوات ذلك الفعل ولك قدرة عليه فإذا كانت القدرة عليه معدومة، والأدوات غير محصلة فلا أمر ولا تكليف، وإن كنت تسعى بتلك الأدوات في تحصيل غرضك وهواك، فاسع بها في إقامة مفروضك.

مثال ذلك أنك تسافر في طلب الربح، وتُسْأَل الحج فلا تفعل، ويثقل عليك الانتباه بالليل، فلو أردت الخروج إلى العيد انتبهت سحراً.

وتقف في بعض أغراضك مع صديق تحادثه ساعات، فإذا وقفت في الصلاة استعجلت وثقل عليك.

فإياك إياك أن تتعلق بأمر لا حجة لك فيه، ثم من نصيبك ينقص، ومن حظك يضيع، فإنما تُحَرَّك لك، وإنما تَحرَّض لنفعك، فبادر فإنك مبادرٌ بك، ويُزيل كسلك - إن تأملته - أن تتخايل المجتهدين وقد فاتك.

ويكفي ذلك في توبيخ المقصر، إن كانت له نفس، فأما ميت الهمة، فما لجرح بميت إيلام.

كيف بك إذا قمت من قبرك، وقد قربت نجائب النجاة لأقوام وتعثرت. وأسرعت أقدام الصالحين على الصراط، وتخبطت.

هيهات ذهبت حلاوة البطالة، وبقيت مرارة الأسف.

ونضب ماء كأس الكسل، وبقي رسوب الندامة.

الخاطرة السبعون

من جاءك بالحق فاقبل منه، وإن كان بعيداً بغيضاً

قال رجل لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: علمني كلمات جوامع نوافع.
فقال: اعبد الله لا تشرك به شيئاً، وزل مع القرآن حيث زال، ومن جاءك بالحق فاقبل منه، وإن كان بعيداً بغيضاً، ومن جاءك بالباطل فاردد عليه، وإن كان حبيباً قريباً.

فهذه بحق جوامع، أي تجمع الخير الكثير في كلام قليل، ابتدأها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بقوله: [اعبد الله لا تشرك به شيئاً] لأن العبودية وظيفة العمر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وما أمرت الرسل الكرام بشيء قبل التوحيد، وما نهت عن شيء قبل الشرك، وقد قدمنا في الخاطرة التاسعة والعشرون بعنوان «**العبودية وظيفة العمر**» بيان أهمية العبودية فليراجع.

أما قوله رضي الله عنه: [وزل مع القرآن حيث زال] فهو شبيه بقول عائشة رضي الله عنها: عندما سألت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: [كان خلقه القرآن] [1] أي مهما أمره القرآن إئتمر ومهما نهاه انتهى فقد كان ﷺ قرآنا يمشي على الأرض، وقد بينا كذلك في الخاطرة الثامنة بعنوان: «**أعلى هداية وأرقاها هداية القرآن**» شيئاً من هداية القرآن وفضائله،

---

(١) رواه مسلم (رقم ٧٦٤) صلاة المسافرين مطولا، وأحمد (٦ / ٤٥). قال النووي: معناه العمل به والوقوف عند حدوده والتأدب بآدابه والاعتبار بأمثاله وقصصه وتدبره وحسن تلاوته - شرح النووي على صحيح مسلم (٦ / ٣٨، ٣٩).

ويبقى قوله ﷺ: [ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً بغيضاً، ومن جاءك بالباطل فاردد عليه، وإن كان حبيباً قريباً] ولهذا المعنى شواهد من الكتاب والسنة الصحيحة فمن الكتاب قول الله عز وجل حكاية عن ملكة سبأ: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٤] قال الله عز وجل ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤] فصدق الله عز وجل كلمتها، مع أنها كانت كافرة.

ومن السنة الصحيحة قصة أبي هريرة ﷺ مع الشيطان عندما عينه النبي ﷺ حارساً على الصدقة، وأتى الشيطان في صورة رجل مسكين يسرق منها، فأمسك به أبو هريرة ﷺ، وأراد أن يرفعه إلى النبي ﷺ، فشكا إليه الفقر، وكثرة العيال، ثم تكرر ذلك منه فصمم أبو هريرة ﷺ أن يرفعه إلى النبي ﷺ، فعلمه أن يقرأ آية الكرسي عند النوم فلا يزال عليه من الله عز وجل حافظ فلا يقربه شيطان، فلما أخبر النبي ﷺ بقصته قال ﷺ: [صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ]. ما قال النبي ﷺ هذا الشيطان لا تقبل منه شيئاً فالحق يقبل من كل من جاء به وإن كان بعيداً بغيضاً، والباطل يرد على قائله وإن كان حبيباً قريباً.

وقريب من هذا المعنى قولهم: لا يعرف الحق بالرجال، إعرف الحق تعرف أهله.

فالواجب على المسلم أن يدور مع الحق حيث دار، فإن على الحق نوراً، والحكمة ضالة المؤمن، أينما وجدها التقطها، فإذا قبل من الشيطان ما قاله لأبي هريرة، لأنه من الحق، فكيف لا تقبل ممن ينتسب

إلى الإسلام، وإن كان يخالف أهل السنة في مسألة أو مسائل، ما دام ما يقوله من الحق، وقد أنكر بعض طلاب العلم على بعض المصنفين، نقل كلمات للمفكر سيد قطب رحمه الله، أو محمد قطب أو الغزالي رحمه الله، وعلى كتبهم مآخذ وفيها ما يخالف السلف ولكن لهم مواقف وكلمات طيبة والنقل عنهم ليس تصويباً لكل ما قالوه، وكل أحدٍ يؤخذ من قوله ويترك، إلا صاحب القبر ﷺ: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾ [الحشر:٧] فهذه المنزلة ليست لأحدٍ بعد رسول الله ﷺ فالحق يقبل من كل من جاء به وإن كان بعيداً بغيضاً، والباطل يرد على قائله وإن كان حبيباً قريباً.

الخاطرة الواحدة والسبعون

لا يجتمعان في قلب العبد الإخلاص ومحبة المدح والثناء، والطمع فيما عند الناس، كما لا يجتمع الماء والنار

فالإخلاص هو إفراد الله عز وجل بالقصد في العبادة وقيل: هو تجريد قصد التقرب إلى الله عز وجل عن جميع الشوائب.

وقيل: هو نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق عز وجل فكيف يجتمع الإخلاص ومحبة مدح الناس، أو الطمع فيما في أيدي الناس، وقد بين الله عز وجل أن العمل لا يقبل حتى يكون الدافع إليه إخلاص العمل لله عز وجل فقال عز وجل: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]

وقال النبي ﷺ: [إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبَلُ مِنَ العَمَلِ إِلاَّ مَا كَانَ لَهُ خَالِصاً، وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ] (١).

قال ابن القيم رحمه الله: لا يجتمع الإخلاص في القلب، ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس، إلا كما يجتمع الماء والنار، والضب والحوت.

فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص، فأقبل على الطمع أولاً فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح، سهل عليك الإخلاص.

---

(١) رواه النسائي (٦/ ٢٥) الجهاد، وقال الحافظ في تخريج الإحياء: وإسناده حسن، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٢٤): إسناده جيد.

فإن قلت: ما الذي يسهل على ذبح الطمع، والزهد في الثناء والمدح

قلتُ: أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقيناً أنه ليس من شيءٍ يطمع فيه إلا وبيد الله وحده خزائنه، لا يملكها غيره، ولا يؤتي العبد منها شيئاً سواه.

وأما الزهد في الثناء والمدح فيسهله عليك، علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين، ويضر ذمه ويشين إلا الله وحده، كما قال ذلك الأعرابي للنبي ﷺ: إن مدحي زين وذمِّي شين. فقال: ذلك الله عز وجل، فازهد في مدح ما لا يزينك مدحه، وفي ذم من لا يشينك ذمه، وارغب في مدح من كل الزين في مدحه، وكل الشين في ذمه، ولن يقدر على ذلك إلا بالصبر واليقين، فمتى فقدت الصبر واليقين، كنت كمن أراد السفر في البحر في غير مركب قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[1] [السجدة: ٢٤]

---

(١) الفوائد (١٩٥-١٩٦).

الخاطرة الثانية والسبعون

قال بعض السلف: من أحسن سريرته أحسن الله علانيته ومن أحسن ما بينه وبين الله أحسن الله ما بينه وبين الناس ومن شغله أمر دينه كفاه الله أمر دنياه

قال ابن الجوزي رحمه الله: إذا صح قصد العالم استراح من كلف التكلف، فإن كثيراً من العلماء يأنفون من قول لا أدري، فيحفظون بالفتوى جاههم عند الناس، لئلا يقال: جهلوا الجواب، وإن كانوا على غير يقين مما قالوا، وهذا نهاية الخذلان.

وقد روي عن مالك بن أنس أن رجلاً سأله عن مسألة فقال: لا أدري. فقال: سافرت البلدان إليك. فقال: ارجع إلى بلدك وقل: سألت مالكاً فقال: لا أدري.

فانظر إلى دين هذا الشخص وعقله، كيف استراح من الكلفة وسلم عند الله عز وجل.

ثم إن كان المقصود الجاه عندهم فقلوبهم بيد غيرهم.

ولقد رأيت من يكثر الصلاة والصوم والصمت، ويتخشع في نفسه، ولباسه، والقلوب تنبو عنه، وقدره في النفوس ليس بذاك، ورأيت من يلبس فاخر الثياب، وليس له كبير نفلٍ ولا تخشع، والقلوب تتهافت على محبته.

فتدبرت السبب فوجدته السريرة، كما روي عن مالك بن أنس أنه لم يكن له كبير عمل، من صلاة، وصوم، وإنما كانت له سريرة فمن أصلح سريرته فاح عبير فضله، وعبقت القلوب بنشر طيبه فالله الله في السرائر، فإنه ما ينفع مع فسادها صلاح ظاهر[1].

فمن أحسن سريرته، أحسن الله علانيته، ومن أحسن ما بينه وبين الله، أحسن الله ما بينه وبين الناس.

أما قوله: [ومن شغله أمر دينه، كفاه الله أمر دنياه] كما في بعض الآثار أن الله عز وجل أوحى إلى الدنيا فقال: يا دنيا اخدمي من خدمني واستخدمي من خدمك، ومن سر بخدمة الله عز وجل، سرت الأشياء كلها بخدمته، وقد ذكرنا في الخاطرة السادسة عشرة «أن أكمل حالات المؤمن أن يكون اشتغاله بطاعة الله عز وجل، والجهاد في سبيله، والدعوة إلى دينه والله عز وجل يسوق له الرزق»، كما كان من حال النبي ﷺ والصحابة الكرام، والعلماء الذين ملأوا الدنيا علماً وعبادة، ودعوة وجهاداً فنسأل الله تعالى أن يشغلنا بطاعته، وأن يسوق لنا الأرزاق من حيث لا نحتسب. والله المستعان.

(١) صيد الخاطر (٢٠٦، ٢٠٧).

الخاطرة الثالثة والسبعون

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾
[الأعراف: ٥٦]

وقع كثير من المسلمين فيما وقعت فيه المرجئة وهم الذين أرجأوا[1] العمل عن مسمى الإيمان، فقالوا الإيمان قول باللسان وتصديق بالجنان أي بالقلب وبعضهم لم يشترط قول اللسان أي النطق بالشهادتين، وقال غلاة المرجئة وهم الكرَّامية: الإيمان هو مجرد نطق اللسان بالشهادتين، ولم يشترطوا تصديق القلب، فمن نطق بالشهاذتين فهو مؤمن كامل الإيمان عند الكرامية. وقالت المرجئة كذلك بأنه لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله، وأن الله تعالى كما لا يقبل طاعات المشركين، فهو عز وجل كذلك يغفر ذنوب الموحدين، وقد رَدَّ الله عز وجل هذا الفكر الخاطئ فقال عز وجل: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣] وقال عز وجل: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦] وقال عز وجل: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزله: ٧-٨] فكثير من الناس اليوم يظنون أن رحمة الله عز وجل سوف تسوي يوم القيامة بين الطائع والعاصي والمسلمين والمجرمين، وذلك لأنهم فهموا الإسلام كفهم

(١) أرجأوا: أي أخروا.

المرجئة الذين جمعوا نصوص الرجاء، وفهموا من ذلك الشرع كله، وأعرضوا عن نصوص الوعيد، ومن أخذ الحكم العام من نص واحد أو مجموعة نصوص وأعرض عن بقية النصوص لا بد أن يضل. كما قال بعضهم: من عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالرجاء والخوف والمحبة فهو مؤمن موحد. فلا يفهم النص بمعزل عن الشرع والله عز وجل لم يقل إن رحمة الله قريب من المجرمين. وإنما قال عز وجل: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]

قال ابن القيم رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فيه تنبيه ظاهر على أن فعل هذا المأمور به هو الإحسان المطلوب منكم، ومطلوبكم أنتم من الله هو رحمته ورحمته قريب من المحسنين، الذين فعلوا ما أمروا به من دعائه خوفاً وطمعاً، فقرب مطلوبكم منكم وهو الرحمة، بحسب أدائكم لمطلوبه منكم وهو الإحسان الذي هو في الحقيقة إحسان إلى أنفسكم، فإن الله هو الغني الحميد، وإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم، وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ له دلالة بمنطوقه، ودلالة بإيمائه وتعليله، ودلالة بمفهومه، فدلالته بمنطوقه على قرب الرحمة من أهل الإحسان، ودلالته بتعليله وإيمائه على أن هذا القرب مستحق بالإحسان، فهو السبب في قرب الرحمة منهم، ودلالته بمفهومه على بعد الرحمة من غير المحسنين، فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة.

وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة منهم، لأنها إحسان من الله أرحم الراحمين، وإحسانه تعالى إنما يكون لأهل الإحسان، لأن الجزاء من جنس العمل، فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته، وأما من لم يكن من أهل الإحسان، فإنه لما بعد عن الإحسان، بعدت عنه الرحمة، بعداً ببعد، وقرباً بقرب، فمن تقرب بالإحسان تقرب الله إليه برحمته، ومن تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته، والله سبحانه يحب المحسنين، ويبغض من ليس من المحسنين، ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه، ومن أبغضه فرحمته أبعد شيء منه، والإحسان هنا هو فعل المأمور به، سواء كان إحساناً إلى الناس أو إلى نفسه، فأعظم الإحسان الإيمان، والتوحيد، والإنابة إلى الله، والإقبال عليه، والتوكل عليه، وأن يعبد الله كأنه يراه، إجلالاً ومهابة، وحياءاً، ومحبة، وخشية، فهذا مقام الإحسان، كما قال النبي ﷺ وقد سأله جبريل عن الإحسان فقال: [أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ][1] وإذا كان هذا هو الإحسان، فرحمة الله قريب من صاحبه، فإن الله إنما يرحم أهل توحيده المؤمنين به، وإنما كتب رحمته للذين يتقون، ويؤتون الزكاة، والذين هم بآياتنا يؤمنون، والذين يتبعون رسوله، فهؤلاء هم أهل الرحمة، كما أنهم هم المحسنون، وكما أحسنوا جوزوا بالإحسان وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان، يعني هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أن يحسن ربه إليه[2].

(١) رواه البخاري (١/ ١١٤) الإيمان، ومسلم (١/ ١٥٧، ١٥٨) الإيمان، وأبو داود (٤٦٧٠) السنة، والنسائي (٨/ ٩٧) الإيمان.

(٢) باختصار من « بدائع الفوائد » (٣/ ١٧، ١٨) ط. دار الكتاب العربي بيروت.

الخاطرة الرابعة والسبعون

«الدُّنيا سِجْنُ المؤمِنِ وجَنَّةُ الكافِرِ»[1]

قال ابن القيم رحمه الله: الدنيا سجن المؤمن فيه تفسيران صحيحان:

أحدهما: أن المؤمن قَيَّده إيمانه عن المحظورات، والكافر مطلق التصرف.

الثاني: أن ذلك باعتبار العواقب، فالمؤمن لو كان أنعم الناس فذلك بالإضافة إلى مآله في الجنة كالسجن، والكافر عكسه فإنه لو كان أشد الناس بؤساً فذلك بالنسبة إلى النار جنته[2].

وقال أيضا: طالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيره وطلبه إلا بحبسين: حبس قلبه في طلبه ومطلوبه، وحبسه على ذكر الله وما يزيد في إيمانه، ومعرفته، وحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات، وحبسها على الواجبات والمندوبات، فلا يفارق الحبس حتى يلقى ربه فيخلصه من السجن إلى أوسع فضاء وأطيبه، ومن لم يصبر على هذين الحبسين، وفر منهما إلى فضاء الشهوات، أعقبه ذلك الحبس الفظيع عند خروجه من الدنيا، فكل خارج من الدنيا إما تخلص من الحبس، وإما ذاهب إلى الحبس[3].

---

(١) رواه مسلم (رقم ٢٩٥٦) الزهد، والترمذي (٢٣٠٥) الزهد.
(٢) بدائع الفوائد (٣/١٧٧).
(٣) الفوائد (٧٠، ٧١).

وقال ابن الجوزي رحمه الله: يا هذا إنك لم تزل في حبسٍ، فأول المحبوس صلب الأب، والثاني بطن الأم، والثالث القماط، والرابع المكتب، والخامس الكد على العيال، والسادس الموت، والسابع القبر، فإذا وقعت في الثامن نسيت مرارة كل حبس، يا هذا ادخل حبس التقوى باختيارك أياماً، ليحصل لك الإطلاق في الأغراض على الدوام، ولا تؤثرن إطلاق نفسك فيما تحب لأنه يؤثر حبس الأبد في النار.

ويحكى أن الحافظ ابن حجر رحمه الله عندما كان كبير القضاة في مصر، مر بموكبه وأبهته على يهودي فقير، فسأل اليهودي عن هذا الحديث [الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر] فقال له الحافظ: ما أنا فيه من الغنى والأبهة بالنسبة إلى نعيم الجنة سجن، وما أنت فيه من الفقر والذل بالنسبة إلى ما ينتظرك عن عذاب الآخرة جنة، فأسلم اليهودي والله اعلم.

قال ابن الجوزي رحمه الله: يا محبوساً في سجن هواه متى تتخلص؟

لو عرفتنا ألفتنا

لنا أحباب، لهم ألباب، هم اللباب

شغلهم على الدوام المحراب

حاضرون معكم بالأبدان وبالقلوب غياب.

الخاطرة الخامسة والسبعون

من حكم القدماء:

- من أدلج في غياهب الليل، على نجائب الصبر، صَبَّحَ منزل السرور، ومن نام على فراش الكسل، أصبح ملقى بوادي الأسف.
- الجد كله حركة، والكسل كله سكون.
- فتورك عن السعي في طلب الفضائل، دليل على تأنيث العزم.
- إذا أردت أن تعرف الديك من الدجاجة وقت خروجه من البيضة، فعلقه بمنقاره، فإن تحرك، فديك وإلا فدجاجة.
- ما حظي الدينار بنقش اسم الملك فيه، حتى صبرت سبيكته على الترداد إلى النار، فنفت عنها كل خبث، ثم صبرت على تقطيعها دنانير، ثم صبرت على ضربها على السكة، فحينئذ يظهر عليها رقم النقش، فكيف في نقش ﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ ﴾ [المجادلة: ٢٢] من كله خبث.
- مكابدة البادية تهون عند ذكر الوادي المضحي بوادي الجوع، والمعشى بوادي السهر، إلى أن تلوح أعلام المنزل.
- إذا ونت الركاب في السير، فبثوا حداة العزم في نواحيها، يطيب لها السُّرى.
- العلم والعمل توأمان أمهما علو الهمة، والجهل والبطالة توأمان أمهما إيثار الكسل[1].

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم (٣/ ٢٢٤-٢٢٧) باختصار.

كان السلف ﷺ في غاية الاجتهاد في طاعة الله عز وجل، كان في التابعين ثلاثين تابعياً لو قيل لأحدهم القيامة غداً، ما استطاع أن يزيد شيئاً.

ما كفتهم الدنيا في طاعة الله عز وجل، وتمنوا لو سمح لهم بمواصلة العبادة في قبورهم.

– كان ثابت البناني يقول: يا رب إن أذنت لأحد أن يصلي في قبره فأذن لي.

– وبكى أحد السلف عند موته فسأل عن سبب بكائه فقال: أبكي لئن يصوم الصائمون ولست فيهم، ويصلي المصلون ولست فيهم.

– وبكى أحدهم عند موته: فسأل عن سبب بكائه فقال: والله ما أبكي على دنياكم، ولا أبكي على فراقكم، ولكن أبكي على ظمأ الهواجر – أي الصيام في الأيام شديدة الحر – وقيام ليالي الشتاء الطويلة.

أين وصفك من هذه الأوصاف، أين شجرة الزيتون من شجر الصفصاف لقد قام القوم وقعدت، وجدوا في الجد وهزلت.

ما بيننا وبين القوم، إلا كما بين اليقظة والنوم.

قال ابن الجوزي: إخواني أيام العافية غنيمة باردة، وأوقات السلامة لا تشبهها فائدة، فتناول ما دامت لديك المائدة، فليست الساعات الذاهبات بعائدة.

مضى أمسك الماضي شهيداً معدلاً ... وأعقبه يوم عليك شهيد
فإن تك بالأمس اقترفت إساءة ... فبادر بإحسان وأنت حميد
ولا تبق فعل الصالحات إلى غدٍ ... لعل غداً يأتي وأنت فقيد
إذا ما المنايا أخطأتك وصادفت ... حميمك فاعلم أنها ستعود

كأنكم بالقيامة قد قامت، وبالنفس الأمارة بالسوء قد لامت، وانفتحت عيون طالما نامت، وتحيرت قلوب العصاة وهامت.

غداً توفي النفوس ما كسبت ... ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم ... وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

الخاطرة السادسة والسبعون

حسن الخلق مطلوب مع الناس كافة مؤمنهم وكافرهم ومبتدعهم

فلعل الكافر يرغب في الإسلام، والمتبدع يرغب في سنة النبي ﷺ.

قال شيخنا محمد بن اسماعيل: وأمر الله تعالى بحسن الخلق مع الناس كافة، ولم يستثن فقال عَزَّ من قائل: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣] وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ قال: يعني الناس كلهم. وعن عطاء قال: للناس كلهم، المشرك وغيره.

وقال القرطبي رحمه الله: (قال أبو العالية: قولوا لهم الطيب من القول، وجازوهم بأحسن ما تحبون أن تجازوا به)، وهذا كله حَضٌّ على مكارم الأخلاق، فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس ليناً، ووجهه منبسطاً طلقاً، مع البر والفاجر، والسني والمبتدع، من غير مداهنة ولا موالاة محرمة، ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يَرْضَى مذهبه، لأن الله تعالى قال لموسى وهارون: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا﴾ [طه:٤٤] فالقائل ليس بأفضل من موسى وهارون، والفاجر ليس بأخبث من فرعون، وقد أمرهما الله تعالى باللين معه.

وقال طلحة بن عمر: قلت لعطاء: «إنك رجل يجتمع عندك ناس ذوو أهواء مختلفة، وأنا رجل فيَّ حدة، فأقول لهم بعض القول الغليظ: فقال: لا تفعل، يقول الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ فدخل في هذه الآية اليهود والنصارى فكيف بالحنيفي.

وعن أبي سنان قال: قلت لسعيد بن جبير رحمه الله: المجوسي يوُليني من نفسه، ويسلم عليَّ، أفأرد عليه؟

فقال سعيد: سألت ابن عباس رضي الله عنهما عن نحو من ذلك؟

فقال: لو قال لي فرعون خيراً لرددت عليه[1].

قلت: وحسن الخلق من أعظم أسباب الارتفاع في درجات الجنة، والعبد يبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم، وقد قال النبي ﷺ: [اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ] فحسن الخلق مطلوب مع كل الناس، وأهل الإحسان يدرأون بالحسنة السيئة، ولا يحسنون إلا الخلق الحسن، وحسن الخلق مع الناس كافة كما أشارت الآية الكريمه: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣] وكما أشار الحديث: [وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ] شيء والغلظة على الكافرين والمنافقين والمبتدعين شيء آخر، فنسأل الله تعالى كما حَسَّن خَلْقَنا أن يحسن خُلُقنا.

---

(١) حرمة أهل العلم (٧،٦) دار العقيدة الطبعة السادسة.



الخاطرة السابعة والسبعون

النعم ثلاثة، والشكر بالقلب واللسان والجوارح وشكر من أتت النعمة على يديه

قال ابن القيم رحمه الله: النعم ثلاثة: نعمة حاصلة يعلم بها العبد، ونعمة منتظرة يرجوها، ونعمة هو فيها لا يشعر بها.

فإذا أراد الله تعالى إتمام نعمته على عبده عرفه نعمته الحاضرة، وأعطاه من شكره قيداً يقيدها به حتى لا تشرد، فإنها تشرد بالمعصية، وتقيد بالشكر، ووفقه لعمل يستجلب به النعمة المنتظرة، وبصره بالطرق التي تسدها وتقطع طريقها، ووفقه لاجتنابها، وإذا بها قد وافت إليه على أتم الوجوه. وعرفه النعمة التي هو فيها ولا يشعر بها.

ويحكى أن أعرابياً دخل على الرشيد فقال، أمير المؤمنين ثبت الله عليك النعم التي أنت فيها، بإدامة شكرها، وحقق لك النعم التي ترجوها بحسن الظن به، ودوام طاعته، وعَرَّفك النعم التي أنت فيها ولا تعرفها لتشكرها.

فأعجبه ذلك منه، وقال: ما أحسن تقسيمه[1].

والشكر هو الثناء على المنعم، بما أولاكه من معروف، ويدور على القلب واللسان والجوارح. فالقلب لمعرفة النعمة، وأنها من عند الله عز وجل ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ** ﴾ [النحل: ٥٣]

﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا** ﴾ [إبراهيم: ٣٤]

---

(١) الفوائد (٢٢٤).

واللسان لحمد الله عز وجل: والتحدث بنعمه كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١]

والجوارح لاستعمال النعمة في طاعة الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣]

وكان النبي ﷺ يصلي حتى تتورم ساقاه، وتفطر قدماه، فيقال له: أتفعل ذلك وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك، وما تأخر؟ قال: « أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا »(١) بل هو بأبي وأمي سيد الشاكرين وسيد الصابرين ﷺ وهناك بند رابع للشكر، قلَّ من تنبه له، أو نبه عليه، وهو أن تشكر من أتت النعمة على يديه، ودل على ذلك قوله ﷺ: [من لم يشكر الناس لم يشكر الله]

وقد جزم الله عز وجل بجزاء الشاكرين ولم يعلقه بالمشيئة فقال: ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]

وقال تعالى: ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٥]

ولما عرف إبليس قدر مقام الشكر، وأنه من أجل المقامات وأعلاها، جعل غاتيه في قطع الناس عنه فقال: ﴿ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧] ووصف الله عز وجل الشاكرين من عباده بأنهم قليل، فقال عز وجل: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣] وأخبر سبحانه إنما يعبده من شكره، فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته فقال تعالى: ﴿ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٢] وأخبر تعالى أن رضاه في شكره فقال تعالى: ﴿ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: ٧]

(١) رواه البخاري (٣/ ٤١) التهجد، ومسلم (١٧/ ١٦٢) صفات المنافقين والترمذي (٢/ ٢٠٤، ٢٠٥) الصلاة، والنسائي(٣/ ٢١٩) قيام الليل.

الخاطرة الثامنة والسبعون

أعجل الناس عقوبة الباغي الظالم

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾ [يونس:٢٣] فلسرعة العقوبة بالباغي على بغيه، فكأنه بغي على نفسه.

أرسل الأمير نوح إلى أهل سمرقند كتاباً، يأمر بأخذ الخراج منهم، فجمع أميرها الفقهاء، وقرأ عليهم رسالة الأمير، فرد عليه أبو منصور الفقيه، قد بلغت رسالة الأمير، فاردد إليه الجواب: زدنا ظلماً حتى نزيد في دعاء السحر، فلم تمض أياماً حتى وجدوه مقتولاً، وفي بطنه زج رمح كتب عليه:

بغى والبغي سهام تنتظر رمته بأيدي المنايا والقدر
سهام أيدي القانتات في السحر يرمين عن قوس لها الليل وتر

قال ابن القيم رحمه الله: من نبت جسمه على الحرام فمكسبه بريت به يوقد عليه.

الحجر المغضوب في البناء أساس الخراب، أتراهم نسوا طيّ الليالي لمن تقدمهم، وما بلغوا معشار ما أتيناهم فما هذا الاغترار، وقد خلت من قبلهم المثلات، فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم، من لهم إذا طلبوا العودة فحيل بينهم وبين ما يشتهون، سبحان الله كم بكت في تنعم الظالم عين أرملة، واحترقت كبد يتيم، وجرت دمعة مسكين ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ [المرسلات:٤٦] ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص:٨٨]

ما ابيض لون رغيفهم حتى اسود لون ضعيفهم، وما سمنت أجسامهم حتى انتحلت أجسام ما استأثروا عليه، لا تحتقر دعاء المظلوم فشرر قلبه محمول بعجيج صوته إلى سقف بيتك، ويحك نبال أدعيته مصيبة، وإن تأخر الوقت، قوسه قلبه المقروح، ووتره سواد الليل، وأستاذه صاحب [لأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِيْنٍ] (١).

وقد رأيت، ولكن لست تعتبر، احذر عداوة من ينام وطرفه باكٍ يقلب وجهه في السماء، يرمي سهاماً ما لها غرض سوى الأحشاء منك، فربما ولعلها إذا كانت راحة اللذة تثمر ثمر العقوبة لم يحسن تناولها، ما تساوي لذة سنة غم ساعة، فكيف والأمر بالعكس. كم في يم الغرور من تمساح فاحذر يا غائص، ستعلم أيها الغريم قصتك عند تعلق الغرماء بك.

إذا التقى كل ذي دين وماطله ستعلم ليلى أي دين تداينت

من لم يتبع بمنقاش العدل شوك الظلم من أيدي التصرف أثر ما لا يؤمن تعديه إلى القلب (٢).

---

(١) رواه الترمذي (١٠/٥ عارضة) أبواب صفة الجنة وقال: هذا الحديث ليس إسناده بذاك القوى وليس هو عندي بمعتل، ورواه أحمد (٣٠٥-٤٤٥) وحسنه في تحقيق جامع الأصول بشواهده.

(٢) باختصار من بدائع الفوائد (٣/٢٤٢).

الخاطرة التاسعة والسبعون

الدنيا كامراءة بَغِيّ لا تثبت مع زوج

قال ابن القيم رحمه الله: الدنيا كامراءة بَغِيّ لا تثبت مع زوج، إنما تخطب الأزواج ليستحسنوا عليها فلا ترضى بالدياثة

ميزت بين جمالها وفعالها ... فإذا الملاحة بالقباحة لا تفي
حلفت لنا أن لا تخون عهودنا ... فكأنها حلفت لنا أن لا تفي

السير في طلبها سير في أرض سَبْعَةٍ، والسباحة فيها سباحة في غدير التمساح، المفروح به منها هو عين المحزون عليه، آلامها متولدة من لذاتها، وأحزانها من أفراحها.

لما عرف الموفقون قدر الحياة الدنيا، وقلة المقام فيها أماتوا فيها الهوى طلباً -لحياة الأبد، ولما استيقظوا من نوم الغفلة استرجعوا بالجد ما انتهبه العدو منهم في زمن البطالة، فلما طالت عليهم الطريق تلمحوا المقصد، فقرب عليهم البعيد، وكلما أمرَّت لهم الحياة حلى لهم تذكر ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1] [الأنبياء:١٠٣].

الدنيا مثل قطعة الثلج رخيصة الثمن ومع ذلك تذوب لا تبقى، والآخرة مثل الجوهرة غالية الثمن ولا تذوب، وإنما ينشأ الزهد في الدنيا من اليقين بقول الله عز وجل ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى:١٧] فقاب قوس في الجنة خير من الدنيا وما فيها، وأدنى أهل الجنة منزلة له مثل الدنيا وعشرة أمثالها.

---

(١) الفوائد (٦٠، ٦١) باختصار.

فأشبه شيء، بالدنيا سراب تحسب أن له حقيقة فإذا أتيته لم تجده شيئاً وأشبه شيء بها ظل تحسب أن له بقاء، وهو في تقلص وإلى زوال، وأشبه شيء بها امرأه عجوز شمطاء شوهاء تزينت للخطاب، وسترت كل قبيح، فاغتر بها من لم يجاوز بصره ظاهرها، فطلب النكاح، فقالت: لا مهر إلا فقد الآخرة، فاجتماعنا غير مأذون فيه ولا مستباح، فلما خلا بها وكشف قناعها إذا كل آفة وبلية، فمنهم من طلق واستراح، ومنهم من آثر المقام، فما استتمت ليلة عرسه إلا بالصراخ والعويل، تالله لقد أذن مؤذنها على رؤوس الخلائق بحي على غيز الفلاح.

قال بعضهم:

إن كنت يا صاح لبيباً حازماً — فكن لأسباب الهوى مراغما

لا تهو دنياك فإن حبها — رأس الخطايا تكسب المآثما

غرارة بكل من حلت له — لابد أن تذيقه العلاقما

وإنما تخدم من أهانها — كما تهين من أتاها خادما

فكن بها مثل غريبٍ — أزواده على الرحيل عازما

وبادر الأيام قبل فواتها — مخاصماً للنفس أو مسالما

فإنما عمر الفتى سوقٌ له — يروح عنها خاسراً أو غانما

الدنيا دار كدر، بذلك جرى القدر، فإن صفا عيش لحظة ندر، ثم عاد التخليط فيذر، الورود فيها كالصدر، ودم قتيلها هدر.

لله در أقوام علموا قرب الرحيل، فهيئوا آلة السفر، وهونوا بالدنيا فقنعوا منها بما حضر، واستوثقوا بقفل التقوى من أذى النطق والنظر، ما لك خبر بحالهم، ولا عندك منهم خبر.

قاموا في الجد وقعدت، وسهروا في الدجى ورقدت، طالما نصبوا في خدمة الملك، وناقشوا أنفسهم مناقشة مماحك، وآثروا بالزاد فزادوا على البرامك، واختبروا بالبلى كالتبر عند السابك، هذه طريقتهم فأين السالك.

الخاطرة الثمانون

بين العلماء والعباد

قال ابن الجوزي رحمه الله: تأملت المراد من الخلق، فإذا هو الذل، واعتقاد التقصير والعجز.

ومثلت العلماء والزهاد العاملين صفين: فأقمت في صف العلماء مالكا، وسفيان وأبا حنيفة، والشافعي، وأحمد، وفي صف العباد مالك بن دينار، ورابعة، ومعروف الكرخي، وبشر بن الحارث.

فكلما جد العباد في العبادة، وصاح بهم لسان الحال، عباداتكم لا يتعداكم نفعها، وإنما يتعدى نفع العلماء، وهم ورثة الأنبياء، وخلفاء الله في الأرض، وهم الذين عليهم المعول، ولهم الفضل، إذا أطرقوا، وانكسروا، وعلموا صدق تلك الحال، وجاء مالك بن دينار إلى الحسن يتعلم منه، ويقول: الحسن أستاذنا.

وإذا رأى العلماء أن لهم بالعلم فضلاً، صاح لسان الحال بالعلماء، وهل المراد من العلم إلا العمل.

وقال أحمد بن حنبل: وهل يراد بالعلم إلا ما وصل إليه معروف.

وقالت أم الدرداء لرجل: هل عملت بما علمت؟ قال: لا. قالت: فلم تستكثر من حجة الله عليك؟

وقال أبو الدرداء: ويل لمن لم يعلم ولم يعمل مرة، وويل لمن علم ولم يعمل سبعين مرة.

وقال الفضيل: يغفر للجاهل سبعون ذنباً، قبل أن يغفر للعالم ذنبٌ واحدٌ. فدل العلماءَ العلمُ على أن المقصود منه العمل به، وأنه آلة فانكسروا، واعترفوا بالتقصير.

فحصل الكل على الاعتراف والذل، فاستخرجت المعرفة منهم حقيقة العبودية باعترافهم فذلك هو المقصود من التكليف[1].

ولاشك في أن انتفاع الأمة بمالك، وسفيان، وأحمد، والشافعي وغيرهم من العلماء كان أعظم من انتفاعها بأخبار إبراهيم بن أدهم، والفضيل ومعروف ومالك بن دينار، وبشر بن الحارث، فإن العلماء هم ورثة الأنبياء فمثلهم كمثل النجوم التي يهتدى بها في البر والبحر. قال سفيان بن عيينه: أشرف الناس منزلة من كان بين الله وبين عباده، وهم الأنبياء والعلماء.

وإن كان العباد والزهاد يدعون إلى الله عز وجل بلسان حالهم، وباجتهادهم في طاعة ربهم عز وجل، فإن علماء الأمة الذين لمعوا في سماء المجد والرفعة جمعوا إلى علمهم العبادة والطاعة، والزهد والورع، والنصح لأئمة المسلمين وعامتهم، فأين في العباد والزهاد مثل إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل، والإمام الشافعي، أو سفيان الثوري رحمهم الله وقد شبه بعض العلماء العباد مع الله عز وجل ولله المثل الأعلى، بملك أمر رعيته بأوامر معينة يلتزمون بها، وأحوال يكونون عليها، فاجتهد العباد في تنفيذ هذه الأوامر، والوصول إلى هذه

(١) صيد الخاطر (٤٣، ٤٤) باختصار.

الأحوال التي يحبها الملك، حتى وردوا على الملك وهم على أشرف حال، وقد نفذوا ما أمرهم الملك به، وانتهوا عما نهاهم عنه، واقتصروا على ذلك. أما العلماء فإنهم نفذوا أيضاً أوامر الملك، وانتهوا عما نهاهم عنه، ودعوا الناس إلى العمل بأوامره والانتهاء عما نهى عنه، فأجابهم خلق كثير، فوردوا على الملك بالأحوال التي يحبها الملك. ومعهم جمع غفير عمل بعملهم، ووصل إلى ما وصلوا إليه مما يحبه الملك. فلاشك في أنهم يكونون أحب إلى الملك، وأكثر تقريبا فبان شرف العلم والعلماء.

الخاطرة الواحدة والثمانون

قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥-١٧]

قال العلامة السعدي: يخاطب تعالى جميع الناس، ويخبرهم بحالهم، ووصفهم وأنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه:

فقراء في إيجادهم، فلولا إيجاده إياهم، لم يوجدوا، فقراء في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، التي لولا إعداده إياهم بها لما استعدوا لأي عمل كان.

فقراء في إمدادهم بالأقوات، والأرزاق، والنعم الظاهرة، والباطنة، فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور، لما حصل لهم من الرزق، والنعم شيءٌ.

فقراء في صرف النقم عنهم، ودفع المكاره وإزالة الكروب والشدائد، فلولا دفعه عنهم وتفريجه لكرباتهم، وإزالته لعسرهم لاستمرت عليهم المكاره أو الشدائد.

فقراء إلى تربيتهم بأنواع التربية، وأجناس التدبير.

فقراء إليه في تألههم له، وحبهم له وتعبدهم، وإخلاص العبادة له تعالى، فلو لم يوفقهم لذلك لهلكوا، وفسدت أرواحهم، وقلوبهم، وأحوالهم. فقراء إليه في تعليمهم ما لا يعلمون، وعملهم بما يصلحهم، فلولا تعليمه لم يتعلموا، ولولا توفيقه لم يصلحوا، فهم

فقراء بالذات إليه بكل معني، وبكل اعتبار، سواء شعروا ببعض أنواع الفقر، أم لم يشعروا.

ولكن الموفق منهم الذي لا يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرع له، ويسأله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، وأن يعينه على جميع أموره، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت، فهذا حري بالإعانة التامة من ربه، وإلهه الذي هو أرحم به من الوالدة بولدها.

﴿ **وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾ أي الذي له الغنى التام من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه، ولا يفتقر إلى شيء مما يفتقر إليه الخلق، وذلك لكمال صفاته، وكونها كلها صفات كمال، ونعوت جلال، ومن غناه تعالى أن قد أغني الخلق في الدنيا والآخرة، فهو الحميد في ذاته، وأسمائه لأنها حسنى وأوصافه لكونها عليا، وأفعاله، لأنها فضل وإحسان، وعدل، وحكمة، ورحمة، وفي أوامره ونواهيه، فهو الحميد على ما فيه من الصفات، وعلى ما منه من الفضل والإنعام وعمل الجزاء بالعدل، وهو الحميد في غناه، الغني في حمده.

﴿ **إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ** ﴾ يحتمل أن المراد: إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بغيركم من الناس أطوع لله منكم، ويكون في هذا تهديد لهم بالهلاك والإبادة، وأن مشيئته غير قاصرة عن ذلك، ويحتمل أن المراد بذلك إثبات البعث والنشور، وأن مشيئة الله تعالى نافذة في كل شيء، وفي إعادتكم بعد موتكم خلقاً جديداً، ولكن لذلك الوقت أجل قدره الله، لا يتقدم عنه، ولا يتأخر ﴿ **وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ** ﴾ أي بممتنع، ولا معجز له[1].

(١) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٢١١،٢١٢) ط. المدني.



الخاطرة الثانية والثمانون

قال شقيق بن إبراهيم البلخي: أغلق باب التوفيق على الخلق من ستة أشياء: «اشتغالهم بالنعمة عن شكرها، ورغبتهم في العلم وتركهم العمل، والمسارعة إلى الذنب وتأخير التوبة، والاغترار بصحبة الصالحين وترك الاقتداء بفعالهم، وإدبار الدنيا عنهم وهم يتبعونها، وإقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها».

قال ابن القيم رحمه الله: وأصل ذلك عدم الرغبة والرهبة، وأصله ضعف اليقين، وأصله ضعف البصيرة، وأصله مهانة النفس ودناءتها واستبدال الذي هو أدني بالذي هو خير، وإلا فلو كانت النفس شريفة كبيرة لم ترض بالدون، فأصل الخير كله بتوفيق الله ومشيئته، وشرف النفس ونبلها وكبرها، وأصل الشر خستها ودناءتها وصغرها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠] أي أفلح من كبرها وكثرها ونماها بطاعة الله، وخاب من صغَّرها وحقَّرها بمعاصي الله.

فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها، وأفضلها، وأحمدها عاقبة، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات، وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار، فالنفوس الشريفة العلية لا ترضى بالظلم، ولا بالفواحش، ولا بالسرقة والخيانة، لأنها أكبر من ذلك

وأجل، والنفوس المهينة الحقيرة الخسيسة بالضد من ذلك، فكل نفس تميل إلى ما يناسبها ويشاكلها، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء:٨٤] أي على ما يشاكله ويناسبه، فهو يعمل على طريقته التي تناسب أخلاقه وطبيعته، وكل إنسان يجري على طريقته ومذهبه وعاداته التي ألفها وجبل عليها، فالفاجر يعمل بما يشبه طريقته من مقابلة النعم بالمعاصي، والإعراض عن المنعم، والمؤمن يعمل بما يشاكله من شكر المنعم، ومحبته، والثناء عليه، والتودد إليه، والحياء منه، والمراقبة له، وتعظيمه وإجلاله[1].

ولاشك في أن هذه الأبواب الستة، وإن ظهرت كأنها أبواب مستقلة، فإنها ترجع إلى شيء واحد كما قال شيخ الإسلام ابن القيم عدم التوفيق، وعدم التوفيق هو خذلان من الله عز وجل، وهو ناتج عن ضعف اليقين والمحبة، فإذا تولى العبد ربه عز وجل بالمحبة والطاعة والذب عن شريعته، واتباع سنة نبيه ﷺ، فإن الله عز وجل يتولاه بالمحبة، والتوفيق لشكر نعم الله عز وجل عليه، والمبادرة بالتوبة إن بدرت معصية، وذلك لأن توبة العبد محفوفة بتوبتين من الله عز وجل، توبة إذن وتوفيق وتوبة قبول وإثابة، كذلك يوفق العبد للأعمال الصالحة، والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة:٢٥٧] وكذا حرص

(١) الفوائد (٢٢٩، ٢٣٠).

العبد على الطاعة والخير والصلاح من أسباب التوفيق لكل خير، كما قال النبي ﷺ : [إِنَّمَا العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَالحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّ الخَيْرَ يُعْطَه، وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَ يُوْقَه][1] .

فمهما كان العبد حريصاً على طاعة الله عز وجل وطلب رضاه، فلا بد أن يوفقه الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾ [العنكبوت:٦٩]

(١) سبق تخريجه.

الخاطرة الثالثة والثمانون

ليس شيءٌ أنفع للعبد من صدق العزيمة والصدق في العمل

قال ابن رجب رحمه الله: والعزيمة هي القصد الجازم المتصل بالفعل.

ولا قدرة للعبد على ذلك إلا بالله، فلهذا كان أهم الأمور سؤال الله العزيمة على الرشد.

والرشد هو طاعة الله عز وجل ورسوله ﷺ.

كان النبي ﷺ يقول في خطبته: [مَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُوْلَهُ فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصَ اللهَ وَرَسُوْلَهُ فَقَدْ غَوَى] (١).

والرشد ضد الغي قال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦] والعزم نوعان:

أحدهما: عزم المريد على الدخول في الطريق، وهو من البدايات.

والثاني: العزم على الاستمرار على الطاعات بعد الدخول فيها، وعلى الانتقال من حال كامل إلى حالٍ أكمل منه، وهو من النهايات، فالعزم الأول يحصل للعبد به الدخول في كل خير، والتباعد عن كل شر إذ به يحصل للكافر الخروج من الكفر والدخول في الإسلام، وبه يحصل للعاصي الخروج من المعصية، والدخول في الطاعة.

فإذا كانت العزيمة صادقة صمم عليها صاحبها، وحمل على هوى نفسه وعلى الشيطان حملة صادقة، ودخل فيما أمر به من الطاعات فقد فاز.

---

(١) رواه مسلم رقم (٧٨٠).

ومعونة الله للعبد على قدر عزيمته وضعفها، فمن صمم على إرادة الخير أعانه وثبته.

الخير كله منوطٌ بالعزيمة الصادقة على الرشد.

قال أبو حازم: إذا عزم العبد على ترك الآثام أتته الفتوح.

يشير إلى ما يفتح عليه بتيسير الإنابة والطاعة، ومقامات العارفين.

سئل بعض السلف متى ترتحل الدنيا من القلب؟ قال: إذا وقعت العزيمة ترحلت الدنيا من القلب، ودرج القلب في ملكوت السماء، وإذا لم تقع العزيمة اضطرب القلب ورجع إلى الدنيا.

من صَدَق العزيمة يئس منه الشيطان، ومتى كان العبد متردداً طمع فيه الشيطان وسوفه ومنَّاه:

يا هذا كلما رآك الشيطان قد خرجت من مجلس الذكر كما دخلت، وأنت غير عازم على الرشد، فرح بك إبليس، وقال: قد فديت من لا يفلح! يا من شاب ولا تاب، ولا عزم على الرشد ولا أناب، لقد أفرحت الشيطان، وأسخطت الرحمن.

وإذا تكامل للفتى من عمره ... خمسون وهو إلى التقى لا يجنح

عكفت عليه المخزيات فما له ... متأخر عنها ولا متزحزح

وإذا رأى الشيطان غرة وجهه ... حَيَّا وقال فديت من لا يفلح[1]

وقال ابن القيم رحمه الله، ليس للعبد أنفع من صدقه ربه في جميع أموره، مع صدق العزيمة، فيصدق في عزمه وفي فعله، قال تعالى: ﴿ **فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ** ﴾ [محمد: ٢١] فسعادته في

(١) باختصار من مجموع رسائل ابن رجب الحنبلي (١/ ٣٤٤-٣٤٨) ط. دار الفاروق الحديثة.

صدق العزيمة وصدق الفعل، فصدق العزيمة جمعها وجزمها وعدم التردد فيها، بل تكون عزيمة لا يشوبها تردد، ولا تلوم، فإذا صدقت عزيمته بقي عليه صدق الفعل، وهو استفراغ الوسع، وبذل الجهد فيه، وأن لا يتخلف عنه بشيء من ظاهره وباطنه. فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الإرادة والهمة، وصدق الفعل يمنعه من الكسل والنفور، ومن صدق الله في جميع أموره صنع الله له فوق ما يصنع لغيره، وهذا الصدق معنى يلتئم من صحة الإخلاص. وصدق التوكل، فأصدق الناس من صح إخلاصه وتوكله[1].

---

(١) الفوائد (٢٤٠-٢٤١).

الخاطرة الرابعة والثمانون

قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[نوح:١٣]

قال ابن القيم رحمه الله: من أعظم الظلم والجهل أن تطلب التعظيم، والتوقير لك من الناس، وقلبك خالٍ من تعظيم الله وتوقيره، فإنك توقر المخلوق وتجله أن يراك في حال لا توقر الله أن يراك عليها، قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[نوح:١٣] أي لا تعاملونه معاملة من توقرونه، والتوقير العظمة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾[الفتح:٩]

قال الحسن: ما لكم لا تعرفون لله حقاً، ولا تشكرونه.

وقال مجاهد: لا تبالون عظمة ربكم.

وقال ابن زيد: لا ترون لله طاعة.

وقال ابن عباس: لا تعرفون حق عظمته.

وهذه الأقوال ترجع إلى معنى واحد، وهو أنهم لو عظموا الله وعرفوا حق عظمته، وحدوه، وأطاعوه وشكروه، فطاعته سبحانه واجتناب معاصيه، والحياء منه بحسب وقاره في القلب، ولهذا قال بعض السلف: ليعظم وقار الله في قلب أحدكم أن يذكره عندما يستحي من ذكره، فيقرن اسمه به كما يقول: قبح الله الكلب والخنزير والنتن ونحو ذلك، فهذا من وقار الله، ومن وقاره أن لا تعدل به شيئا من خلقه، لا في اللفظ بحيث تقول: والله وحياتك: ما لي إلا الله وأنت، وما شاء الله وشئت، ولا في الحب والتعظيم والإجلال، ولا في الطاعة فتطيع المخلوق في أمره ونهيه كما تطيع الله بل أعظم، كما عليه أكثر الظلمة

والفـجـرة، ولا في الخـوف والرجـاء، ويجـعـله أهون الناظرين إليـه، ولا يستهين بحقه. ويقول: هو مبني على المسامحة، ولا يجعله على الفضلة، ويقدم حق المخلوق عليه، ولا يكون الله ورسوله في حدٍ وناحيةٍ والناس في ناحية وحدٍ، فيكون في الحد والشق الذي فيه الناس، دون الحد والشق الذي فيه الله ورسوله، ولا يعطي المخلوق في مخاطبته قلبه ولبه ويعطي الله في خدمته لسانه دون قلبه وروحه، ولا يجعل مراد نفسه مقدماً على مراد ربه.

فهذا كله من عدم وقار الله في القلب ومن كان كذلك فإن الله لا يلقي له في قلوب الناس وقاراً ولا هيبة، بل يسقط وقاره وهيبته من قلوبهم، وإن وقروه مخافة شره، فذاك وقار بغض لا وقار حُبٍّ وتعظيم.

ومن وقار الله أن يستحي من اطلاعه على سره، وضميره، فيرى فيه ما يكره، ومن وقاره أن يستحي منه في الخلوة أعظم مما يستحي من أكابر الناس.

والمقصود أن من لا يوقر الله وكلامه، وما آتاه من العلم والحكمة كيف يطلب من الناس توقيره وتعظيمه، والقرآن والعلم وكلام الرسول ﷺ صلات من الحق، وتنبيهات وروادع وزواجر واردةٌ إليك، والشيب زاجر، ورادع، وموقظ قائم به، فلا ما ورد إليك وعظك، ولا ما قام بك نصحك، ومع هذا تطلب التوقير والتعظيم من غيرك، فأنت كمصاب لم تؤثر فيه مصيبته وعظاً وانزجاراً، وهو يريد الانزجار ممن نظر إلى ضُرّه[1].

(١) الفوائد (٢٤٢، ٢٤٣).

الخاطرة الخامسة والثمانون

يجب على من لا يدري متى يبغته الموت أن يكون مستعداً
ولا يغتر بالشباب والصحة
فإن أقل من يموت الأشياخ وأكثر من يموت الشبان
ولهذا يندر من يكبر

يُعَمَّرُ واحدٌ فيغرُّ قوماً ويُنْسَى مَنْ يَموتُ مَنْ الشّبَابِ

ومن الاغترار طول الأمل، وما من آفة أعظم منه، فإنه لولا طول الأمل ما وقع إهمال أصلاً، وإنما يقدم المعاصي ويؤخر التوبة لطول الأمل، وتبادر الشهوات وتنسى الإنابة لطول الأمل.

ولا تمسي حتى تنظر فيما مضى من يومك، فإن رأيت زله فامحها بتوبة، أو خرقاً فارقعه باستغفار، وإذا أصبحت فتأمل ما مضى في ليلك، وإياك والتسويف فإنه أكبر جنود إبليس[1].

أين من كان في سرور وغبطة، أين من بسط اليد في بسيط البسطة، لقد أوقعهم الموت في أصعب خطة، جسروا على المعاصي فانقلبت على الجيم النقطة، بينما هم في الخطأ خطا إليهم صاحب الشرطة، هذا دأب الزمان فإن صفا فلحظة، كم تخون الموت منّا إخوانا، وكم قرن في الأجداث أقرانا، كم مترف أبدله القبر ديدانا، وهذا أمر إلينا قد تدانى، كم معد عوداً لعيده صارت ثيابه أكفانا.

(١) صيد الخاطر (١٩٢).

إخـواني: تـفكروا في الـذين رحلـوا أين نـزلوا، وتذكـروا أن القـوم نوقـشوا وسئلوا، واعلمـوا أنكـم كـمـا تعزلون عـزلوا، ولقـد ودوا بعـد الفوات لو قبلوا.

سـألت الدار تخبـرني ... عن الأحـبـاب مـا فـعلوا
فـقـالت لي أناخ القـوم ... أيـامـاً وقـد رحلُـوا
فـقلت فـأين أطلبـهم ... وأي مـنـازل نـزلُـوا
فـقـالت بالقـبور وقـد ... لقـوا والله مـا فـعلُوا
أنـاسٌ غـرَّهـم أمـلٌ ... فـبـادرهم بـه الأجلُ
فـنـوا وبـقـى عـلـى الأيـام ... مـا قـالُوا ومـا عـملُوا
وأُثبتَ في صـحـائفـهم ... قـبـيح الفـعلِ والزللُ
فـلا يسـتـعـتبـون ولا ... لهم ملجـأ ولا حـيلُ
ندامـى في قـبـورهم ... ومـا يغني وقـد حـصلُوا

أين من كانت الألسن تهذي بهم، لتهذيبهم
وأصبحت فلك الاختبار تجري بهم، لتجريبهم
أقامت قيامتهم منادي الرحيل، لتُغْري بهم لتَغْرِيبهم
فباتوا في القبور وحداناً، لا أنيس لغريبهم
أين أهل الوداد الصافي في التصافي
أين الفصيح الذي إن شاء أنشأ في القول الصافي
أين قصورهم التي تضمنتها مدايح الشعراء، وصار ذكر القوى في القوافي
لقد نادى الموت أهل العوالي، والقصور العوالي الطوافي

ألا للمـوت كـأسٌ أي كـاسِ ... وأنت لكأسـه لابُدَّ حـاسِي
إلى كَمْ والمَمـاتُ إلى قَـرِيبٍ ... تذكـر بالممَـاتِ وأنتَ نَاسِي

الخاطرة السادسة والثمانون

الفرق بين المؤمن الشاكر والكافر الجاحد

لما أنعم الله عز وجل على قارون وأعطاه من الكنوز ما إن مفاتيحه لتنوء بالعصبة أولي القوة جحد نعمة الله عز وجل وفضله عليه، وزعم أنه يستحق هذا الرزق، وأن الله عز وجل أعطاه لفضله وكرامته عنده فقال: ﴿ **إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي** ﴾ [القصص: ٧٨]

ولما أنعم الله عز وجل على نبيه سليمان عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بالملك والنبوة، وتسخير الجن والطير، والسحاب، قال: ﴿ **لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ** ﴾ [النمل: ٤٠] ولم يقل هذا الفضل عندي اختصني الله بذلك، وهذا هو الفرق بين المؤمن الشاكر والكافر الجاحد، فالمؤمن يرى كل نعمة أنعم الله عز وجل بها عليه صدقة تصدق الله عز وجل بها عليه، دون استحقاق منه، ومحض فضل من الله عز وجل، والكافر الجاحد المخذول لا ينسب الفضل والنعمة إلى الله عز وجل ولكنه ينسبها إلى نفسه، وأنه أهل لها، كما قال تعالى على سبيل الذم للجاحد نعمة الله عز وجل﴿ **وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي** ﴾ [فصلت: ٥٠] أي أنا أهله، وحقيق به، فهو لا يشكر ربه عز وجل على النعم، ولا يتحدث بها، ولا يستعملها في طاعة الله عز وجل.

وقد ابتلى الله عز وجل الأغنياء بالفقراء، فكان الفقراء هم أسرع الناس استجابة للرسل، كما قال الملأ من قوم نوح لنوح عليه السلام ﴿ **وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ** ﴾[هود:٢٧]

وقال عز وجل في قصة نبي الله صالح مع قومه ثمود ﴿ **قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ** ﴾[الأعراف: ٧٥-٧٦]

فكان في مسارعة الفقراء لإجابة الرسل فتنة للأغنياء كما قال تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا** ﴾ [الأنعام:٥٣] وكما قالوا في موضع آخر: ﴿ **لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ** ﴾ [الأحقاف:١١] فهم يظنون أنهم أولى بكل خير وشرف وفضيلة من الفقراء، فرد الله عز وجل عليهم بقوله: ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ** ﴾ [الأنعام:٥٣] فالله عز وجل عليم بالشاكرين، والذين يعرفون نعمة الله عز وجل، وينسبون الفضل إلى الله عز وجل، فالله عز وجل أعلم بمواقع فضله وعدله، فهو عز وجل يمنُّ بالهداية على من يستحق الهداية، فيهدي من يشاء، ويضل من يشاء، بعلمه، وحكمته، وقدرته نسأل الله أن يهدينا إلى صراطه المستقيم.

الخاطرة السابعة والثمانون

لا تنال الإمامة في الدين إلا بالصبر واليقين

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]

فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

وقال بعضهم: لما أخذوا برأس الأمر، جعلناهم رؤوساً.

وقال الحسن البصري: إذا شئت أن ترى بصيراً لا صبر له رأيته، وإذا شئت أن ترى صابراً لا بصيرة له رأيته، فإذا رأيت بصيراً صابراً فذاك، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]

فالإمامة في الدين هي الشرف العظيم الذي لا يناله كل طالب له، فهذا إبراهيم الخليل يسأل ربه بأن يجعله للمتقين إماماً، فالإمامة منصب عظيم، وشرف كبير، اختص الله عز وجل به الرسل الكرام، ومن سار على دربهم من العلماء العاملين، والدعاة المخلصين، وإنما ينال العبد هذه الرتبة بعد البلاء والتمحيص.

سأل رجل الإمام الشافعي رحمه الله فقال: يا أبا عبد الله أيها أفضل للرجل أن يمكن أو يبتلى؟ فقال الشافعي: لا يمكن حتى يبتلى، فإن الله ابتلى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فلما صبروا مكنهم، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة.

فالله عز وجل يبتلي عباده المؤمنين، فإن زادوا بالابتلاء إيماناً وصدقاً ويقيناً وقابلوا الابتلاء بالصبر الجميل، كما قال الصحابة ﷺ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤]

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]

فإذا ازداد المؤمن بالبلاء أيماناً بالله وتسليماً لأمره ونهيه، ورضاءً بقضائه وقدره استحق بذلك الإمامه في الدين، كما صار الصحابة ﷺ بعد البلاء والتمحيص أئمة الدنيا وحكام العالم، وكما هو معهود في أئمة الهدى في كل زمان ومكان، فما يكاد يخلو عالم من علماء الأمة الذين نفع الله بهم، ورفعهم في الدنيا ويرفعهم في الآخرة من محنة، والدارس لتراجمهم يقف على ذلك والله الهادي.

الخاطرة الثامنة والثمانون

من أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس ومن أسخط الله برضى الناس سخط الله عليه وأسخط عليه الناس

فالله عز وجل هو رب الناس ملك الناس إله الناس يملك قلوب العباد، ويقلبها كيف يشاء، فمن سعى في رضى الله عز وجل، وطلب محبة الله عز وجل رضي الله عنه، وملء قلوب الخلق بمحبته، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ [مريم: ٦٩]

أي مودة ومحبة، قال هرم بن حيان: إذا أقبل العبد بقلبه على الله عز وجل، أقبل الله عز وجل عليه بقلوب أوليائه حتى يرزقهم مودته.

وإذا أحب الله العبد قال لجبريل: يَا جِبْرِيلُ إِنِّي أُحِبُّ فُلاناً فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ، إِنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّ فُلاناً فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ[1].

ولذا كان العلماء والعباد والزهاد والدعاة المخلصين أوفر الناس نصيباً من محبة الناس ورضى الناس، لأن همهم محبة الله عز وجل، وطلب رضى الله عز وجل عملاً بقوله تعالى: ﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل: ١٩-٢١]

فالمسلم المخلص ليس له هم إلا طلب رضى الله عز وجل وثوابه والله تعالى يصرف قلوب العباد على محبته ورضاه.

---

(١) رواه البخاري (١٠/٤٦١) الأدب، ومسلم (١٦/١٨٣، ١٨٤) البر والصلة، ومالك في الموطأ (٢/٩٥٣).

أما من كان همه رضى الناس وإن سَخِط ربه عز وجل، فهذا لا ينال إلا سخط الله عز وجل وسخط الناس، واعتبر بالطواغيت الذين يوالون الكفار ويسعون في رضاهم فإذا بهم يسخطون الله عز وجل ثم لا يسلمون بعد ذلك من سخط الناس كشاه إيران الذي كان أول عميل لأمريكا، ولما قامت ضده الثورة الخمينية لم يجد من الغرب الكافر أدنى مساعدة، وخذله الجميع ثم سلط عليه المرض فمات شريداً طريداً.

وكما يقولون كذلك بأن المرأة الزانية أول ما تسقط تسقط في عين من زنى بها، مع أنها أرضته بسخط الله عز وجل، وهكذا من يطيعون الطواغيت في الصد عن سبيل الله، وتعذيب المؤمنين ويقول بأنه عبد المأمور، فمثل هذا لا ينال إلا سخط الله عز وجل، وسخط الناس.

فمن أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن أسخط الله برضى الناس، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس.

الخاطرة التاسعة والثمانون

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١]

قال ابن القيم رحمه الله: قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١] متضمنٌ لكنز من الكنوز، وهو أن كل شيءٍ لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه، ومفاتيح تلك الخزائن بيده، وإن طلب من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه. وقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] متضمن لكنز عظيم، وهو أن كل مراد إن لم يرد لأجله، ويتصل به فهو مضمحلٌ منقطع، فإنه ليس إليه المنتهى، وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها، فانتهت إلى خلقه ومشيئته، وحكمته، وعلمه، فهو غاية كل مطلوب، وكل محبوب لا يحب لأجله فمحبته عناء وعذاب، وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل، وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه، فاجتمع ما يراد كله في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١] واجتمع ما يراد له كله في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] فليس وراءه سبحانه غاية تطلب، وليس دونه غاية إليها المنتهى.

وتحت هذا سر عظيم من أسرار التوحيد، وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن إلا بالوصول إليه، وكل ما سواه مما يُحبُّ ويراد فمراد لغيره، وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحدٌ إليه المنتهى.

ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين، كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين، فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإراداته إلى غيره بطل عليه ذلك، وزال عنه وفارقه أحوج ما كان إليه، ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه، ظفر بنعيمه ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد، العبد دائما يتقلب بين أحكام الأوامر، وأحكام النوازل، فهو محتاج بل مضطر إلى العون عند الأوامر، وإلى اللطف عند النوازل، وعلى قيامه بالأوامر يحصل له من اللطف عند النوازل، فإن كَمَّلَ القيام بالأوامر ظاهراً وباطناً ناله اللطف ظاهراً وباطناً، وإن قام بصورها دون حقائقها ناله اللطف في الظاهر، وقل نصيبه من اللطف في الباطن.

فإن قلت: وما اللطف الباطن؟ فهو[1] ما يحصل للقلب عند النوازل من السكينة، والطمأنينة، وزوال القلق والاضطراب والجزع، فيستخذي بين يدي سيده ذليلاً له مسكيناً، ناظراً إليه بقلبه، ساكناً إليه بروحه وسره، قد شمله مشاهدة لطفه به عن شدة ما هو فيه من الألم، وقد غيبه عن شهود ذلك معرفته بحسن اختياره له، وأنه عبدٌ محضٌ يجري عليه سيده أحكامه رضى أو سخط، فإن رضي نال الرضا، وإن سخط فحظه السخط، فهذا اللطف الباطن، ثمرة تلك المعاملة الباطنية، يزيد بزيادتها، وينقص بنقصانها[2].

---

(١) أي فالجواب.

(٢) الفوائد (٢٥٩-٢٦١).

الخاطرة التسعون

الطاعة توجب القرب، والقرب يولد الأنس
والمعصيه توجب البعد، والبعد يولد الوحشة

العبد إذا أطاع الله عز وجل قربه بقدر طاعته، فيأنس بالله عز وجل ويسعد بقربه وحبه ومراقبته، كما قيل في تعريف التقوى هي علم القلب بقرب الرب، فإذا أحس العبد بقرب ربه عز وجل فإنه يستحي من معصيته، ويحسن عبادته، كما قال النبي ﷺ في تعريف الإحسان: [أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنَّكَ إِنْ لاَ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ] (١) وكما أنها تورث القرب في الدنيا تورث كذلك القرب في الآخرة، فبحسب طاعة العبد لله عز وجل تكون درجته في الجنة، وأعلى الجنة الفردوس، وسقفه عرش الرحمن، وسعادة العباد في الدنيا والآخرة بحسب قربهم من الله عز وجل، فكلما كان العبد أقرب كان أسعد فالقلوب لا تصل إلى مناها حتى تصل إلى مولاها، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة والمعصية توجب البعد عن الله عز وجل، وكلما بعد عن الله عز وجل أحَسَّ بالوحشة بينه وبين الله عز وجل وبعد عن المراقبة والحياء، وربما وقع فريسة للشيطان فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية.

---

(١) سبق تخريجه.

قال ابن الجوزي: الحق عز وجل أقرب إلى عبده من حبل الوريد، لكنه عامل العبد معاملة الغائب عنه البعيد منه، فأمر بقصد نيته، ورفع اليدين إليه والسؤال له، فقلوب الجهال تستشعر البعد، ولذلك تقع منهم المعاصي، إذ لو تحققت مراقبتهم للحاضر الناظر لكفوا الأكف عن الخطايا.

والمتيقظون علموا قربه فحضرتهم المراقبة، وكفتهم عن الانبساط، ولولا نوع تغطية على عين المراقبة الحقيقية، لما انبسطت كفٌّ بأكل ولا عين على نظر.

ومن هذا الجنس [إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي][1] ومتى تحققت المراقبة حصل الأنس، وإنما يقع الأنس بتحقيق الطاعة، لأن المخالفة توجب الوحشة، والموافقة مبسطة المستأنسين.

فيا لذة عيش المستأنسين، ويا خسار المستوحشين.

وليست الطاعة كما يظن أكثر الجهال، أنها مجرد الصلاة والصيام.

وإنما الطاعة الموافقة بامتثال الأمر، واجتناب النهي.

هذا هو الأصل والقاعده الكلية، فكم من متعبدٍ بعيد لأنه مضيع الأصل، وهادم للقواعد بمخالفة الأمر، وارتكاب النهي.

وإنما المحقق من أمسك ذؤابة ميزان المحاسبة للنفس، فأدى ما عليه، واجتنب ما نهى عنه، فإن رزق زيادة تنفل، وإلا لم يضره والسلام[2].

(١) رواه مسلم (١٧/ ٢٣) الذكر، وأبو داود (١٥٠١) الصلاة. وقوله «ليغان» أي ليغطي ويغشى والمراد به السهو.

(٢) صيد الخاطر (١٩٩، ٢٠٠).

الخاطرة الواحدة والتسعون

لا تتم سعادة العبد في الدنيا والآخرة حتى يجمع قلبه وجوارحه على الله عز وجل

فمن الناس من يبخل على الله عز وجل بقلبه وجوارحه، فهو مشغول مشغوف بالدنيا وشهواتها، أسير الهوى والشهوة، وعبد الدينار والدرهم، ومن الناس من يعطي الله عز وجل ظاهره، ويبخل بباطنه، فهو يقف في الصف مع المصلين، ويسافر مع الحجاج والمعتمرين، ولكن قلبه في الشهوات يهيم، ومثله يقال له:

يخبرني البواب أنك نائمُ   وأنت إذا استيقظت أيضا فنائم

فمثل هذا لا يجد السعادة المنشودة والدرة المفقودة، لأنه لا يجد السعادة إلا من جمع قلبه وجوارحه على ربه عز وجل وهي درجه الإنابة.

قال ابن القيم رحمه الله: الإنابة هي عكوف القلب على الله عز وجل كاعتكاف البدن في المسجد لا يفارقه، وحقيقة ذلك عكوف القلب على محبته وذكره بالإجلال والتعظيم، وعكوف الجوارح على طاعته بالإخلاص له والمتابعة لرسوله ﷺ، ومن لم يعكف قلبه على الله وحده عكف على التماثيل المتنوعة. كما قال إمام الحنفاء لقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء:٥٢] فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف، فكان حظ قومه العكوف على التماثيل، وكان حظه العكوف على الرب الجليل.

والتماثيل جمع تمثال وهي الصورة الممثلة، فتعلق القلب بغير الله، واشتغاله به، والركون إليه عكوف منه على التماثيل التي قامت بقلبه، وهو نظير العكوف على تماثيل الأصنام، ولهذا كان شرك عباد الأصنام بالعكوف بقلوبهم وهمهم وإراداتهم على تماثيلهم، فإذا كان في القلب تماثيل قد ملكته واستعبدته بحيث يكون عاكفاً عليها، فهو نظير عكوف الأصنام عليها[1]، ولهذا سماه النبي ﷺ عبداً لها ودعا عليه بالتعس والنكس فقال: [تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيْكَ فَلاَ انْتَقَشَ][2].

---

(١) كذا في الكتاب والصحيح عكوفها على الأصنام.

(٢) الفوائد (٢٥٢-٢٥٣) والحديث تقدم تخريجه.

الخاطرة الثانية والتسعون

الحكمة في تأخر إجابة الدعاء

قال ابن الجوزي رحمه الله ما ملخصه: رأيت من البلاء العجاب أن المؤمن يدعو فلا يجاب، فيكرر الدعاء وتطول المدة ولا يرى أثراً للإجابة، فينبغي له أن يعلم أن هذا من البلاء الذي يحتاج إلى الصبر.

وما يعرض للنفس من الوسواس في تأخير الجواب، مرض يحتاج إلى طب، ولقد عرض لي من هذا الجنس، فإنه نزلت بي نازلة فدعوت وبالغت فلم أر الإجابة، فأخذ إبليس يجول في حلبات كيده.

فتارة يقول: الكرم واسع والبخل معدوم، فما فائدة تأخير الجواب.

فقلت له: إخسأ يا لعين، فما أحتاج إلى تقاضي، ولا أرضاك وكيلاً ثم عدت إلى نفسي فقلت: إياك ومساكنة وسوسته، فإنه لو لم يكن في تأخير الإجابة إلا أن يبلوك المقدر في محاربة العدو، لكفى في الحكمة.

قالت: فدلني عن تأخير الإجابة في مثل هذه النازلة.

فقلت: قد ثبت بالبرهان أن الله عز وجل مالك، وللمالك التصرف بالمنع والعطاء، فلا وجه للاعتراض عليه.

والثاني: قد ثبتت حكمته بالأدلة القطعية، فربما رأيت الشيء مصلحة والحق أن الحكمة لا تقتضيه، وقد يخفى وجه الحكمة فيما يفعله الطبيب من أشياء تؤذي في الظاهر، يقصد بها المصلحة، فلعل هذا من ذاك.

والثالث: أنه قد يكون التأخير مصلحة، والاستعجال مضرة، وقد قال النبي ﷺ: [لاَ يَزَالُ العَبْد فِي خَيْرٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ يَقُولُ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي][1].

والرابع: أنه قد يكون امتناع الإجابة لآفة فيك، فربما يكون في مأكولك شبهة أو قلبك وقت الدعاء في غفلة، أو تزاد عقوبتك في منع حاجتك لذنب ما صدقت في التوبة منه.

والخامس: أنه ينبغي أن يقع البحث عن مقصودك بهذا المطلوب، فربما كان في حصوله زيادة إثم، أو تأخير عن مرتبة خير فكان المنع أصلح.

والسادس: أنه ربما كان فقد ما تفتقدينه سبباً للوقوف على الباب، واللجأ، وحصوله سبباً للاشتغال به عن المسئول.

وهذا الظاهر بدليل أنه لولا هذه النازلة ما رأيناك على باب اللجأ، فالحق عز وجل علم من الخلق اشتغالهم بالبر عنه، فلذعهم في خلال النعم بعوارض تدفعهم إلى بابه، يستغيثون به، فهذا من النعم في طي البلاء، وإنما البلاء المحض ما يشغلك عنه، فأما ما يقيمك بين يديه ففيه جمالك.

وإذا تدبرت هذه الأشياء تشاغلت بما هو أنفع لك من حصول ما فاتك، من رفع خلل واعتذار من زلل، أو وقوف على الباب إلى رب الأرباب[2].

قلت وهناك جواب سابع وهو أن الله عز وجل يقبل الدعاء في أحسن صورة وأنفعها للعبد، فقد يدخر به أجراً في الآخرة، أو يرفع عنه من البلاء مثلها، أو يعطيه نعمة أخرى هي أنفع له، فلا يشترط لمعرفة قبول الدعاء تحققه في الصورة التي يرجوها العبد والله أعلم.

---

(١) رواه البخاري (١١ / ١٤٠) الدعوات، ومسلم (١٧ / ٥١) الذكر، والترمذي (١٢ / ٢٧٦) الدعاء، وأبو داود (١٤٧٠) الصلاة.

(٢) صيد الخاطر (٦٨-٧٠).

الخاطرة الثالثه والتسعون

كيف يزهد العبد في الدنيا ويرغب في الآخرة

قال ابن القيم رحمه الله: لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

النظر الأول : النظر في الدنيا، وسرعة زوالها وفنائها، واضمحلالها، ونقصها، وخستها، وألم المزاحمة عليها، والحرص عليها، وما في ذلك من الغصص والنغص، والأنكاد، وآخر ذلك الزوال، والانقطاع، مع ما يعقب من الحسرة والأسف، فطالبها لا ينفك من هم قبل حصولها، وهم في حال الظفر بها، وغم وحزن بعد فواتها، فهذا أحد النظرين.

النظر الثاني : النظر في الآخرة، وإقبالها، ومجيئها ولا بد، ودوامها، وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات، والمسرات، والتفاوت الذي بينه بين ما ههنا، فهي كما قال سبحانه: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧]

فهي خيرات كاملة دائمة، وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة.

فإذا تم له هذان النظران آثر مايقتضي العقل إيثاره، وزهد فيما يقتضي الزهد فيه، فكل أحدٍ مطبوع على أن لا يترك النفع العاجل واللذة الحاضرة إلى النفع الآجل واللذة الغائبة المنتظرة، إلا تبين له فضل الآجل على العاجل، وقويت رغبته في الأعلى الأفضل.

فإذا آثر الفاني الناقص، كان ذلك إما لعدم تبين الفضل له، وإما لعدم رغبته في الأفضل.

وكل واحد من الأمرين يدل على ضعف الإيمان، وضعف العقل والبصيرة فإن الراغب في الدنيا الحريص عليها المؤثر لها، إما أن يُصَدِّق بأن ما هناك أشرف وأفضل وأبقى، وإما أن لا يصدق. فإن لم يصدق بذلك كان عادماً للإيمان رأساً، وإن صدق بذلك ولم يؤثره كان فاسد العقل، سيء الاختيار لنفسه، وهذا تقسيم حاضر ضروري، لا ينفك العبد من أحد القسمين منه، فإيثار الدنيا على الآخرة إما من فساد في الإيمان، وإما من فساد في العقل، وما أكثر ما يكون منهما، ولهذا نبذها رسول الله ﷺ وراء ظهره هو وأصحابه، وصرفوا عنها قلوبهم، وأطرحوها ولم يألفوها، وهجروها ولم يميلوا إليها، وعَدُّوها سجناً لا جنة، فزهدوا فيها حقيقة الزهد، ولو أرادوها لنالوا منها كل محبوب، ولوصلوا منها إلى كل مرغوب، فقد عرضت عليه مفاتيح كنوزها فردَّها، وفاضت على أصحابه فآثروا بها، ولم يبيعوا حظهم من الآخرة بها، وعلموا أنها معبر لا ممر، لادار مقام ومستقر، وأنها دار عبور لا دار سرور، وأنها سحابة صيف تنقشع عن قليل، وخيال طيف ما استتم الزيارة حتى أذَّن بالرحيل.

قال النبي ﷺ : [مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، إِنَّمَا أَنَا كَرَاكِبٍ قَالَ فِي ظل شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا][1].

---

(١) رواه مسلم (١٨ / ٩٣) الجنة وصفة نعيمها، والترمذي (٩ / ١٩٩ عارضه) الزهد، وابن ماجه (٤١٠٩).



وقال النبي ﷺ : [مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ كَمَا يُدْخِلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي اليَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَا تَرْجِعْ][1].

وقد توعد سبحانه أعظم الوعيد لمن رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها، وغفل عن آياته، ولم يرج لقاءه فقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس:٧-٨].

(١) الفوائد باختصار (١٢٢-١٢٦).

الخاطرة الرابعة والتسعون

ثمن العلياء

قال ابن الجوزي رحمه الله: تأملت عجباً وهو أن كل شيء نفيس خطير، يطول طريقه، ويكثر التعب في تحصيله، فإن العلم لما كان أشرف الأشياء لم يحصل إلا بالتعب، والسهر، والتكرار، وهجر اللذات والراحة، حتى قال بعض الفقهاء: بقيت سنين أشتهي الهريسة لا أقدر، لأن وقت بيعها وقت سماع الدرس.

ونحو هذا تحصيل المال، فإنه يحتاج إلى المخاطرات، والأسفار، والتعب الكثير، وكذلك نيل الشرف بالكرم والجود، فإنه يفتقر إلى جهاد النفس في بذل المحبوب، وربما آل إلى الفقر.

وكذلك الشجاعة فإنها لا تحصل إلا بالمخاطرة بالنفس، قال الشاعر:

لولا المشقة ساد الناس كلهم ... الجود يفقر والإقدام قَتَّالُ

ومن هذا الفن تحصيل الثواب في الآخرة، فإنه يزيد على قوة الاجتهاد والتعبد، أو على قدر وقع المبذول من المال في النفس، أو على قدر الصبر على فقد المحبوب، ومنع النفس من الجزع وكذلك الزهد يحتاج إلى صبر عن الهوى، والعفاف لا يكون إلا بِكَفٍّ كَفٍّ الشره.

ولولا ما عاني يوسف عليه السلام ما قيل له: أيها الصديق.

ولله أقوام ما رضوا من الفضائل إلا بتحصيل جميعها، فهم يبالغون في كل علم، ويجهدون في كل عمل، ويثابرون على كل فضيلة، فإذا ضعفت أبدانهم عن بعض ذلك قامت النيات نائية وهم لها سابقون.

وأكمل أحوالهم إعراضهم عن أعمالهم، فهم يحتقرونها مع التمام، ويعتذرون من التقصير، ومنهم من يزيد على هذا فيتشاغل بالشكر على التوفيق لذلك، ومنهم من لا يرى ما عمل أصلاً، لأنه يرى نفسه وعمله لسيده.

وبالعكس من المذكور عن أرباب الاجتهاد، حال أهل الكسل والشره والشهوات، فلئن التذوا بعاجل الراحة، لقد أوجبت ما يزيد على كل تعب من الأسف، والحسرة، ومن تلمح صبر يوسف عليه السلام وعجلة ماعز، بان له الفرق وفهم الربح من الخسران.

ومن تفكر فيما ذكرته مثلاً، بانت له أمثال.

فالموفق من إذا تلمح قصر الموسم المعمول فيه، وامتداد زمان الجزاء الذي لا آخر له، انتهب حتى اللحظة، وزاحم كل فضيلة، فإنها إن فاتت فلا وجه لاستدراكها. أوليس في الحديث يقال للرجل [اقْرَأْ وَارْقَ فَمَنْزِلُكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا] فلو أن الفكر عمل في هذا حق العمل، حفظ القرآن عاجلا[1].

---

(١) صيد الخاطر (٢٦٩، ٢٧٠).

الخاطرة الخامسة والتسعون

قوله تعالى:

﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر:٤٧]

لما نزل الموت بمحمد بن المنكدر أخذ يبكي بكاءًا شديداً فأحضروا له أبا حازم. فسأله أبو حازم عن سبب بكائه فقال: سمعت الله عز وجل يقول: **﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾** [الزمر:٤٧] فأخاف أن يبدو لي من الله ما لم أكن أحتسب، فأخذ أبو حازم يبكي معه. فقالوا له: أتينا بك من أجل أن تخفف عنه فزدت في بكائه، فأخبرهم بما قال.

وللسلف رحمهم الله في هذه الآية: **﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾** [الزمر:٤٧] أقوال:

فقيل: نزلت هذه الآية الكريمة في أهل الرياء.

قال بعضهم: ويل لأهل الرياء من هذه الآية: **﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾**

وقال بعضهم: عملوا أعمالاً وظنوا أنها حسنات، فكانت سيئات، فبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون.

وقال بعضهم نزلت هذه الآية الكريمة: **﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾** في أهل البدع قال تعالى: **﴿ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾** [الكهف:١٠٣-١٠٤]



وقيل نزلت هذه الآية الكريمة: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ في أهل الغرور والأماني، الذين أوقعهم الشيطان في المعاصي، ومدَّ لهم حبال الأماني. قال الحسن البصري، إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة، وخرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، وقالوا: نحن نحسن الظن بالله، وكذبوا، لو أحسنوا الظن، لأحسنوا العمل.

وقيل نزلت هذه الآية الكريمة: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ في أناس عملوا ذنوباً، وظنوا أنها من الصغائر، فكانت من الكبائر، فبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون.

وقيل نزلت هذه الآية الكريمة: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ في أناس أتوا بحسنات كثيرة عظيمة، ولكنهم أثقلوا ظهورهم بمظالم العباد، فهم يحسنون الظن بحسناتهم، ولكنهم غافلون عما وقعوا فيه من مظالم العباد، فاستوفى أصحاب المظالم حقوقهم من حسنات الظالم، ثم طرحوا عليه من سيئاتهم، فبدا له من الله ما لم يكن يحتسب.

وقيل نزلت هذه الآية الكريمة: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ في أناس أتوا بحسنات كثيرة، ولكنهم وقعوا في ذنوب منعت انتفاعهم بهذه الحسنات، فبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون.

وقيل نزلت هذه الآية الكريمة: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ في أناس شاء الله عز وجل أن يناقشوا الحساب، ومن نوقش الحساب عُذِّبَ أو هلك، كما قال النبي ﷺ.

الخاطرة السادسة التسعون

قيل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله: جزاك الله عن الإسلام خيراً. فقال: بل جزى الله الإسلام عني خيراً

وعمر بن عبد العزيز هو الخليفة الأموي: الذي جَدَّدَ شباب الإسلام على رأس المائة الأولى من الهجرة النبوية ولي الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك ولما فرغ من دفنه قربت له مراكب الخلافة فقال: نحوها عَنِّي أين بغلتي. ولما أراد قائد الشرطة أن يسير بين يديه رفض وقال إنما أنا رجل من المسلمين، وعزم على رد المظالم بعد صلاة الظهر، ودخل عليه ابنه عبد الملك فقال له: لماذا لم ترد المظالم، قال: إن صليت الظهر رددت المظالم فقال له: ومن لك أن تعيش إلى صلاة الظهر، وإن عشت فمن لك أن تبقي نيتك فقال: جزاك الله عني خيراً ورد المظالم.

طلب غلام لعمر بن عبد العزيز من مولاته فاطمة بنت عبد الملك امرأه عمر بن عبد العزيز طعاماً، فأطعمته عَدَساً فقال: كل يوم عدس. فقالت: هذا طعام مولاك أمير المؤمنين.

دخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز في مرض وفاته فقال: غيروا قميص أمير المؤمنين، فإن الناس يزورونه. فقالت أخته فاطمة: نفعل إن شاء الله، فلما كان من الغد وجد نفس القميص. فقال، ألم آمركم أن تغيروا قميص أمير المؤمنين، فقالت فاطمه: والله ما له قميص غيره.

وينطبق عليه قول القائل:

قومٌ إذا غسلُوا الثيابَ رأيتَهمُ لبسوا البيوتَ وزرروا الأبواب

بلغ عمر بن عبد العزيز أن أحد أبنائه أشترى فَصًّاً بألف درهم ليتخذه خاتماً فقال له، عزمت عليك لما بعته، واشتريت فَصًّاً بدرهم، وكتبت عليه.

رحم الله امرءًا عرف قدر نفسه.

فهذه باقة من أخباره رحمه الله، وقوله رحمه الله: بل جزى الله الإسلام عني خيراً، درس لكل من وفقه الله عز وجل لخدمة دينه، كالعلماء، والدعاة، فليس لأحدٍ فضل على الإسلام، وللإسلام الفضل في رفع الذكر، ومحبة الخلق، والثواب العاجل والآجل. كما قال تعالى: ﴿ **يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾[الحجرات: ١٧]

فالله عز وجل لا يستفيد شيئاً من طاعات العباد، ولا يتضرر بشيء من معاصيهم، بل العباد أنفسهم ينتفعون بطاعتهم، وهم أنفسهم يتضررون بمعاصيهم، والله عز وجل غنيٌّ عنهم، ولله الحمد والمنة على كل نعمة. ومن علامات الولاية الصحيحة، أن العبد كلما زاده الله عزًّا، إزداد في نفسه تواضعاً وخضوعاً.

وقال أيوب السختياني: ينبغي للعالم أن يضع التراب على رأسه، تواضعاً لله عز وجل.

الخاطرة السابعة والتسعون

فريق في الجنة وفريق في السعير

قال ابن القيم رحمه الله: أقام الله سبحانه هذا الخلق بين الأمر والنهي، والعطاء والمنع، فافترقوا فرقتين، فرقة قابلت أمره بالترك، ونهيه بالارتكاب، وعطاءه بالغفلة عن الشكر، ومنعه بالسخط، وهؤلاء أعداؤه، وفيهم من العداوة بحسب ما فيهم من ذلك.

وقسم قالوا: إنما نحن عبيدك فإن أمرتنا سارعنا إلى الإجابة، وإن نهيتنا أمسكنا نفوسنا وكففناها عما نهيتنا عنه، وإن أعطيتنا حمدناك وشكرناك، وإن منعتنا تضرعنا إليك وذكرناك، فليس بين هؤلاء وبين الجنة إلا ستر الحياة الدنيا، فإذا مَزَّقَهُ عليهم الموت صاروا إلى النعيم المقيم، وقرة الأعين. كما أن أولئك ليس بينهم وبين النار، إلا ستر الحياة فإذا مزقه الموت صاروا إلى الحسرة والألم.

فإذا تصادمت جيوش الدنيا والآخرة في قلبك، وأردت أن تعلم من أي الفريقين أنت، فانظر مع من تميل منهما ومع من تقاتل إذ لا يمكنك الوقوف بين الجيشين، فأنت مع أحدهما لا محالة.

فالفريق الأول استغثوا الهوى فخالفوه، واستنصحوا العقل فشاوروه، وفرغوا قلوبهم للفكر فيما خلقوا له، وجوارحهم للعمل بما أمروا به، وأوقاتهم لعمارتها بما يعمر منازلهم في الآخرة، واستظهروا على سرعة

الأجل، بالمبادرة إلى الأعمال، وسكنوا الدنيا وقلوبهم مسافرة عنها، واستوطنوا الآخرة قبل انتقالهم إليها، واهتموا بالله وطاعته على قدر حاجتهم إليه، وتزودوا للآخرة على قدر مقامهم فيها، فعجل لهم سبحانه من نعيم الجنة وروحها أن آنسهم بنفسه، وأقبل بقلوبهم إليه، وجمعها على محبته، وشوقهم إلى لقائه، ونعمهم بقربه، وفرغ قلوبهم مما ملأ قلوب غيرهم من محبة الدنيا، والهم والحزن على فوتها، والغم من خوف ذهابها، فاستلانوا ما استعوره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدانهم، والملأ الأعلى بأرواحهم[1].

---

(١) الفوائد (٢٤٩، ٢٥٠).

الخاطرة الثامنة والتسعون

حسن الظن بالله عز وجل شيء والغرور والأماني شيء آخر

فحسن الظن يكون في الأشياء التي وجدت أسبابها، فمن أحب أن يكون عالماً واجتهد في طلب العلم، ولازم العلماء، ونظر في كتبهم، فهذا حسن ظن صحيح.

ومن رجا وأمَّلَ أن يكون أعلم أهل الأرض، دون طلب للعلم، فهذا من الغرور والأماني، ومن طلب أن يكون له ذرية دون أن يتزوج، فهذا أيضاً من الغرور والأماني، ومن طلب أن يصل إلى أعلى درجات الجنة، وهو لا يؤدي الواجبات، وينتهك الحرمات، فهذا غرور وأماني، قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا﴾ [النساء:١٢٣] وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧-٨]

قال ابن القيم رحمه الله: يا مغروراً بالأماني، لُعن إبليس وأُهبط من منزل العز بترك سجدة واحدة أمر بها، وأخرج آدم من الجنة بلقمة تناولها، وحجب القاتل عنها [أي الجنة] بعد أن رآها عياناً، بملء كف من دم، وأمر بقتل الزاني [أي المحصن] أشنع القتلات بإيلاج قدر الأنملة فيما لا يحل، وأمر بإيساع الظهر سياطاً [أي بالجلد] بكلمة قذف، أو بقطرة من مسكر، وأبان عضواً من أعضائك بثلاثة[1] دراهم.

(١) أي بسرقة ثلاثة دراهم.

فلا تأمنه أن يحبسك في النار بمعصية واحدة من معاصية: ﴿ **وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا** ﴾ [الشمس: ١٥]

دَخَلَتِ امْـرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ[١]، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب، وإن الرجل ليعمل بطاعة الله ستين سنة فإذا كان عند الموت جار في الوصية، فيختم له بسوء عمله، فيدخل النار، العمر بآخره، والعمل بخاتمته.

من أحدث قبل السلام بطل ما مضى من صلاته، ومن أفطر قبل غروب الشمس ذهب صيامه ضائعاً، ومن أساء في آخر عمره لقي ربه بذلك الوجه، لو قدمت لقمة وجدتها، ولكن يؤذيك الشره.

كم جاء الثواب يسعى إليك فوقف بالباب فرده بواب «سوف ولعل وعسى» كيف الفلاح بين إيمان ناقص وأمل زائد ومرض لا طبيب له ولا عائد وهوىً مستيقظ، وعقل راقد، ساهياً في غمرته، عمها في سكرته سابحاً في لجة جهله مستوحشاً من ربه مستأنساً بغيره، ذكر الناس فاكهته وقوته وذكر الله حبسه وموته لله منه جزء يسير من ظاهره وقلبه ويقينه لغيره.

لا كان من لسواك فيه بقية يجد السبيل بها إليه العُذَّلُ[٢]

(١) الحديث «دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا، فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشَ الأَرْضِ» رواه البخاري (٣٣١٨/٦/٤٠٩) بدء الخلق، ومسلم (٢٦١٩) التوبة.
(٢) الفوائد (٨٣،٨٤).

الخاطرة التاسعة والتسعون

شرف أصحاب الحديث وأئمة السنة

قال الشيخ عبد الله التليدي: إن أحق الناس بالكون مع رسول الله ﷺ في عرصات القيامة، وأولاهم بشفاعته وسكون الجنان معه أكثرهم عليه صلاة، كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره من حديث ابن مسعود ولذا قال الإمام ابن حبان رحمه الله تعالى في صحيحه: في هذا الخبر دليل على أن أولى الناس برسول الله ﷺ وآله في القيامة يكون أصحاب الحديث: إذ ليس من هذه الأمة قوم أكثر صلاة عليه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم منهم.

وقال أبو نعيم الأصبهاني: وهذه منقبة شريفة تخص رواة الآثار ونقلتها لأنه لا يعرف لعصابة من العلماء من الصلاة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، مما يعرف لهذه العصابة نسخاً وذكراً[1].

وقال سفيان الثوري: إن هذا الحديث عز فمن أراد به الدنيا وجدها ومن أراد به الآخرة وجدها. وهذه منقبة ثانية.

وقال سفيان بن عيينه: أشرف الناس منزلة من كان بين الله وعباده وهم الأنبياء والعلماء.

(١) نصب الموائد لذكر الفتاوى والنوادر والفوائد (٢ / ٢٠٩).

وهذه منقبة ثالثة للعلماء أنهم واسطة بين الله وعباده، ويعرفون الناس بربهم، وحكمه وشرعه وما يحبه ويرضاه وما يكرهه ويأباه وثم منقبه رابعة وهي أن اسمهم حلقة في سلسلة أعلاها رسول الله ﷺ، فيبقى اسمهم، وينسى الناس الملوك والرؤساء والزعماء، كما قال الرشيد ليحيى بن أكثم: هل تعلم أحداً أنبل مني منزلة؟

قال لا يا أمير المؤمنين فأنت ابن عم رسول لله ﷺ، وأمير المؤمنين.
قال: ولكني أعلمه: رجلٌ جالس في حلقةٍ يقول: حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ. هذا اسمه مرتبط باسم رسول الله ﷺ وكما رفع الله عز وجل ذكر رسول الله ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح:٤] كذلك من حفظ سنته وأعلى شريعته ﷺ فالناس يموتون وهؤلاء لا يموت ذكرهم لأنهم مرتبطون باسم رسول الله ﷺ.

الخاطرة المائة

قوله تعالى:

﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ [هود:١٣٣]

نهي الله عز وجل عن إعانة الظالمين أو الركون إليهم، فقال تعالى: ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ [هود:١٣٣]

وسئل عطاء بن أبي رباح رحمه الله تعالى عن شخص يكتب بقلمه عند الأمراء، لا يجاوز ما جعلوه له من الرزق. فقال عطاء: أرى أن يترك ذلك، أما سمع قول موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص:١٧]

وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: من أعان ظالماً، أو لقنه حجةً يدحض بها حق امرئٍ مسلم، فقد باء بغضب من الله[١].

وقال بعضهم: ما أصبت من دنياهم شيئاً إلا وأصابوا من دينك ما هو خير منه.

وقال عبد الله التليدي: سمعت من بعض كبار أشياخنا قديماً، أن بعض العلماء كان في مجلس بعض الأمراء الظلمة بقصره، فأراد الانصراف فلما قام مس برنسه فتيلة الشمعة، فاندلعت النار في برنسه، وقال: صدق الله العظيم، فقال له الأمير: وما دخل صدق الله العظيم هنا؟ فقال العالم: أعفني يا أمير المؤمنين فقال: لا بد وأن تخبرني بما قصدت وعليك الأمان.

---

(١) انظر رسالة «من أخلاق السلف» للمصنف (١٧) ط. دار العقيدة.



فأجابه قائلا: إن الله تعالى قال: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾[هود:١٣٣] وقد أصابتني النار في الدنيا قبل الآخرة بركوني إليك.

قال: وهذا ما لا يرتاب فيه عالم موفق، فإن مخالطة ذوي السلطان الظلمة، والميول إليهم، والدخول عليهم، ومحبتهم طمعاً فيما بأيديهم، أو طلباً للجاه والرياسة، هو من الخطورة بمكان على دين المسلم، ويكفيه خسارة أنه يحشر معهم يوم القيامة، وأنه لا يشرب من حوض نبينا صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وأنه يتبرأ منه.

ففي الحديث الصحيح الذي قال فيه النبي ﷺ لكعب بن عجرة: [أُعِيذُكَ بِاللهِ يَا كَعْبَ بن عُجْرَةَ مِن أُمَرَاءِ يَكُونُونَ من بَعْدِي، فَمَنْ غَشِيَ أَبْوَابَهُمْ، فَصَدَّقَهُمْ فِي كَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ، وَلاَ يَرِدُ عَلَيَّ الحَوْضَ، وَمَنْ لَمْ يَغْشَ أَبْوَابَهُمْ، وَلَمْ يُصَدِّقْهُمْ فِي كَذِبِهِمْ، وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِم، فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ وَسَيَرِدُ عَلَى الحَوْضِ] رواه الترمذي والنسائي وغيرهما وسنده صحيح.

[وَمَا ازْدَادَ عَبْدٌ مِنْ السُّلْطَانِ قُرْباً، إلا ازْدَادَ مِنَ اللهِ بُعْداً] رواه أبو داود والترمذي.

وقوله تعالى: ﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾[هود:١٣٣] هو صريح في أن كل من يميل إلى ذوي السلطة الطغاة الظالمين ستصيبه النار وعذابها، لا يجد عندها من دون الله ولياً ولا نصيراً.

والظلمة أعم من أن يكونوا كفرة أصالة، أم مرتدين، أو متمسلمين، وقال ﷺ: [إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ، فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ] رواه مسلم.

فمن كره ما يفعله ويقوله الظلمة من مخالفة الشرع فقد برئ من فعلهم، وإثم ذلك، وسلم من العقوبة، واللوم، والعذاب، والنار على من رضي ما يأتون ويذرون، وتابعهم أو وافقهم على ذلك عياذاً بالله من كل ذلك (١).

(١) نصب الموائد باختصار (٢/٢٠٦-٢٠٨) دار ابن حزم.

الخاطرة الواحدة بعد المائة

لن تجد طعم الإيمان، ولن تبلغ حقيقة العلم بالله تعالى، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره

روى أحمد في مسنده من حديث عبادة بن الصامت قال: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان ولن تبلغ حقيقة العلم بالله تبارك وتعالى حتى تؤمن بالقدر خيره وشره. قلت: يا أبتاه وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: أن تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك، يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: [إن أول ما خلق الله تعالى القلم ثم قال: اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة][1] يا بني إن مت ولست على ذلك دخلت النار.

والإيمان بالقدر يشتمل على أربعة مراتب لا يكون العبد مؤمناً بالقدر حتى يؤمن بها:

المرتبة الأولى: الإيمان بعلم الله عز وجل السابق كما قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٣] أي على علم بأنه أهل للضلال وليس أهلاً للهداية.

والمرتبة الثانية: الإيمان بكتابة المقادير ويشمل ذلك التقدير الأزلي والميثاق والتقدير العمري والتقدير الحولي – أي في ليلة القدر– والتقدير اليومي وهو سوق المقادير إلى مواقيتها.

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٧٥) السنة، والترمذي (٨/٣١٩،٣٢٠)، وأحمد (٥/٣١٧)، وقال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه، وصححه الألباني.

والمرتبة الثالثة: الإيمان بمشيئة الله عز وجل النافذة فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]

والمرتبة الرابعة: الإيمان بأن الله عز وجل خالق أعمال العباد كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]

فلا يمكن للعبد أن يجد طعم الإيمان ولن يبلغ حقيقة العلم بالله تعالى حتى يؤمن بهذه المراتب الأربعة وقد زلت في القدر أقدام وضلت فيه أفهام لأن القدر كما قال الطحاوي: سر من أسرار الله تعالى في خلقه لم يطلع على ذلك ملك مقرب أو نبي مرسل.

قال أبو المظفر بن السمعاني: سبيل معرفة هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة دون محض القياس والعقل فمن عدل عن التوقيف فيه ضل وتاه في بحار الحيرة ولم يبلغ شفاء العين ولا ما يطمئن به القلب لأن القدر سر من أسرار الله تعالى اختص العليم الخبير به، وضرب دونه الأستار فلم يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب.

وقيل: إن سر القدر ينكشف لهم إذا دخلوا الجنة ولا ينكشف لهم قبل دخولها[1]. وقيل كذلك من لم يؤمن بالقضاء فليس لحمقه دواء. وما أحسن ما قاله الحربي: من لم يؤمن بالقدر لم يتهن بعيش. فهذا صحيح فما تعاظمت القلوب بالمصائب، وضاقت بها الأنفس، وحرجت بها الصدور إلا من ضعف الإيمان بالقدر[2].

---

(١) فتح الباري (١١/٤٧٧) ط. السلفية.

(٢) «الثمرات الزكية» للمصنف (٢٥٢) ط. التوعية الإسلامية.



اللهم ارحمنا برحمتك فإنا من الضعف ما أنت أعلم به، ومن عدم الصبر على حوادث الزمان ما لا يخفى عليك، ومن عدم الثبات على المحن ما لديك حقيقته، ولكننا نسألك العافية التي أرشدتنا إلى سؤالها منك.

الخاطرة الثانية بعد المائة

الصحابة رضي الله عنهم مفاتيح خير وعز ونصر

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: [يَأْتي عَلى النَّاسِ زَمانٌ فَيَغْزو فئامٌ[1] مِنَ النَّاسِ، فَيَقولونَ: فيكم مَنْ صاحَبَ رَسول الله ﷺ؟ فَيَقولونَ لهم: نَعَم، فَيُفْتَحُ لَهُم. ثُمَّ يَأْتي على النَّاسِ زَمانٌ فَيَغْزو فئامٌ مِنَ النَّاسِ فَيُقالُ: فيكم مَنْ صاحَبَ أصحابَ رَسولِ الله ﷺ؟ فَيَقولونَ: نَعَم. فَيُفْتَح لهم. ثُمَّ يَأْتي على النَّاسِ زَمانٌ فَيَغْزو فئامٌ مِنَ النَّاسِ فَيُقالُ: هل فيكُم مَنْ صاحَبَ مَنْ صاحَبَ أَصْحاب رَسولِ الله ﷺ؟ فَيَقولونْ نَعَم. فَيُفْتَحُ لهم...][2].

قال ابن جرير ومثله حديث واثلة رفعه: [لا تزالون بخير ما دام فيكم من رآني وصاحبني، والله لا تزالون بخير ما دام فيكم من رأى من رآني وصاحبني][3].

فمن علامة سعادة العبد حبه للصحابة رضي الله عنهم وموالاته لهم، لأن الله عز وجل وعد الصحابة جميعاً بالجنة ورضي الله عنهم ورضوا عنه.

كما قال تعالى: ﴿ **لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى** ﴾ [الحديد: ١٠]

---

(١) **فئام**: أي مجموعة من الناس.

(٢) رواه البخاري (٧ / ٣) فضائل الصحابة، ومسلم (١٩ / ٨٣،٨٤) فضائل الصحابة.

(٣) رواه ابن أبي شيبة (٤ / ١٢٤٦٣) الفضائل وحسنه الحافظ.

والحسنى هي الجنة، فمن أنفق من قبل فتح مكة من الصحابة ومن أنفق من بعد الفتح وعده الله الجنة، وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء.

وعن محمد بن زياد قال: قلت يوماً لمحمد بن كعب القرظي ﷺ: ألا تخبرني عن أصحاب رسول الله ﷺ فيما بينهم – وأردت الفتن –.

فقال: إن الله قد غفر لجميعهم محسنهم ومسيئهم، وأوجب لهم الجنة في كتابه. فقلت له: في أي موضع أوجب لهم؟ فقال: سبحان الله ألا تقرأ: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٠] إلى آخر الآية فأوجب الجنة لجميع أصحاب النبي ﷺ. زاد في رواية في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ [التوبة: ١٠٠]

قال: شرط في التابعين شريطة وهي أن يتبعوهم في أعمالهم الحسنة دون السيئة. قال حميد: فكأني لم أقرأ هذه الآية قط[1].

أرسل عبد العزيز بن مروان حينما كان أميراً على مصر لأخيه عبد الملك ابنه عمر إلى المدينة ليتعلم بها وكان عمر إذ ذاك شاباً فكان يتردد إلى عبيد الله بن عتبة بن مسعود أحد فقهاء المدينة السبعة المشهورين في بيته، فأتاه عمر يوماً على عادته، فأعرض عنه عبيد الله. فقال له عمر: يا سيدي لم تعرض عني؟ فقال له عبيد الله: أبلغك أن الله غضب على أهل بيعة الرضوان بعد أن رضي عنهم؟ قال: لا.

فقال له عبيد الله: ما شيءٌ بلغني عنك في علي بن أبي طالب؟ فقال: يا سيدي أتوب إلى الله.

(١) «اتحاف ذوي النجابة» للتباني المغربي (٣٦)، ومحاسن التاويل (٨/ ٢٠٢).

وكان بنو أمية يسبون علياً رضي الله عنه على المنابر يوم الجمعة، فأبطل عمر ابن عبد العزيز هذه العادة القبيحة واستبدلها بقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠]

فمن علامة سعادة العبد في الدنيا والآخرة محبة من رضي الله عنهم وأرضاهم وجعل الجنة مثواهم فالمرء مع من أحب كما تواتر عن النبي ﷺ.

قال الطحاوي: «فحبهم دين وإيمان، وبغضهم كفر ونفاق وعصيان، فطوبى لمن أحبهم وسلك سبيلهم، وترضى عنهم، ويا ويل من أبغضهم أو أبغض بعضهم، وذلك من علامات الخذلان وأمارات الخيبة والخسران».

فالحمد لله الذي عصمنا من هذه الورطة العظيمة ووفقنا بحب جملتهم إلى سلوك الطريقة المستقيمة.

قال الطبري: فالسعيد من تولى جملتهم، ولم يفرق بين أحدٍ منهم، واهتدى بهديهم، وتمسك بحبلهم، والشقي من تعرض للخوض فيما شجر بينهم، واقتحم خطر التفريق بينهم، وأتبع نفسه هواها في سب أحدٍ منهم، فلله الحمد والمنة أن أعاذنا من ذلك، ونسأله دوام نعمته وتمامها آمين[١].

وقال التباني المغربي: على أن مبغضهم ومنتقدهم ناج الكواكب النيرات وناطح الجبال الثابتات.

فما العز للإسلام إلا بظلهم وما المجد إلا ما بنوه فشيدوا[٢]

---

(١) «إتحاف ذوي النجابة» (٤٩) باختصار.

(٢) مقدمة «الفوائد البديعة في فضائل الصحابة وذم الشيعة» للمصنف (٦،٧).

الخاطرة الثالثة بعد المائة

القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر

قال صاحب المدارج رحمه الله: القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر فالمحبة رأسه والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر.

لكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف.

قال أبو سليمان: ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف فإذا غلب عليه الرجاء فسد.

وقال غيره: أكمل الأحوال اعتدال الرجاء والخوف وغلبة المحبة فالمحبة هي المركب والرجاء حاد والخوف سائق والله الموصل بمنه وكرمه. أ. هـ.

وفي تمثيل العلماء القلب بالطائر تمثيل حسن، لأن الطائر مهما كان سليم الرأس والجناحان جيد الطيران حلق في سماء الإيمان، وكان بعيداً عن الشبهات والشهوات وإذا كان مريض الرأس أو مقصوص الجناحين فإنه يطير قريباً من الأرض، فهو عرضة للآفات والنكبات.

ولا يستغنى الطائر عن الرأس والجناحين كما لا يكون هناك إيمان بدون محبة أو خوف أو رجاء.



كما قال بعضهم: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري[1]، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد، وأشاروا بقولهم بالحب وحده إلى الصوفية، ودعواهم المحبة وقولهم بسقوط التكاليف الشرعية.

واستحب العلماء لمن حضر من يحتضر أن ينمي فيه جانب الرجاء على الخوف، أو محض الرجاء لما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: [لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ][2].

قال العلماء: معنى إحسان الظن بالله عز وجل أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه، وفي حال الصحة يكون خائفاً راجياً، وإذا دنت أمارات الموت غلب الرجاء أو محضه لأن مقصود الخوف الانكفاف عن المعاصي والقبائح والحرص على إكثار الطاعة وصالح العمل، وقد تعذر ذلك أو معظمه في هذه الحال فاستحب إحسان الظن المتضمن للافتقار إلى الله تعالى والإذعان له.

قال القرطبي: نهوا أن يموتوا على غير حالة حسن الظن وذلك ليس بمقدورهم بل المراد الأمر بتحسين الظن ليوافي في الموت وهو عليه. أ.هـ.

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلا تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

---

(١) **الحرورية**: هم الخوارج.

(٢) رواه مسلم (١٧/ ٢٠٩) صفة الجنة.

عن فقير بن مسكين قال: دخلت على الشافعي أعوده في مرض موته فقلت له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ قال: أصبحت من الدنيا راحلاً ولإخواني مفارقاً ولكأس المنية شارباً ولا أدري أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها وأنشأ يقول:

ولما قسى قلبي وضاقت مذاهبي جعلت الرجا مني لعفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك أعظما

قال المعتمر بن سليمان: قال أبي لما حضرته الوفاة يا معتمر حدثني بالرخص لعلي ألقى الله وأنا أحسن الظن به.

وقال بعضهم عند موته: كيف لا أرجوه وقد صمت له ثمانين رمضان.

مرض أعرابي فقيل له إنك تموت فقال: أين يذهب بي؟ قالوا: إلى الله، قال: وما كراهتي أن يذهب بي إلى من لا يُرى الخير إلا منه.

وكانوا يستحبون أن يذكر للعبد عن موته محاسن عمله ويذكر برحمة الله عز وجل وعفوه لعله يلقى الله عز وجل وهو حسن الظن به.

الخاطرة الرابعة بعد المائة

إن من نعمة الله على الشاب إذا نسك أن يوفقه الله إلى صاحب سنة يحمله عليها

فمن نعمة الله عز وجل على الشاب إذا سلك طريق الطاعة و العبادة أن يوفقه الله عز وجل إلى عالم من علماء السنة يتعلم من هديه وسمته وأقواله وأعماله سنة النبي ﷺ.

لأنه يملك عاطفة إيمانية وهو فاقد للبصيرة التي تميز له الحق من الباطل والبدعة من السنة والهدى من الضلال.

فإذا وفق إلى صاحب سنة حمله على السنة، وإذا خذل فوافق صاحب بدعة حمله عليها كما قال بعضهم:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكن

وكان السلف يهتمون بأن يكون ا لمسلم على سبيل وسنة، يعتقد معتقد السلف وينتهج منهجهم في فهم الكتاب والسنة.

قيل للحسن البصري: سبقنا القوم على خيل دهم ونحن على حُمُرٍ معقرة، قال: إن كنت على طريقهم فما أسرع اللحاق بهم.

قيل: يا من انحرف عن جادتهم كن في أواخر الركب، ونم إذا نمت على الطريق، فالأمير يرعى الساقة.

فالعبد لا ينبغي له أن يخرج عن جادتهم، وإن أصابته فترة كما قال النبي ﷺ: [لكل عمل شِرَّة، ولكل شِرَّةٍ فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد ضل].

والعمل القليل في سبيل وسنة، خير من العمل الكثير في غير سبيل وسنة.

قال النبي ﷺ: [مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ][1].

فكما أن حديث: [إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ][2]، مقياس للأعمال في باطنها فلا بد أن ينتج العمل عن إخلاص قصد التقرب إلى الله عز وجل فحديث: [مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ] مقياس للأعمال في ظاهرها فكل عمل لا يندرج تحت الشريعة ولا تكون شريعة النبي ﷺ حاكمة عليه بالصحة فهو [رَدٌّ] بمعنى مردود ككتاب بمعنى مكتوب، قال الله عز وجل: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ [الملك: ٢]

قال فضيل بن عياض: أخلصه وأصوبه فإن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون صواباً خالصاً.

وقد حض الشرع الحنيف على التمسك بالسنة فقال ﷺ: [فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء

(١) رواه مسلم (١٢/ ١٦) الأقضية.
(٢) رواه البخاري (١/ ٩) بدء الوحي، ومسلم (١٣/ ٥٣،٥٤) الإمارة.

الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة][1].

قال الحافظ ابن رجب: وفي هذه الأزمان التي بعد العهد فيها بعلوم السلف يتعين ضبط ما نقل عنهم من ذلك كله ليتميز ما كان من العلوم موجوداً في زمانهم وما أحدث في ذلك بعدهم فيعلم بذلك السنة من البدعة. وقد صح عن ابن مسعود أنه قال: «إنكم أصبحتم اليوم على الفطرة، وإنكم ستحدثون ويحدث لكم فإذا رأيتم محدثة فعليكم بالعهد الأول». وابن مسعود قال هذا في زمن الخلفاء الراشدين.

وروى ابن حميد عن مالك قال: لم يكن شيء من هذه الأهواء في عهد النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، وكان مالك يشير بالأهواء إلى ما حدث من التفرق في أصول الديانات من أمور الخوارج والروافض والمرجئة ونحوهم ممن تكلم في تكفير المسلمين واستباحة دمائهم وأموالهم أو في تخليدهم في النار أو في تفسيق خواص هذه الأمة أو عكس ذلك من زعم أن المعاصي لا تضر أهلها وأنه لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد.

---

(١) رواه أحمد (٤/١٢٦، ١٢٧)، وأبو داود (١٢/٣٥٩-٣٦٠ عون) السنة، والترمذي (١٠/١٤٤) العلم، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني.



الخاطرة الخامسة بعد المائة

قوله ﷺ [ولكنكم تستعجلون]

عن خبـاب بن الأرت رضي الله عنه قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وهو مُتوسِّدٌ بُردةً وهو في ظل الكعبة – وقد لقينا منَ المشركينَ شدَّة – فقلت: يا رسولَ الله: ألا تَدْعو الله لنا؟ فقعَد وهو مُحْمَرٌّ وجهه فقال: [لقد كان من قَبلَكم ليُمشَط بمشاط الحديد ما دُون عظامه من لحم أو عَصَب، ما يَصرفهُ ذلك عن دينه، وَليُتمَّنَّ الله هذا الأمرَ حتى يَسيرَ الراكبُ من صَنعاءَ إلى حَضرمَوتَ ما يَخافُ إلا الله].

وفي رواية: [... والذِّئبَ على غنمه، ولكنكم تستعجلون](1).

فبعد أن بشر النبي ﷺ خباباً رضي الله عنه بانتصار الإسلام قال: [ولكنكم تستعجلون].

وطبيعة الاستعجال طبيعة بشرية مركوزة في النفس.

قال الله تعالى: ﴿خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء:٣٧]

والذين يستعجلون النصر في زماننا وإقامة دولة الإسلام إما أنهم يتعجلون الصدام المسلح مع الجاهلية الجهلاء، فلا تثمر هذه الأعمال إلا الدماء والأشلاء، ولا يكون في ذلك عز للإسلام وأهله، وإنما يستأصل النبت الصغير من الملتزمين بشرع الله عز وجل، والنبي ﷺ

(١) رواه البخاري (٧/٢٠٢) مناقب الأنصار، وأحمد (٥/١٠٩).

مكث ثلاثة عشر عاماً يدعو للتوحيد، ولم تحك لنا السيرة النبوة عن أي صدام مسلح حدث بين الدعوة الناشئة وكفار قريش. ولما بايع الأنصار الكرام رسول الله ﷺ بيعة العقبة الثانية قالوا: لو شئت أن نميل على أهل الوادي فنبيتهم – أي نقتلهم ليلاً – قال ﷺ: إني لم أؤمر بذلك وما أُذن له في الجهاد حتى تكونت للمسلمين دولة وشوكة بالمدينة المنورة.

ومن الذين يستعجلون في زماننا من يظن أن طريق البرلمان والمهاترات السياسية يمكن أن يوصل إلى الغاية، واستدل بعضهم بفتوى العلامة ابن باز رحمه الله بجواز دخول البرلمان، ولكن ينبغي أن ننتبه إلى الفرق بين إجازته رحمه الله دخول البرلمان لتكثير المصالح وتقليل المفاسد، وبين اعتقاد أن دخول البرلمان هو طريق عز الإسلام والمسلمين، وقد ورد عنه كذلك أن الإسلام لا يقوم بالمهاترات السياسية، وقد عرض على النبي ﷺ أن يجمعوا له من المال حتى يكون أكثرهم مالا، أو يملكوه عليهم، فأبى النبي ﷺ لعلمه أن مقابل ذلك مداهنة في قضية التوحيد، التي هي أصل الدين، فدخول البرلمان مسألة اجتهادية، قد يجيزها بعض العلماء، على أساس أن الداخل ينوي تعطيل القوانين الظالمة، والمساعدة على إصدار ما فيه مصلحة للعباد والبلاد، وبعضهم يعتبر الدخول مداهنة في قضية التوحيد، لأن البرلمان مجلس تشريعي، والتشريع من حق الله عز وجل، فالبرلمان طاغوت ينازع الله عز وجل حق التشريع، فكيف نكون جزءاً من هذا الطاغوت، أو ننتخب من يكون جزءاً من الطاغوت، وعلى كل حال إن

قلنا إن المسألة مسألة عقيدة أو مصالح ومفاسد فينبغي أن نعتقد أن هذا الطريق ليس طريقاً لعز الإسلام والمسلمين، لأن طريق الأنبياء تعبيد الناس لرب الأرض والسماء، والإصلاح لا يكون من أعلى إلى أسفل، ولكن من أسفل إلى أعلى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]

فهذا هو طريق الأنبياء تنقيه للقلوب والجوارح من الشرك والمعاصي، وتحليتها بالطاعات والعبادات، حتى يرانا الله عز وجل أهلاً للتمكين، فيهيء لنا من أسباب النصر والتمكين ما لا يخطر على قلوبنا، فالطريق طويل وشاق ولكنهم يستعجلون.

الخاطرة السادسة بعد المائة

من تمام حفظ القرآن حفظ السنة

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]

والذكر ليس قاصراً على القرآن، بل السنة كذلك من الذكر وقد سمى الله عز وجل السنة ذكراً فقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤]

فما نزل إليهم هو القرآن بلا شك ولا مرية والذكر في الآية هو السنة فقد أطلق على السنة اسم الذكر كما في هذه الآية، وأطلق عليها اسم الحكمة كما في قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ [الأحزاب: ٣٤]

وعلى كل حال فحفظ السنة من حفظ القرآن، وحاجة القرآن إلى السنة أكثر من حاجة السنة إلى القرآن، السنة تبين مجمل القرآن وتخص عامه وتقيد مطلقه وهي التطبيق العملي للقرآن.

سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن. قال الله عز وجل في القرآن: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [البقرة: ٤٣]

وأين في القرآن مواقيت الصلاة وشروط صحتها وواجباتها وسننها؟ وإنما بينت ذلك كله السنة. وأين في القرآن كذلك أنصبة الأموال

ومقدار الواجب في الزكاة؟ وإنما بينت السنة ذلك كله وجحود السنة كفر بالقرآن لأن الله عز وجل أوجب علينا اتباع رسوله ﷺ والاهتداء بهديه والاقتداء بسنته فقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر:٧]

وقال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]

ومن أعظم أسباب حفظ السنة أن وفق الله عز وجل للسنة رجالاً وقفوا أعمارهم على تدوينها وحفظها وتعلمها وتعليمها والذب عنها وتخليصها مما خلطه الزنادقة بها.

أمر الخليفة هارون الرشيد رحمه الله بضرب عنق زنديق فادعى أنه وضع أربعة آلاف حديث وخلطها بسنة النبي ﷺ، فقال له هارون الرشيد: أين أنت يا عدو الله من أبي اسحاق الفزاري وعبد الله بن المبارك ينخلانها نخلا فيخرجانها حرفاً حرفاً[1].

---

(١) انظر مقدمة «من أعلام السلف» (٥،٦) ط. العقيدة.

الخاطرة السابعة بعد المائة

اعتقاد أهل السنة والجماعة بأن الإيمان يزيد وينقص، له شواهد في نفوسنا، فضلاً عن الكتاب والسنة

قال ابن عبد البر: وعلى أن الإيمان يزيد وينقص جماعة أهل الآثار والفقهاء وأهل الفتيا في الأمصار.

قال تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]

وقال تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١]

وقال تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيماً﴾ [الأحزاب: ٢٢]

وقال النبي ﷺ: [وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ][(١)].

وقال الترمذي رحمه الله تعالى: باب في استكمال الإيمان والزيادة والنقصان، وساق فيه حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: [إن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وألطفهم بأهله][(٢)].

قال الشيخ حافظ بن أحمد: وإذا كان ينقص بالفترة عن الذكر، فلأن ينقص بفعل المعاصي من باب أولى.

---

(١) رواه مسلم (٢/٢٢-٢٥) الإيمان.

(٢) رواه الترمذي (١٠/٨٢،٨٣ عارضة) الإيمان، والحاكم (١/٣) الإيمان، وصححه الترمذي والحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.



والناس يتفاوتون في الإيمان فأفضلهم وأعلاهم أولو العزم من الرسل، وأدناهم المخلطون من أهل التوحيد، وبين ذلك مراتب ودرجات لا يحيط بها إلا الله عز وجل، الذي خلقهم ورزقهم، بل والله يتفاضلون في العمل الواحد في مكان واحد وفي آن واحد.

وقد بوب الإمام البخاري أكثر أبواب كتاب الإيمان في بيان دخول العمل في مسمى الإيمان.

ولا شك في تفاوت أهل التوحيد في أعمال القلوب والجوارح وكذا لا شك في اختلاف أحوال المسلم في أعمال الإيمان من آن إلى آخر، ففي نفوسنا شواهد على زيادة الإيمان بالطاعة والمداومة على الذكر ومجالسة الصالحين والتفكر في خلق الله عز وجل، بل المؤمن الصادق يشعر بالزيادة وهو يسمع القرآن، فزيادة إيمانه بالقرآن علامة على صدق إيمانه كما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢]

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥]

وكذا المؤمن الصادق إذ خوف بغير الله يزداد إيماناً بالله عز وجل وتسليماً لقضائه وقدره وتوكلاً على الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٣٧]

وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢]

وكذا يشعر المسلم بضيق في صدره ووحشة بينه وبين الله عز وجل بعد المعصية والفتور عن الذكر والطاعة نتيجة لضعف إيمانه وقد قال النبي ﷺ: [لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن] أي أنه وقت المعصية يضعف إيمانه جداً فلا يستحق اسم الإيمان ولا نقول كافر، لأن هذه مقالة الخوارج، الذين يكفرون بفعل الكبيرة والإصرار على الصغيرة، ولكن يضعف الإيمان جداً فيتجرأ على كبيرة توجب له خزي الدنيا وعذاب الآخرة، إلا أن يتوب فيتوب الله عليه.

ففي أنفسنا فضلاً عن الشرع شواهد على زيادة الإيمان ونقصانه فعلى من نصح نفسه وأحب نجاتها أن يغذي شجرة الإيمان في قلبه، حتى يكون دائماً على إيمان طيب، فإذا نقص لغفلة أو فتور لا يقع في الفواحش والكبائر، ولكن يقع في اللمم والصغائر.

والله الموفق للطاعات والهادي لأعلى الدرجات.

الخاطرة الثامنة بعد المائة

أعظم المصائب في الدين موت النبي ﷺ

قال في تسلية أهل المصائب: ومن أعظم المصائب في الدين موت النبي ﷺ لأن المصيبة به أعظم من كل مصيبة يصاب بها المسلم لأن بموته ﷺ انقطع الوحي من السماء إلى يوم القيامة وانقطعت النبوات، وكان موته أول ظهور الشر والفساد بارتداد الذين ارتدوا عن الدين من الأعراب فهذا أول انقطاع عرى الدين ونقصانه وغير ذلك من الأمور التي لا تحصى.

قال أبو العتاهية مسلياً بعض إخوانه في ولد له اسمه محمد:

اصبر لكل مصيبة وتجلد ... واعلم بأن المرء غير مخلد

أو ما ترى أن المصائب جَمَّةً ... وترعى المنية للعباد بمرصد

من لم يصب ممن ترى بمصيبة ... هذا سبيل لست فيه بأوحد

فإذا ذكرت محمداً ومصابه ... فاذكر مصابك بالنبي محمد[1]

وقال الحافظ ابن رجب: لما توفي ﷺ اضطرب المسلمون، فمنهم من دهش فخولط، ومنهم من أقعد فلم يطق القيام، ومنهم من اعتقل لسانه فلم يطق الكلام، ومنهم من أنكر موته بالكلية، وقال: إنما بعث إليه[2].

---

(١) «تسلية إهل المصائب» (١٧، ١٨) ط. مكتبة الفرقان.

(٢) «لطائف المعارف» (١١٣، ١١٤).

بوفاة النبي ﷺ غاب عن الدنيا سيد ولد آدم أعظم القادة، وأعظم المربين، وأعظم الدعاة، وأعظم الأخلاقيين، وأعظم الحكام، وأعظم العلماء، وأعظم المفكرين، وأعظم البشر خاتم النبيين، ورسول رب العالمين(١).

وقال الغزالي: ويتسرب النبأ الفادح من البيت المحزون، وله طنين في الآذان، وثقل ترزح تحته النفوس وتدور بهم البصائر والأبصار، وشعر المؤمنون أن آفاق المدينة اظلمت فتركتهم لوعة الثكل حيارى لا يدرون ما يفعلون(٢).

عن أنس بن مالك ﷺ قال: لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذي دَخَلَ فيه رَسُولُ الله ﷺ المَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذي مَاتَ فيه أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَمَا نَفَضْنَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ الأَيْدِي حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا(٣).

فكان من أعظم أسباب الرقي الإيماني للصحابة ﷺ معاشرتهم للنبي ﷺ فكان يفيض عليهم مما أفاض الله عز وجل على قلبه من الأحوال الإيمانية ومن هنا حرص العلماء على الاجتماع بأهل الخير والفضل.

---

(١) محمد منير الغضبان «فقه السيرة» (٧٢٧).
(٢) فقه السيرة (٤٩٠).
(٣) رواه الترمذي (١٣/١٠٤، ١٠٥) المناقب، وقال: غريب صحيح، وابن ماجة (١٦٣٠) الجنائز، والحاكم مختصراً وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصححه الالباني.

كانت فاطمة رضي الله عنها تقول: يا أنسُ أطابَتْ نفوسُكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب[1].

قال الحافظ: أشارت عليها السلام بذلك إلى عتابهم على إقدامهم على ذلك لأنه يدل على خلاف ما عرفته منهم من رقة قلوبهم عليه لشدة محبتهم له، وسكت أنس عن جوابها رعاية لها ولسان حاله يقول: لم تطب أنفسنا بذلك إلا أنا قهرناها على فعله امتثالاً لأمره. أ. هـ.

فأعظم مصيبة نزلت بالبشرية هي وفاة الرسول ﷺ فمهما أصيب المسلم بمصيبة – نسأل الله العافية – فإنه يتعزى عنها بمصيبته بالنبي ﷺ فتهون المصائب عند ذكر مصيبة وفاته ﷺ.

---

(١) رواه البخاري (٧/٧٥٥) المغازي، وأحمد (٣/٢٠٤) مختصراً.

الخاطرة التاسعة بعد المائة

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨]

فهذه الآية الكريمة تدل على أن من خشي الله وأطاعه وامتثل أوامره واجتنب نواهيه فهو عالم لأنه لا يخشاه إلا عالم، وعلى نفي الخشية عن غير العلماء ونفي العلم عن غير أولي الخشية أيضاً، وأن من لم يخش الله فليس بعالم وبذلك فسرها السلف لأن إنما أداة حصر في اللغة.

ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩]

وقوله ﷺ: [إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية][1].

قيل للشعبي يا عالم قال: إنما العالم من يخشى الله.

وقال ابن مسعود: كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار بالله جهلاً.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله ما ملخصه: ومما يبين أن العلم يوجب الخشية وعدم ذلك يستلزم فقد الخشية وجوه:

أحدها: أن العلم بالله تعالى وما له من الأسماء والصفات كالكبرياء والعظمة والجبروت والعزة وغير ذلك يوجب خشيته وعدم ذلك يستلزم فقد هذه الخشية.

---

(١) سبق تخريجه.

الثـــاني: أن العلم بتفاصيل أمر الله ونهيه والتصديق الجازم بذلك وبما يترتب عليه من الوعد والوعيد والثواب والعقاب مع تيقن مراقبة الله وإطلاعه ومشاهدته ومقته لعاصيه وحضور الكرام الكاتبين كل ذلك يوجب الخشية وفعل المأمور وترك المحظور، وإنما يمنع الخشية ويوجب الوقوع في المحظورات الغفلة عن استحضار هذه الأمور والغفلة من أضداد العلم.

والغفلة والشهوة أصل الشر قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]

الثـــالث: أن تصور حقيقة المخوف يوجب الهرب منه، وتصور حقيقة المحبوب يوجب طلبه، فإذا لم يهرب من هذا ولم يطلب هذا دل على أن تصوره لذلك ليس تاماً.

الــرابــع: أن كثيراً من الذنوب قد يكون سبب وقوعه جهل فاعله بحقيقة قبحه وبغض الله له وتفاصيل الوعيد عليه، وإن كان عالماً بأصل تحريمه وقبحه لكنه يكون جاهلاً بما ورد فيه من التغليظ والتشديد ونهاية القبح، فجهله بذلك هو الذي جرأه عليه وأوقعه فيه ولو كان عالماً بحقيقة قبحه لأوجب ذلك العلم تركه خشية من عقابه.

الخــامس: أن كل من علم علماً تاماً جازماً بأن فعل شيء يضره ضرراً راجحاً ولم يفعله فإن هذا خاصة العاقل فإن نفسه تنصرف عما يعلم رجحان ضرره بالطبع.

فالفاعل للذنب لو جزم بأنه يحصل له به الضرر الراجح لم يفعله.



السادس: أن لذات الذنوب لا نسبة لها إلى ما فيها من الآلام والمفاسد البتة فإن لذاتها سريعة الانقضاء وعقوباتها وآلامها أضعاف ذلك. وما في الذنوب من اللذات كما في الطعام الطيب المسموم من اللذة، ومن ها هنا يعلم أنه لا يؤثر لذات الذنوب إلا من هو جاهل بحقيقة عواقبها كما لا يؤثر آكل الطعام المسموم للذته إلا من هو جاهل بحاله أو غير عاقل.

وحاصل الأمر ما قاله قتادة وغيره من السلف: إن الله لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليه ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلاً به، بل أمرهم بما فيه صلاحهم ونهاهم عما فيه فسادهم.

إلى أن قال رحمه الله: فإن نفس الإيمان بالله ومعرفته وتوحيده وعبادته ومحبته وإجلاله وخشيته وذكره وشكره هو غذاء القلوب وقوتها وصلاحها وقوامها، فلا صلاح للنفوس ولا قرة للعيون ولا طمأنينة ولا نعيم للأرواح ولا لذة لها في الدنيا على الحقيقة إلا بذلك، فحاجتها إلى ذلك أعظم من حاجة الأبدان إلى الطعام والشراب والنفس بكثير، فإن حقيقة العبد وخاصيته هي قلبه وروحه ولا صلاح له إلا بتألهه لإلهه الحق الذي لا إله إلا هو ومتى فقد ذلك هلك وفسد ولم يصلحه بعد ذلك شيءٌ البتة، وكذلك ما حرمه الله على عباده هو عين فسادهم وضررهم في دينهم ودنياهم، ولهذا حرم عليهم ما يصدهم من ذكره وعبادته كما حرم الخمر والميسر وبين أنه يصد عن ذكره وعن الصلاة مع مفاسد أخر ذكرها فيهما، وكذلك سائر ما حرمه الله فإنه مضرة لعباده في دينهم ودنياهم وآخرتهم كما ذكر ذلك السلف[1].

(١) باختصار من رسالة «إنما يخشى الله من عباده العلماء» للحافظ ابن رجب من مجموع رسائله (٢/٧٨٩-٨٠٤) ط. الفاروق الحديثة.

الخاطرة العاشرة بعد المائة

قوله تعالى:

﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦]

قال ابن القيم رحمه الله ما ملخصه: في هذه الآية عدة حكم وأسرار ومصالح للعبد، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب والمحبوب قد يأتي بالمكروه، لم يأمن أن تأتيه المضرة من جانب المسرة ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة لعدم علمه بالعواقب، فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد وأوجب له ذلك أموراً:

منها أنه لا أنفع له من امتثال الأمر وإن شق عليه قي الابتداء لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذات وأفراح وإن كرهته نفسه فهو خير لها وأنفع وكذلك لا شيء أضر عليه من ارتكاب النهي وإن هويته نفسه ومالت إليه فإن عواقبه كلها آلام وأحزان وشرور ومصائب، وخاصية العقل تحمل الألم اليسير لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير، واجتناب اللذة اليسيرة لما يعقبها من الألم العظيم والشر الطويل، فنظر الجاهل لا يجاوز المبادئ إلى غاياتها، والعاقل الكيس دائماً ينظر إلى الغايات من وراء ستور مبادئها فيرى ما وراء الستور من الغايات المحمودة والمذمومة.

ومن أسرار هذه الآية أنها تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور والرضا بما يختاره له وتقتضيه لما يرجو فيه من حسن العاقبة.

ومنها أنه لا يقترح على ربه، ولا يختار عليه، ولا يسأل ما ليس له به علم فلعل مضرته وهلاكه فيه وهو لا يعلم.

ومنها أنه إذا فوض إلى ربه ورضي بما يختاره له أمده فيما يختاره له بالقوة عليه والعزيمة والصبر وصرف عنه الآفات.

ومنها أنه يريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات التي يصعد منها في عقبة وينزل في أخرى ومع هذا فلا خروج له عما قدر عليه، فلو رضي باختيار الله أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به وإلا جرى عليه القدر وهو مذموم غير ملطوف به فيه.

فلا أنفع له من الاستسلام وإلقاء نفسه بين يدي القدر طريحاً كالميتة فإن السبع لا يرضى بأكل الجيف[1].

قلت وقريب منه قول بعض السلف: لا تكرهوا البلايا الواقعة والنقمات الحادثة فلرب أمرٍ تكرهه فيه نجاتك ولرب أمر تؤثره فيه عطبك.

(١) الفوائد (١٧٩-١٨١).

وقول بعضهم: عواقب الأمور تتشابه في الغيوب فرب محبوب في مكروه ورب مكروه في محبوب.

وقال بعضهم: لا أبالي أصبحت على ما أحب أو على ما أكره لأنني لا أدري الخير فيما أحب أو فيما أكره.

وقول بعضهم في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]

هي المصيبة تصيب العبد فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم.

الخاطرة الحادية عشرة بعد المائة

رائحة الإخلاص كرائحة البخور الخالص كلما قوي ستره بالثياب فاح وعبق بها، ورائحة الرياء كدخان الحطب يعلو إلى الجو ثم يضمحل، وتبقى رائحته الكريهة كلما بليت أجسام الصادقين في التراب فاحت رائحة صدقهم فاستنشقها الخلق.

كم اجتهد المخلصون في إخفاء أحوالهم عن الخلق وريح الصدق تنم عليهم، كم يقول لسان الصادق: لا لا وحاله ينادي نعم نعم، ولسان الكاذب يقول: نعم نعم وحاله ينادي: عليه لا لا.

كم اجتهد الإمام أحمد على أن لا يذكر وأبى الله إلا أن يشهره ويقرن الإمامة باسمه على ألسنة الخلق شاءوا أو أبوا، وكان في زمانه من يعطي الأموال لمن ينادي باسمه في الأسواق ليشتهر فما ذكر بعد ذلك ولا عرف.

خمول المحبين لمولاهم شهرة
وذلهم بين يديه عـــزٌ
وفقرهم إليه الغنى الأكبر

كان علقمة يكثر الجلوس في بيته فقيل له: ألا تخرج فتحدث الناس؟ فقال: أكره أن يوطأ عقبي ويقال: هذا علقمة هذا علقمة.

ورأى عمر قوماً يتبعون رجلاً فعلاهم بالدرة وقال: إن خفق النعال خلف الأحمق قل ما يبقى من دينه.



ما زال الصادقون من العلماء والصالحين يكرهون الشهرة ويتباعدون عن أسبابها ويحبون الخمول ويجتهدون على حصوله.

وقال بعضهم: ما اتقى الله من أحب الشهرة.

وكان أيوب السختياني يقول: ما صدق عبد إلا أحب أن لا يشعر بمكانه، ولما اشتهر بالبصرة كان إذا خرج إلى موضع يتحرى المشي في الطرقات الخالية ويجتنب سلوك الأسواق والمواضع التي يُعرف فيها.

وكان سفيان الثوري لما اشتهر يقول: وددت أن يدي قطعت من إبطي وأني لم أشتهر ولم أُعرف.

ولما اشتهر ذكر الإمام أحمد اشتد غمه وحزنه وكثر لزومه لمنزله وقل خروجه في الجنائز وغيرها خشية اجتماع الناس عليه وكان يقول: طوبى لمن أخمل الله ذكره.

تواريت عن دهري بظل جناحه ... فعيني ترى دهري وليس يراني

فلو تسأل الأيام ما اسمي ما درت ... وأين مكاني ما عرفن مكاني

كم من بين حال هؤلاء الصادقين وبين من يسعى في ظهوره بكل طريق، باستجلاب قلوب الملوك وغيرهم لكن إذا حقت الحقائق تبين الخالص من البهرج.

إذا اشتبكت دموع في خدود ... تبين من بكى ممن تباكى

قال ابن مسعود رضي الله عنه : كونوا ينابيع العلم مصابيح الظلام جُدَدَ القلوب خلقان الثياب، تُعرفون في أهل السماء، وتخفون على أهل الأرض.

(١) بتصرف واختصار من مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (٢/٧٥٥-٧٥٨).

الخاطرة الثانية عشرة بعد المائة

قيام الليل دأب الصالحين

قال النبي ﷺ : [عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، ومقربة إلى ربكم، ومنهاة عن الإثم][1] .

وهو من أرقى العبادات وأسباب الدرجات، فقد سُئل النبي ﷺ عن أسباب الدرجات، فقال في حديث اختصام الملأ الأعلى: [إطعام الطعام ولين الكلام] وفي رواية [إفشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام].

وأخبر أن في الجنة غرفاً يُرى باطنها من ظاهرها وظاهرها من باطنها. فقيل لمن هي يا رسول الله؟ فقال: [لمن أطعم الطعام وأفشى السلام وصلى بالليل والناس نيام].

وسيد الصالحين نبينا محمد ﷺ كان يصلي من الليل حتى تفطر قدماه وتتورم ساقاه فيقال له: أتفعل ذلك وقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول: [أَفَلا أَكُونُ عَبْداً شَكُورًا][2] . بل هو بأبي وأمي سيد الشاكرين وسيد الصابرين.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقوم للتهجد إذا هدأت العيون فيسمع له دوي كدوي النحل حتى يصبح.

وكان عبد العزيز بن أبي داود يفرش له الفراش فيضع يده عليه

(١) رواه الترمذي (١٣/٦٤،٦٥ عارضة) الدعاء، والحاكم (١/٣٠٨) صلاة التطوع، وصححه الألباني.

(٢) رواه البخاري (٣/١٤) التهجد، ومسلم (١٧/١٦٢) صفات المنافقين.

ويقول: ما ألينك ولكن فراش الجنة ألين منك. ثم يقوم إلى صلاته فلا يزال يصلي إلى الفجر.

وعن امرأة مسروق قالت: ما كان مسروق يوجد إلا وساقاه قد انتفختا من طول الصلاة. قالت: إن كنت لأجلس خلفه فأبكي رحمة له.

وكان الحسن البصري يقول: ما ترك أحدٌ قيام الليل إلا بذنب أذنبه، وكان كثيراً ما يقول: إنما يثقل قيام الليل على من أثقلته الخطايا.

وكان يقول: إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل.

وكان يقول: إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم كبلتك الخطايا والذنوب.

وكان سفيان الثوري يقول: حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنبٍ أصبته.

ودخل الحسن السوق فسمع لغوهم ولغطهم فقال: ما أرى ليل هؤلاء إلاَّ ليلَ سوءٍ.

ليس كل أحدٍ يوفق لقيام الليل، من أطاع الله عز وجل بالنهار وفقه الله عز وجل إلى قيام الليل، ومن أحسن في نهاره كوفئ في ليله، ليس كل أحد يدخل على الملك ويخلو بالملك.

الملوك لا يسمحون للخلوة بهم إلا أهل الإخلاص في معاملتهم.

إذا ما الليل أقبل كابدوه فيسفر عنهم وهم ركوع
أطار الخوف نومهم فقاموا وأهل الأمن في الدنيا هجوع

وقال بعضهم:

منع القرآن بوعده ووعيده مقل العيون بليلها لا تهجع
فهموا عن الملك الجليل كلامه فهماً تذل له الرقاب وتخضع

الخاطرة الثالثة عشرة بعد المائة

منزلة الإنابة

قال ابن القيم رحمه الله: الإنابة هي عكوف القلب على الله عز وجل كاعتكاف البدن في المسجد لا يفارقه، وحقيقة ذلك عكوف القلب على محبته وذكره بالإجلال والتعظيم، وعكوف الجوارح على طاعته بالإخلاص له والمتابعة لرسوله ﷺ ومن لم يعكف قلبه على الله وحده عكف على التماثيل المتنوعة كما قال إمام الحنفاء لقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء:٥٢]

فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف، فكان حظ قومه العكوف على التماثيل وكان حظه العكوف على الرب الجليل.

والتماثيل جمع تمثال، وهي الصور الممثلة، فتعلق القلب بغير الله واشتغاله به، والركون إليه عكوف منه على التماثيل التي قامت بقلبه وهو نظير العكوف على تماثيل الأصنام، ولهذا كان شرك عباد الأصنام بالعكوف بقلوبهم وهممهم وإراداتهم على تماثيلهم فإذا كانت في القلب قد ملكته واستعبدته بحيث يكون عاكفاً عليها فهو نظير عكوف الأصنام عليها، ولهذا سماه النبي ﷺ عبداً لها، ودعا عليه بالتعس والنكس فقال: [تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيْكَ فَلاَ انْتَقَشَ][1].

(١) الفوائد (٢٥٢-٢٥٣) والحديث تقدم تخريجه.



ويظهر من كلام ابن القيم رحمه الله أن الإنابة هي الوصول إلى درجة من الإيمان والمحبة لله عز وجل حيث يعلق العبد قلبه بالله فيكون حبه لله، وفي الله، وبغضه في الله، وتوكله على الله عز وجل، ورجاؤه وخوفه من الله عز وجل، واشتغال جوارحه بطاعة الله عز وجل، فتصير نفسه مطمئنة بالطاعة والعبادة، ولا يسعد العبد في الدنيا والآخرة حتى يكون كذلك، ومثل هذه النفس المطمئنة هي التي ينادى عليها عند تجردها من الجسد: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:٢٧-٣٠]

فنسأل الله تعالى أن يهدي نفوسنا، وأن تكون نفوساً مطمئنة بطاعة الله عز وجل، وأن يبلغنا منزلة الإنابة استجابة لأمر الله عز وجل.

﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر:٥٤]

الخاطرة الرابعة عشرة بعد المائة

قال بعضهم: ما رأيت حقاً أشبه بباطل من الموت

فكل عبدٍ مسلم بل وكافر يؤمن بالموت وأنه نهاية الحياة.

كل ابن آدم وإن طالت أمادته   يوماً على آلة حدباء محمول

والمؤمنون بالآخرة يعلمون أنها دار الجزاء فريق في الجنة وفريق في السعير، ومقتضى هذا الإيمان أن يكون سعي العبد في الدنيا على أساس ذلك، والآخرة خلود فمن حيث القيمة الآخرة خير ومن حيث مدة البقاء فالآخرة أبقى، وقد كان السلف يعتقدون ذلك فأنكر أحد الصحابة أنه فاتته صلاة خلف النبي ﷺ وما عزاه إلا رجلٌ واحدٌ ولو مات أحد أبنائه لعزاه الناس كلهم، وأخبر أن موت جميع أولاده أهون عليه من فوات صلاة خلف النبي ﷺ . مات ابن لإبراهيم الحربي فذهب إليه أصحابه يعزونه فقال: لقد كنت أتمنى موت ولدي هذا وقد كان ختم القرآن وتعلم سنة النبي ﷺ فقيل كيف تقول ذلك وأنت إمام العراق؟ فقال: رأيت في المنام أن القيامة قد قامت والناس في عطش شديد، ورأيت غلماناً يحملون أباريق يسقون الناس، فقلت لأحدهم اسقني فقال: إنك لست أبي، قلت فمن أنتم؟ قال: نحن الغلمان الذين متنا في الدنيا وتركنا آباءنا ننتظرهم نسقيهم الماء. من أجل ذلك تمنيت موت ولدي هذا.

قال ابن الجوزي رحمه الله: من تفكر في عواقب الدنيا أخذ الحذر، ومن أيقن طول الطريق تأهب للسفر.

ما أعجب أمرك يا من يوقن بأمر ثم ينساه، ويتحقق ضرر حالٍ ثم يغشاه، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه.

تغلبك نفسك على ما تظن، ولا تغلبها على ما تستيقن.

أعجب العجائب: سرورك بغرورك، وسهوك في لهوك عما قد خُبئ لك.

تغتر بصحتك وتنسى دنو السقم، وتفرح بعافيتك غافلاً عن قرب الألم.

لقد أراك مصرع غيرك مصرعك، وأبدى مضجع سواك – قبل الممات– مضجعك.

وقد شغلك نيل لذاتك عن ذكر خراب ذاتك.

كأنك لم تسمع بأخبار من مضى ولم تر في الباقين ما يصنع الدهر
فإن كنت لا تدري فتلك ديارهم محاها مجال الريح بعدك والقبر

كم رأيت صاحب منزل ما نزل لحده حتى نزل، وكم شاهدت والي قصر وليه عدوه لما عزل، فيا من كل لحظة إلى هذا يسري، وفعله فعل من لا يفهم ولا يدري.

وكيف تنام العين وهي قريرة ولم تدر في أي المحلين تنزل[1]

(١) صيد الخاطر (١٣، ١٤).

الخاطرة الخامسة عشرة بعد المائة

سئل أحد المفكرين عن الشهيد فقال: الذي يشهد بأن دين الله أغلى من حياته

وهو لا يشهد ذلك بلسانه، ولكن بلسان حاله، فهو يبذل حياته حتى تعلو راية دينه، وينتصر إسلامه، وقد كان السلف يفدون الإسلام ورسول الإسلام بدمائهم وأرواحهم.

فهذا خبيب بن عدي لما أسره المشركون وعذبوه عذاباً شديد وقالوا له: أتحب أن محمداً مكانك وأنك معافاً في أهلك ومالك؟ فقال: والله ما أحب أنني معافاً في أهلي ومالي ويشاك محمد ﷺ بشوكة.

وفي ذلك قيل:

أسرت قريش مسلماً فمضى بلا وجل إلى السياف
سألوه هل يرضيك أنك سالم ولك النبي فدىً من الإتلاف
فأجاب كلا لا سلمت من الورى ويصاب أنف محمدٍ برعاف

ولما أرادوا قتله أنشأ يقول:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي شق كان في الله مصرعي
ما دام في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلوٍ ممزع

وهذا البراء بن مالك طلب من إخوانه أن يضعوه على ترس ويحملوه على أسنة الرماح ويلقوه على المرتدين من بني حنيفة أتباع مسليمة الكذاب لما دخلوا الحديقة التي تسمى بحديقة الموت، وأخذ يقاتلهم وحده حتى فتح باب الحديقة، فدخل المسلمون وأخذوا يقتلون في المرتدين حتي خلصوا إلى مسيلمة لعنه الله فقتلوه.

فرحم الله صاحب هذه الخاطرة وقد طلب منه أن يكتب كلمات يسترضي بها طاغية زمانه ويطلق سراحه فأبى وقال: إن إصبع السبابة الذي يتحرك لله بالتوحيد في الصلاة ليرفض أن يكتب حرفاً يقر به حكم طاغية.

ولما طلب منه الاعتذار مقابل إطلاق سراحه قال: لن أعتذر عن العمل مع الله عز وجل.

باع الحياة رخيصة   لله يرجو أجرها
حتى طوته سجونهم   دهراً وفي ظلماتها
كم ساوموه لكي يحيد   عن العهود بأسرها
ولكي يخون كتائباً   باعوا النفوس لربها
ولكي يشوه ما أضاء   الكون من صفحاتها
ولكي يكون صنيعة   الشيطان بين صفوفها
وأبى الكريم مباهج   الدنيا وطلق آمرها
ورأى السجون معاقل   الأحرار رغم قيودها
وأصر أن يعلي نداء   الحق في جنباتها
فقضى السنين العشر   عملاقاً كشمم جبالها
وطوته جداران السجون   لكي يرى أهوالها
كم مزقته سياطهم   وتلقفته كلابها
حتى ارتقته شهادةٌ   ليكون من أبرارها
وهناك يلقى ربه   ويطل من عليائها[1]

فرحم الله صاحب الظلال وقد شهد بلسان حاله أن دين الله أغلى من حياته.

(١) «ديوان الصبر والثبات» لجمال فوزي (٣٤-٣٦) نقلاً عن «سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد» (٤٧٤-٤٧٥).

الخاطرة السادسة عشرة بعد المائة

كم بين غاية التزكية بين أهل السنة والصوفية

كما قال بعضهم:

سارت مشرقة وسرت مغرباً   شتان بين مشرق ومغرب

فغاية التزكية عند أهل السنة تحقيق كمال العبودية لله عز وجل، وغاية التزكية عند الصوفية الفناء والحلول والاتحاد.

ويستدلون بالحديث الموضوع: عبدي أطعني أجعلك عبداً ربانياً تقول للشيء كن فيكون.

ومن سلك في الطرق الضالة لا بد أن يصلح إلى النهايات المشؤمة فأهل السنة يزكون أنفسهم بالتوحيد وأداء الواجبات ثم نوافل الطاعات.

والصوفية يزكون أنفسهم بتحريم ما أحل الله من المطاعم والمشارب والذكر بالإسم المفرد مظهراً أو مضمراً ولا يجوز الذكر إلا بما يتضمن معنىً كاملاً كأن نقول: سبحان الله أو الحمد لله، والله أكبر أو لا إله إلا الله أو تقرأ القرآن.

أما الذكر بالإسم المفرد مظهراً كأن نقول: الله أو حي، أو مضمراً كأن تقول: هو هو أو لا هو إلا هو.

فمثل هذه الأذكار لا تجوز في شرع الله عز وجل، لأنها لا تتضمن إيماناً ولا كفراً، ولو قال العبد: الله ألف مرة لا يصير مسلماً حتى يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فلا يشك في أن هذه الأذكار المبتدعة عند الصوفية هي التي أوصلتهم إلى النهايات المشؤمة، حتى قال أبو يزيد البسطامي: ما في الجب إلا الله.

لأن العبد لو قال طوال الليل الله الله، أو هو هو يأتي إليه الشيطان فيوهمه أن الله هو المصباح الذي فوقه، أو الجدار الذي أمامه، خاصة إذا وصل إلى حالة السُكر كما يقولون حتى قال بعضهم والعياذ بالله: وما الكلب والخنزير إلا إلاهنا.

فقبح الله البدع والمبتدعين.

أما أهل السنة والجماعة فغاية التزكية عندهم تحقيق كمال العبودية لله عز وجل، فقد وصف الله عز وجل رسوله بالعبودية في أسنى مقاماته، وأرفع درجات في مقام الدعوة فقال عز وجل: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن:١٩]

وفي مقام الإسراء فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا﴾ [الإسراء:١]

وفي مقام التحدي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة:٢٣]

فكمال المخلوق في تحقيق كمال عبوديته لله عز وجل.

قال الإمام الطحاوي في بيان تشريفات النبي ﷺ: وأن محمداً عبده المصطفى، ونبيه المجتبى، ورسوله المرتضى.

وقال القاضي عياض:

ومما زادني شرفا وتيها وكدت بإخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيرت أحمد لي نبيا

ومهما كملت عبودية المسلم لله عز وجل كملت سعادته في الدنيا والآخرة، ومهما نقصت عبوديته لله عز وجل نقصت سعادته ووقع في عبودية غير الله ونال حظه من التعاسة والشقاء كما قال النبي ﷺ: [تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ القَطِيفَةِ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ][1].

(١) سبق تخريجه.

الخاطرة السابعة عشرة بعد المائة

قوله تعالى: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ﴾ [الدخان: ٢٩]

قال علي ﷺ: يبكي على المؤمن مصلاه الذي كان يصلي فيه من الأرض، وبابه الذي كان يصعد فيه قوله وعمله، ولم يكن ذلك لآل فرعون فلذلك لم تبك عليهم السماء والأرض.

قال الحافظ ابن رجب ما ملخصه: لما كان المؤمن خفيف الحاذ قليل العيال لم يكن له عند الموت كبير أحد يبكي عليه خلاف من له أهل وولد وخدم وحشم وعشيرة فإنه يكثر بواكيه مع قلة غناهم عنه بل يزيد بكاؤهم في عذابه كما في الصحيح عن النبي ﷺ: [إِنَّ المَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ][(1)].

فإنهم كثيراً ما يفعلون ما لا يجوز من النياحة واللطم وتحزيق الثياب وإتلاف الأموال والتسخط لقضاء الله وذلك كله يعذب به الميت ويتألم به.

ولهذا أوصى كثير من السلف أهلهم أن لا يبكون عليهم.

لما احتضر هشام بن عبد الملك -أحد خلفاء بني أمية- بكى أهله فقال لهم: جاد عليكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء، ترك لكم ما جمع وتركتم عليه ما حمل، ما أعظم منقلب هشام إن لم يغفر له.

(١) رواه البخاري (١٢٨٦)، ومسلم (٩٢٨) وأشار الإمام البخاري إلى أن الميت يعذب ببكاء الحي إذا كان النوح من سنته.

وقال الحسن: شر الناس لميت، أهله يبكون عليه ولا يقضون دينه، فهم يفعلون معه ما يضره ولا يفعلون ما ينفعه في قبره، وأكثر من يبكي على الميت عند موته إنما يبكي لفقد حظه منه إما من نفعه الحاصل له به من مال أو غيره، أو لفقد الأنس به ونحو ذلك من حظوظ الباكين، ولا يبكون رحمه لما هو فيه، وبكاء الرحمة هو بكاء العارفين دون بكاء الحزن كما قال النبي ﷺ لما بكى: [إنما هذه رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء](1).

احتضر أحد الصالحين فبكى أبواه وولده وأهله وصبيانه فسألهم ما الذي أبكاهم؟ قال أبواه: نبكي لفراقك وما نتعجل من الوحشة بعدك، وقال ولده: نبكي لفراقك وما يتعجل من اليتم بعدك. فقال: كلكم يبكي لدنياي أما فيكم من يبكي لآخرتي؟ أما فيكم من يبكي لما يلقى في التراب وجهي؟ أما فيكم من يبكي لمسئلة منكر ونكير؟ أما فيكم من يبكي لوقوفي بين يدي ربي؟ ثم صرح صرخة فمات رحمه الله.

فمن قلت بواكيه كان ذلك أقرب إلى رحمته.

وقيل إن في التوراة: أن الأرض تبكي على المؤمن أربعين صباحاً.

فكلما قلت بواكي الميت المؤمن من بني آدم كان أقرب إلى بكاء غيرهم عليه.

وقد سمع نياحة الجن وبكاؤهم على جماعة من سلف الأمة منهم عمر بن الخطاب والحسين بن علي وعمر بن عبد العزيز ﷺ(1).

(١) رواه البخاري (١٢٨٤).
(٢) باختصار من مجموع رسائل ابن رجب (٢/٧٦٣-٧٦٥).

الخاطرة الثامنة عشرة بعد المائة

أكمل الناس لذة من جمع له بين لذة القلب والروح ولذة البدن

قال ابن القيم رحمه الله: وأكمل الناس لذة من جمع له بين لذة القلب والروح ولذة البدن، فهو يتناول لذاته المباحة على وجه لا ينقص حظه من الدار الآخرة، ولا يقطع عليه لذة المعرفة والمحبة والأنس بربه، فهذا ممن قال تعالى فيه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]

وأبخسهم حظاً من اللذة من تناولها على وجه يحول بينه وبين لذات الآخرة فيكون ممن يقال لهم يوم استيفاء اللذات: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]

فهؤلاء تمتعوا بالطيبات، وأولئك تمتعوا بالطيبات وافترقوا في وجه التمتع، فأولئك تمتعوا بها على الوجه الذي أذن لهم فيه فجمع لهم بين لذة الدنيا والآخرة، وهؤلاء تمتعوا بها على الوجه الذي دعاهم إليه الهوى والشهوة وسواءٌ أذن لهم فيه أم لا فانقطعت عنهم لذة الدنيا وفاتتهم لذة الآخرة، فلا لذة الدنيا دامت لهم ولا لذة الآخرة حصلت لهم.

فمن أحب اللذة ودوامها والعيش الطيب فليجعل لذة الدنيا موصلاً له إلى لذة الآخرة بأن يستعين بها على فراغ قلبه لله إرادته وعبادته فيتناولها بحكم الاستعانة والقوة على طلبه لا بحكم مجرد الشهوة والهوى.

وإن كان ممن زويت عنه لذات الدنيا وطيباتها فليجعل ما نقص منها زيادة لذة الآخرة ويحجم نفسه ههنا بالترك ليستوفيها كاملة هناك، فطيبات الدنيا ولذاتها نعم العون لمن صح طلبه لله والدار الآخرة وكانت همته لما هنالك، وبئس القاطع لمن كانت هي مقصوده وهمته وحولها يدندن، وفواتها في الدنيا نعم العون لطالب الله والدار الآخرة وبئس القاطع النازع من الله والدار الآخرة.

فمن أخذ منافع الدنيا على وجه لا ينقص حظه من الآخرة ظفر بهما جميعاً وإلا خسرهما جميعاً[1].

---

(١) الفوائد (١٩٧-١٩٨).

الخاطرة التاسعة عشرة بعد المائة

حياة العلماء

قال ابن الجوزي ما ملخصه: تأملت نفسي بالإضافة إلى عشيرتي الذين أنفقوا أعمارهم في اكتساب الدنيا وأنفقت زمن الصبوة والشباب في طلب العلم فرأيت لم يفتني مما نالوه إلا ما لو حصل لي ندمت عليه، ثم تأملت حالي فإذا عيشي في الدنيا أجود من عيشهم، وجاهي بين الناس أعلى من جاههم، وما نلته من معرفة العلم لا يقاوم.

فقال لي إبليس: ونسيت تعبك وسهرك؟ فقلت له: أيها الجاهل: تقطيع الأيدي لا وقع له عند رؤية يوسف، وما طالت طريق أدت إلى صديق.

جزى الله المسير إليه خيراً وإن ترك المطايا كالمزاد

ولقد كنت في حلاوة طلبي العلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل لأجل ما أطلب وأرجو.

كنت في زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة فأخرج في طلب الحديث وأقعد على نهر عيسى فلا أقدر على أكلها إلا عند المساء.

فكلما أكلت لقمة شربت عليها وعين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم فأثمر ذلك عندي أني عرفت بكثرة سماعي لحديث الرسول ﷺ وأحواله وآدابه.

وأثمر ذلك عندي من المعاملة ما لا يدرى بالعلم.

ولولا خطايا لا يخلو منها البشر لقد كنت أخاف على نفسي العجب، غير أنه عز وجل صانني وعلمني وأطلعني من أسرار العلم على معرفته وإيثار الخلوة به.

وما زال يوقعني على المهم فالمهم ويحملني إلى من يحملني على الأصوب حتى قوم أمري.

وكم قصدني عدو فصده عني، وإذ رأيته قد نصرني وبصرني ودافع عني ووهب لي قوى رجائي في المستقبل بما قد رأيت في الماضي.

ولقد تاب على يدي في مجالس الذكر أكثر من مائتي ألف وأسلم على يدي أكثر من مائتي نفس.

وكم سالت عين متجبر بوعظي لم تكن تسيل

ويحق لمن تلمح هذا الإنعام أن يرجو التمام

وربما لاحت أسباب الخوف بنظري إلى تقصيري وزللي[1].

(١) صيد الخاطر (٢٣٥-٢٣٦).

الخاطرة العشرون بعد المائة

علامات السعادة والشقاوة

قال ابن القيم رحمه الله: عن علامات السعادة والفلاح أن العبد كلما زيد في علمه زيد في تواضعه ورحمته، وكلما زيد في عمله زيد في خوفه وحذره، وكلما زيد في عمره نقص من حرصه، وكلما زيد في ماله زيد في سخائه وبذله، وكلما زيد في قدره وجاهه زيد في قربه من الناس وقضاء حوائجهم والتواضع لهم.

وعلامات الشقاوة أنه كلما زيد في علمه زيد في كبره وتيهه، وكلما زيد في عمله زيد في فخره واحتقاره للناس وحسن ظنه بنفسه، وكلما زيد في عمره زيد في حرصه، وكلما زيد في ماله زيد في بخله وإمساكه، وكلما زيد في قدره وجاهه زيد في كبره وتيهه، وهذه الأمور إبتلاء من الله وامتحان يبتلي بها عباده فيسعد بها أقوام ويشقى بها أقوام.

وكذلك الكرامات امتحان وابتلاء كالملك والسلطان والمال قال تعالى عن نبيه سليمان لما رأى عرش بلقيس عنده: ﴿**هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ**﴾ [النمل: ٤٠]

فالنعم ابتلاء من الله وامتحان يظهر بها شكر الشكور وكفر الكفور كما أن المحن بلوى منه سبحانه فهو يبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلاَّ﴾ [الفجر: ١٥-١٧]

أي ليس كل من وسعت عليه وأكرمته ونعمته يكون ذلك إكراماً مني له، ولا كل من ضيقت عليه رزقه وابتليته يكون ذلك إهانة مني له[١].

(١) الفوائد (٢٠٣).

الفهرس

الموضوع — الصفحة